منتدى مكتبة الاسكندرية
علي مولا

ALEXANDRA.AHLAMONTADA.COM
منتدى مكتبة الاسكندرية

أَلْفُ لَيلَةٍ ولَيلَةَ

التُّركِيَّة

المُسمَّاة

مُناجاةُ البُلغاء في مُسامرة البَبَّغاء

(مجموعة من القصص والحكايات الرائعة)

ترجمة عن اللغة التركية

سليم أفندي باز

عرَّف بها وقدَّم وحقَّقها

خليل حنا تادرس

خلاصة

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي خلق الإنسان. وميزه عن الحيوان. بالنطق والجنان. أما بعد فـ لا يخفى على أهل الذكاء والفصاحة. وأرباب النهى والبلاغة. أن العق ـلاء والحكم ـاء كان يومًا ما جل دأبهم اجتهادهم في مطالعة أخبار من سلف ومن عبر. وأمثال من مضى ومن غبر. فيجنون من غرارها دار الفوائد .. ويكتسبون من دررهـ ـا غ ـر الفوائد.. لأنه لا ريب بأن في أمثال المتقدّمين عبرة للمتأخرين. ووقاية للمعتبـ ـرين. فبناء عليه قد أوعز إلى من إعارته حكم وطاعته غنم. وهو سلطان سـ ـلاطين هـ ـذا الزمان. وولي نعمتنا بلا امتنان. الجالس باليمن والافتخار. على أريكـ ـة السـ ـلطنة العثمانية الأبدية القرار. بأن أحرر هذا الكتاب المستطاب. بعبارات لطيفـ ـة راقيـ ـة. وأضمنه من مبتكرات الآداب مُلَحًا فائقة شائقة. فعاندني جمود القريحـ ـة الخامـ ـدة. وناصبني خمود الفطنة الجامدة. بيد أنه قد جاء أمره الكـ ـريم مصـ ـهلاً لحزونهـ ـا. ومذللاً لحزونها. فلهذا بادرت إلى تسويد هذه الطروس. وابتدرت إلى إبـ ـداع هـ ـذه العروس. فجاءت عارية من الحسن والجمال لكنها تستعير من أنظاره الملوكية حُلَة البهاء والكمال... هذا وأرجو المغفرة عما طغى به القلم. وذلت به القدم. متوسـ ـلاً للحق سبحانه بأن يوفقني لختامه. ويغمرني بغزير الألفة وأنعامه.

أمين يا رب العالمين.

* * * * * * *

جلس الشيخ سعيد ذات ليلة كان القمر ساطعًا يوصل أشعته الذهبية على الكون ويعانق الطبيعة بدفئه وحنانه.

وكان الشيخ سعيد رجلاً قد خبرته الأيام وصقلته وأحنت ظهره التجارب.. وصبغ الشيب شعره فأضحى بلون الفضة وقد خاض معارك الحياة ونهل من ملذات الدنيا حتى شبع.. وقد خرج من هذه الحياة بابن وحيد كرس نفسه في تربيته.. وقد زوجه أخيرًا بفتاة جميلة.. ولكن الابن راح يعيش حياة أخرى.. حياة كلها ابتذال ومجون تاركًا بيته وزوجته هائمًا على وجهه سائرًا في طريق كله أشواك وهذا ما أغضب الأب، فجلس معه تحت ضوء القمر وراح ينصحه ويردعه قائلاً:

حبيبي.. إن رباطات الحب المخلص ووصية الأبوة تلزماني بأن أسارع وأنتشلك من غواية غويت فيها.. انظر يا بني ها أنا أبوك قد شاخ وقرب أجله، ومن ثم لم يعد لي مطمع في حطام هذه الدنيا سوى نجاحك وفلاحك.. اعلم يا بني منذ درجت من عشي لم أذق صفو الليالي.. بل كنت أجدُّ وأسعى في طلب الرزق حتى اقتنيت ما يسره لي العلي المنان من كرمه ولطفه، وقد شق عليَّ الآن أن أراك متقاعسًا متناعسًا مسرفًا مبذرًا جنْيَ أتعابي وكدِّي ومتعلقًا بقرينتك تعلقًا يقودك إلى الذل والهوان.. يا بني إن كنت لا تدع معاشرة قرينتك وتقلع عن هذه العادة السيئة فلا يمكنني أن أمنعك عنها، غير أنه لا يليق بشاب مثلك أن يغذي أيامه بالتقصف والصفا مع زوجته. ناشدتك الله أن ارجع عن غيك وارتدع عن لهوك وأذعن لنصيحة أب شفوق: "اكبح نفسك ولا تمل إلى هواها ولا تطع شهواتك فإن طاوعتها كبحت وربَّ نجاةٍ منها". ألم تسمع ما حُكيَ أن ثمانين صالحًا لم يصلحوا شريرًا واحدًا.. بل إن شريرًا واحدًا أفسد ثمانين صالحًا.

فقال له ساعد:

- وكيف كان ذلك.. ؟!

حكاية

قمر الزمان والأمير والببغاء

قال سعيد:

زعموا أنه كان في ناحية هرمز رجل كان يقال له ناخود، وكان له غلام قبيح السيرة؛ لأنه لم يكن قد بلغ الثانية عشر من عمره حتى توغل في غيطان الفواحش والرذائل فاستوعب أهله خجلاً وخزيًا من أفعاله القبيحة، ولما كان أبوه ذات مرة متحيرًا في أمره أخبره أحد أقربائه بأنه يوجد في إحدى القفار معبدًا فيه ثمانون ناسكًا عاكفون على الصلاة والعبادة، وأشار عليه بأن يسجن ابنه ثمانين يومًا معهم ويعدهم بمال وافر ليقبلوه بينهم، لعله يستفيد من أمثالهم الصالحة ويقلع عن عوائده الوخيمة، ويرسل له الطعام فيُعطَى من الخارج. فاستصوب أبو الغلام هذا الكلام وفعل كما أشير عليه. فلما انقضت المدة المعينة أتوا الولد ليتفقدوا ويروا ما صار عليه أمره. ولما شرعوا يفحصون عنه وجدوه باقيًا على ما كان عليه وقد أثر فسقه بالثمانين صالحًا فتوغلوا معه ببحر الفواحش والرذائل.

فلما سمع ساعد هذا الكلام تأثر وعاد عن غيه فتقدّم إلى أبيه واستغفر عما مضى فضمه أبوه وقبل عارضَهُ، فرجع ساعد إلى عادته القديمة متعاطيًا التجارة وضابطاً إدارة الأشغال المنوطة بأبيه، فأراحه ووفر أوقاته للانشراح، ولم يكن يواصل زوجته إلا بعد انقضاء النهار. فأعطاه أبوه وقتئذٍ ألف دينار ليتاجر بها، فيومًا ما حينما كان ذاهبًا إلى المدينة وجد رجلاً معه ذكرٌ من الببغاء وكان الدلاَّل يطنب بمدحه قائلاً:

– فصيح اللسان حافظ القرآن ثمنه ألف دينار وإنه يدرك بمن اقتناه كمال السعد والدولة..

وكانت الناس تتزاحم عليه، فلما سمع ساعد كلام الدلاَّل.

تعجَّب واندهش فتقدّم إلى الببغاء ليراه فوجده خاشعًا في قفصه لا يتفوه بكلمة واحدة، فهتف عند ذلك صارخًا:

– من هو ذاك الأحمق المسرف الذي يبذل ماله لاقتناء هذا الطائر لأنه لا يجدي أحدًا نفعًا، فإن كان فصيح اللسان فلا يفهم ما يقول وإن كان حافظًا للقرآن فلا يجديه مطالعته نفعًا فمن اشتراه بألف دينار كان به ضرب من الجنون المطبق..

فلما سمع الببغاء هذا الكلام تأسفت نفسه وتحسرت وصرخ في الحال قائلاً:

– يا ساعد نِعم الرجل أنت .. لقد صدقت فيما نطقت غير أنك لا تعرى عن الملام لأنك أطلقت الكلام في هذا المقام لأن ما قلته يصدق على عموم الحيوانات والطيور، وأما أنا فلست على حالتهم لأنني ذو حكمة وبصيرة متحلٍ بفضائل سامية ذو همَّة عالية أعرف بالغيب والآثار ولهذا أقول لك إنك ستصادف حظًّا وافرًا وسعدًا عظيمًا وقد أوقع الله حبك في فؤادي فوددت لو تقتنيني فأبلغك من الحظ والسعادة مبلغًا عظيمًا وأعيش في دارك بظل الراحة وصفو الليالي.

فأجابه ساعد:

– أيها الطائر اللطيف إن قلبي قد مال متعاطفًا معك وودت أن أقتنيك. ولكن إذا بذلت الآن ألف دينار وهي رأس مالي فماذا أصنع بعد ذلك؟

فأجابه الببغاء.:

– يا سيدي إن كلامك هذا قد زاد حبك في قلبي؛ لأن منشأك العفة والعقل الذي لا تقدر قيمته، وإنك الإنسان الغنى الذي لا يفنى غناه.. فمن ساد بعقله فاز بكنوز لا تُحصى، ومن كان خاليًا من العقل فذاك هو النجاح لأن الإنسان إنسان وإن لم يعرف إلا طريقًا واحدًا.

والحمار حمار وإن كان إكافُه من فضة أو ذهب. فتملَّكي أيها الشاب اللطيف هو أنفع من ألف دينار، لأنني سآتيك بفوائد عظيمة تنيف قيمتها عن ألف دينار. فإن

كنت لا تعتقد بكلامي هذا جرِّبه بالامتحان فتظهر لك الحقيقة.. لأنه قيل بالامتحان يُكرم المرء أو يُهان..

فعند ذلك اشترى ساعد الببغاء بشرط الخيار ليختبر أمره وأخذه إلى بيته ثم بعد ذلك تقدّم إليه وقال له:

– مُدَّني الآن بنصيحتك لأرى ما يكون منها..

فأجابه الببغاء:

– يا سيدي إنه بعد يومين يأتي من مدينة بابل كثير من التجار ليشتروا كمية وافرة من الحنطة. فاشتري الآن قمحًا بالألف دينار التي معك فيكون الربح أضعافًا.

فوثق (ساعد) بكلام الببغاء وذهب إلى المدينة فاشترى كل ما كان فيها من الحنطة حتى أنه لم يبق عند غيره حبة واحدة.

وبعد يومين تم ما أعار إليه الببغاء فأتى تجار من بابل يطلبون الحنطة فلم يجدوها سوى عند ساعد؛ فاشتروا ما كان عنده بخمسة الآف دينار وعادوا إلى بلادهم فدفع ساعد ألف دينار ثمن الببغاء ورد إلى أبيه ألف دينار كان قد استقرضها منه، وبقي معه ثلاثة آلاف دينار جعلها رأس ماله. فازداد حينئذٍ حبه نحو الببغاء فسلمه إلى قمر السُّكَّر، وأمرها برعايته وكان لا يفعل شيئًا إلا بمشورته لأنه كان دائما مصيبًا برأيه.

ويومًا ما رأى (ساعد) في يد الدلاَّل ببغاء أُنثى ثمنها دينار واحد فاشتراها وجعل اعتقالها عند الببغاء العاقل حتى تسامره، وكانت هذه الببغاء جاهلة لا تعرف شيئًا ولم يشترها ساعد إلا لمسامرة ذاك الببغاء الذي كان في داره عصا الترحال وسبب غبطته وسعادته.

ويومًا ما أتى ساعد أهله الببغاء العاقل وقال له:

– تهيأ للسفر فإني مرحلك إلى أرض بعيدة فتجني من سفرك هذا ربحًا عظيمًا، وشرع يبين له المنفعة التي ستنتج من سفره فوقع ذلك لديه موقع الاستحسان،

وعمل على العمل بموجبه فأخبر قمر السُّكَّر بما عزم عليه وقال لها إنه عن قريب يسافر إلى بلدة بعيدة.

فلما سمعت قمر السُّكَّر هذا الكلام اعتراها حزن شديد وأخذت تبكي وتنوح حتى جرحت قلب ساعد فطفق عند ذلك يعتريها ويعدها بالرجوع قريبًا ويبين لها أن سفره ذو فائدة عظيمة لا يليق به أن يتقاعد عن نوالها؛ لأنه لا يجمل بالرجال أن تلائم بيوتها دون انقطاع سيما في زمن الصبا.

فأجابته قمر السُّكَّر:

– حبيبي إني متيقنة أن عزمك على السفر إنما هو ناتج عن علو همتك، ولكن إلى من تتركني إذا رحلت وكيف أستطيع صبرًا على فراقك ولم أتعود عليه قط لأنك لم تفارقني لحظة واحدة، فكيف تكون حالتي بعد الفراق ويا لعظم حزني وتعاستي حال غيابك الذي سيفتت أحشائي ويذيب مقلتي من الدموع السخينة.

فأجابها ساعد:

– لحقيقٌ أن الفراق يورثك الغم الجسيم، ولكنه يورثني من ذلك أضعافًا، وإنما لا يليق بي التهاون والتقاعس حتى لا تشمت بي أعدائي وتستقلني أحبابي، فإن غبت عنك فأودعك فؤادي وعن قريب أعود إليك فما أحسن الوصول بعد الفراق ولكن لك مني وصية بموجبها يكون العمل وهو أنه يجب عليكِ أن تحفظي هذين الطيرين وتبذلي لهما القليل والكثير حتى أعود من سفري هذا، ثم إنه لا تحيدي عن جادة الصدق بل الزمي محجة السلاح وحافظي على الطهارة والنقاوة لأنهما زينة المرء في الدنيا وفي الآخرة واحرصي على لسانك والزمي قلة الكلام لأن زينة النساء الصمت والاحتشام وقد قال الشاعر:

الصمت زين والسكوت سلامة ... فإذا نطقت فلا تكن مكثارًا
ما إن ندمت على سكوتي مرة ... ولقد ندمت على الكلام مرارًا

وإذا مضت سنة كاملة ولم أعد من سفري وتحركـ ت فيـ ك الشـ هوة النفسـ انية فاجتنبي مصاحبة اللئام؛ لأن من صاحب اللئيم صار لئيمًا ولكن إذا هويـ ت شـ ابًا جميل الصورة ذا حسب ونسب، فيباح لك ذلك بشرط أن لا تقبلي على عمل بـ دون استشارة الببغاء العاقل.

قال هذا وسلم كل منهما أمره لله فودعها ساعد وودع الأحباب والخلان وسـ افر فجددت قمر السُّكَّر البكاء والنحيب متأسفة متحسرة طالبة مـ ن الله عـ ود زوجهـ ا بأقرب وقت لتعود لحبه فلبثت على هذه الحالة أيامًا عديدة متذكرة حبيبها، وكانـ ت تأتي الببغاء مرارًا وتخبره عما أحاق بها من ألم الفراق.

تمنيـ ـت الوصـ ـال يعـ ـود يومـً ـا .. لأخبـ ـره بمـ ـا صـ ـنع الفـ ـراقُ

ثم إنه مضت سنة كاملة وقمر السكر على هذه الحالة متحسرة ومتشـ وقة إلـ ى زوجها ولم تكن تخرج من بيتها مرة واحدة.. فيومًا ما بينما كانت جالسة في الشباك متذكرة زوجها كان . بالقضاء والقدر . أن نظرها أمير جميل الصـ ورة ففـ تن ببهائها وشغف بجمالها. وأما قمر السُّكَّر فكأنها لم تر لأنه بعد فراق زوجها لم يعـ د يلذها شيء.

وأما الأمير فكان يزداد انشغافًا يومًا بعد يوم حتى نحل جسـ مه وصـ ار أشد به بالخيال ولم يعد يسمع له إلا زفير ونحيب وأضحى في عجز عظيم وأدرك به درجة الهلاك ولكن حيث كان يتعاطى بعض أشغال في المدينة عثر على عجوز خادعـ ة محتالة تحتال على الحكيم والجاهل فأتاها وأطلعها على سـ ريرته ووعـ دها بمـ ال جزيل إذا ما بلغ مرامه فتعهدت له بذلك وقالت:

- فليسكن منك البال لأنك بابتداء الشهر القادم تنال مبتغاك، ثم نهضت لساعتها وقصدت قمر السُّكَّر كغراب البين يطرق الأبواب المخدومة من السعد والإقبـ ال فلما رأت العجوز قمر السُّكَّر، وما هي عليه من البهاء الفائق تظاهرت بالبكـ اء والنحيب، فقالت لها قمر السُّكَّر:

– لم البكاء والنواح فلا غرو إنك غير مبتلية مثلي بفراق حبيبك فمن شد يمتي البكاء والنواح وأما أنت فما هو سبب بكائك؟

فلما سمعت العجوز هذا الكلام شرعت تؤنب قمر السُّكَّر وتبذر في فؤادها بذور المكر والخداع لأن ذلك دأب العجوز التي اشتهر مكرها وخداعها وما أحسن ما قاله الشاعر فيها:

عج .وز الـ .نحس إبلـ .يس يراه .ا .. تعلم .ه الخديع .ة م .ن س .كوتِ
تق . ود بمكره . ا س . بعين بغ . لاً .. إذا ش . ردوا بخ . يط العنكب . وتِ

فنظرت إلى قمر السُّكَّر وقالت لها:

قرة العين، أما هذا الحيف والجهالة هل يليق بك أنت المتوشحة بحُلة الجمال وأن تعرضي عن مواصلة الخلان ومزاح الأقران مع أنك تقاسين أشد الحـ زن بفـ راق زوجك القاسي المتصلب الذي لم يبالِ بفراقك بل نسيَ أيام المودة والمؤاخاة فسـ افر وأودعك فريسة التحسر والكمد، ولا غرو أنه وجد في غربته من سلبت فؤاده فتعلق بها ولم يعد يذكرك وذلك بدليل عاقته في بلاد الغرباء وحيث إنه قد نكس عهدك فما بالك لا تشفي غليل فؤادك بمصافاة من يروق لك من الأمراء لهذه المديـ ـة الـ ذين يهيمون بحبك إذا نظروك مرة واحدة. فمنهم أمير من جلة الأمراء وهو شاب جميل الصورة يمتاز بغنى لا يُحصَى وجمال لا يوصف ولا غرو أنك إذا نظرتيـ ـه مـ رة واحدة انشغفتِ بحبه ونسيت بعلك ذاك الخائن الذي انشغل عنك بغيرك فـ ي تلـ ك الأمصار، وحيث قد أصبح زوجك عاشقًا، فلماذا لا تعشـ قين والعشـ ق واللهِ لـ يس بمحرم فإذا قصدت الآن مصافاة ذلك الأمير الذي ذكرتُه لك فليس هذا بأمر عسـ ير لأنه يود كثيرًا أن يعاشرك ويؤاخيك فاتركي هذه الحالة الشـ قية والزمـ ي الصـ فا والانشراح معه كما في عادة الغواني الحسان، ولا تبالي بزوجك الخائن المـ بغض الذي لم يبالِ بهجرك، فإذا أذعنت لنصيحتي المخلصة فتكوني قد انتقلت من الشـ قاء

إلى السعادة وإن بقيت مصرة على غيك فيكون فيك جنون وستندمين على ما فاتك إذا ما عاد زوجك من سفره واتضح لك جليًا فتور حبه نحوك.

فلما سمعت قمر السُكَّر هذا الكلام تدافقت على رأسها الأفكار ووقع لديها قول العجوز موقع الاستحسان والقبول فصرحت لها بتمام رضاها بما تريده فلما تيقنت العجوز بنوال مبتغاها قالت لها:

– حبيبتي إنه عندما ينقضي النهار توشحي بأفخر الملابس والحلي وعندما يدلهم الليل اذهبي إلى الأمير فإن ظلام الليل يظللك عن عين كل ناظر.

قالت هذا وانصرفت عنها ورجعت إلى سيدها حاملة هذه البشرى السعيدة.

وأما قمر السُكَّر فقد شعرت بوقوع حب الأمير في قلبها وقد قيل: "الأذن تعشق قبل العين أحيانًا" فلما جاء المساء تزيَّنَتْ وتبرقشت وتسربلت بالملابس الثمينة وهمت بالتوجه إلى حبيبها فتذكرت ما أوصاها به زوجها ساعته.. فقالت في نفسها أن استشيري الببغاء العاقل وهو ذكر من غير جنسي فلا يرق لحالي، ولا غرو أنه يميل إلى زوجي فيحول بيني وبين مرادي، فالأجدر بي أن أستشير الببغاء الأنثى فهي من جنسي، ولا شك أنها تبيح لي ما أستبيحه أنا وذلك لا يناقض أمر زوجي لأن قوله "استشيري الببغاء" يطلق على كليهما، فمن ثمَّ أتت الأنثى وحيَّتها بالسلام وأطلعتها على سريرتها واستباحت الذهاب إلى حبيبها فلما سمعت الببغاء كلامها أنفذت جذوة غضبها وأخذت توبِّخها وتقول:

– ألا تستحي أيتها المرأة من ارتكاب إثم كذا فظيع.. أنسيت زوجك المحسن إليك ونكست عهودك حتى ظهر منه ما يوجب الخيانة.. هل لا تخشين سخطه عليك إذا حضر وعلم ما انطوى عليه أمرك، فارجعي عن غيك وإلا فسأُعلم زوجك بسوء تصرفك فتكوني عبرة لمن يعتبر.

فأوغر هذا الكلام صدر قمر السُكَّر فاشتد غيظها وكمنت الحقد والضغينة للببغاء وقالت لها:

– كيف تتجاسرين مع دناءة شأنك أن تجيبيني بمثل هذا الكلام، مع أن سعدًا أباح لي هوى شاب جميل ذي حسب ونسب فلسوف أقتلك.

وللحال، أخذتها بيدها وطرحتها في الأرض وحينئذٍ صارت قمر السُّكَّر تبكي وتقول:

– أسفي على الببغاء لقد افترسها طائر مفترس فلما سمع الببغاء العاقل هذا الكلام علم بما أصاب رفيقته من النكبة والبلاء لأنه كان عارفًا بالغيب، وبعد ذلك خرجت قمر السُّكَّر إلى ساحة الدار حزينة غاضبة وقضت ليلها على الأرض، ولما جاء الليل التالي دعاها الأمير إلى بيته وحينئذٍ ندمت على ما فعلت من استشارة الببغاء الجاهلة، وتذكرت وصية زوجها بوجوب استشارة الببغاء العاقل فقالت في نفسها: "سأذهب إليه فإن حذا حذو رفيقته فكمثلها موتًا يموت".

قالت هذا وتقدّمت إليه وباحت له بسرها واستباحت الوصال مع خلها، فلما سمع الببغاء كلامها أطرق خاشعًا وفكر في وجه الحيلة بتعرفه في هذا المشكل، ففطن وقال في نفسه: "إن نصحتها هلكت لا محالة وإن طاوعتها ارتكبت خيانة عظيمة مأواها السعير". ففكر في هذا ونظر إلى قمر السُّكَّر وقال لها:

– يا روضة الحسن والبهاء كيف يليق بك أن تستري هذا البهاء الفائق وتستمري في الحزن والمكوث في حجرتك، فالأجدر بك أن تسارعي وتُقبلي على ما خطر لك أخيرًا فهذا هو سديد الرأي عندي وقد شق على جدًا ما فاهت به تلك الحمقاء التعيسة، ولما كنت أعهد من حماقتها وجهلها اجتنبت مصاحبتها لأنها لم تدرك ما يقاسيه العاشقان من مُر الهجر، فلهذا تكلمت بما تكلمت وحل بها ما استحقته لسوء تصرفها وأما أنا فكان يسوءني لزومك الخلوة، وفكرت كثيرًا بحالتك الشقية وكثيرًا ما خطر ببالي ردعك عما أنت عليه، لكن خشيت الفضول ولذلك لبثت صامتًا مترقبًا الفرصة المناسبة، فعليَّ الآن انتهازها لأنني أود إلى ما يؤول إلى انشراحك

وجلاء همك، وعليَّ أن أعلمك طريقة العشق لكي يزداد أهله بحبك هيامًا ولك مني نصائح أخرى أقولها لك في الليلة الآتية:

وما فتيء الببغاء يخاطبها بمثل هذا الكلام حتى ضجرت قمر السُّكَّر فحينئذٍ صرفها وقال لها:

اذهبي بسلام إلى حبيبك ويسر الله لك رغدًا هنيئًا.

فخرجت قمر السُّكَّر لساعتها قاصدة باب الصفا والسرور ولكن لم تخرج من الباب إلا وقد بلج الصباح وأضاء بنوره ولاح فعادت حينئذٍ خائبة منتظرة بفروغ صبر انقضاء ذاك النهار، فلما جاء المساء تزيَّنَتْ وتخضبت وأتت قفص الببغاء وقالت:

- يا من سدل عليَّ ستار النسيان فقد وعدتني ليلة أمس بنصائح وأتيتك الآن ليُنجز حر ما وعدَ.

فأجابها الببغاء:

يا قمر السُّكَّر إنني أفتتح كلامي بثلاث مقدمات يجب عليك حفظها، وبدونها يعود سعيك باطلاً، وبعد ذلك أعلمك ما يجب أن تفعليه.

أولاً: يجب أن ترتبطي بحب زوجك ساعد ارتباطًا متينًا، وتحافظي على حبه ووداده، ولكن هذا لا ينافي مواصلة الأمير حبيبك، فلا تلبثي في حجرتك بلا أنس ولا أنيس لأنك لم تحصلي على هذا الحب إلا بأعظم التقادير، وهذه سعادته حظوت بها بدون مشقة فلا تؤجلي صفو يومك للغد.

ثانيًا: بما أنني عالم بالغيب فأحوال ساعد معلومة لديَّ، فإنه على ما يرغب ويحب، لأن له بكل نادٍ خليلاً يروي غليله، ولئن كان مرتبطًا بحبك أشد ارتباط فإنه لا يجتنب مصافاة الخلان ومغازلة الأقران، ولا يؤجل رغد يومه للغد وأما أنت فاغتنمي أيضًا ما يتيسر لك من السرور، لأنه لا يليق بك أن تكوني خالية من العشق؛ لأن هذه شيمة من قل عقله ونزح خيره وفضله وقد قال الشاعر:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهـ وى .. ولا خير فـ يمن لا يحـ ب ويعشـ قُ

ثالثًا: إنه لحقيقيٌ أنَّ ساعد قد اشتراني ونقد ثمني لكن فضلك أعمُّ من فضـ له إذ بين يديك عشت زمنًا طويلاً ومن يديك اقتبلتُ النعم، لأنك كنت تقدّمين لي كل مـ ا يعـ وزني وسـ هرت علـ يَّ بكـ ل نشـ اط فمـ ن ثـ مَّ نعمتـ ك جزيلـ ة وافـ رة لا تُنسى، ولذلك أسعى وأجِدُّ في كل ما يسرك ونفسي فداك لأنه لا يستطيع شيء أن يفصلني عنك ويقلع نار حبك من فؤادي، فإن حللت كلامي محل الصدق فهـ ذا مـ ا أرجوه وإن حللته محل التمويه فسوف يظهر لك الحـ ق المـ بغض مـ ن المحـ ب والصادق من الكاذب، ولا شك أنه بقوة العلي المنَّان يظهر حبي لك جليًا كما اتضح حب تلك الببغاء المسكينة لمولاها التاجر الهندي وقرينته.

فسألته قمر السُكَّر:

– وما هي حكايتهم؟

فأجابها الببغاء:

– إن هذه الحكاية على غاية من الظرافة، وأود أن أقصها عليك لكن لم يبق من الليل سوى ثلثُه فلا يمكنك الذهاب إلى الأمير فاذهبي الآن، وارقدي لأنك في حاجة كُلية إلى الرقاد والراحة، وأنا كذلك، لأنني لم أزل منذ يومين ساهرًا لـ م أذق لـ ذة الوسن فضعفت قواي جدًا، ولهذا أرجو صرف النظر عن هذا القصور وفي الليلـ ة الآتية أقص عليك هذه الحكاية.

فذهبت قمر السُكَّر ونامت حتى بزوغ الشمس، وقامت تنتظر المساء إلى أن وفدَ، فحينئذٍ أتت الببغاء وقالت له:

– انجز ما وعدتني به أمس وقصّ عليَّ تلك الحكاية التي أشرت إليها.

* * * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في بلاد الهند تاجر حكيم عاقل له ببغاء حكيمة ورثها من أبيه ولفرط حبه لها أقام عليها حارسًا ليقوم بصيانتها وحراستها، وكان يقضي نهاره في المدينة، وعند رجوعه للبيت مساءً كان يسأل الببغاء عن حال زوجته وبيته وعما جرى حال غيابه، فمضى على هذا المنوال أيام كثيرة فيومًا ما عنَّ له السفر إلى خراسان فتهيأ للرحيل وأتى الببغاء فودعها وأقامها محافظة على بيته لتخبره بعد رجوعه عما يحدث حال غيابه، ثم أتى زوجته وأمرها برعاية الببغاء ثم ودعهما وسافر، فلم تمض أيام كثيرة بعد سفره حتى ابتلت زوجته بعشق شاب جميل الصورة، فدعاها مرة إلى بيته حيث كان خاليًا من الناس وقضى ليلة بوصالها ومغازلتها حتى الصباح، فعلمت الببغاء بما جرى وأسرته في قلبها، ثم عُقيب ذلك عاد التاجر من سفره فنظر إلى أحوال بيته فرآها على ما يرام وما يرغب من الانتظام ثم أتى قفص الببغاء وسلم عليها وسألها عما جرى حال غيبته، فأخبرته بكل ما كان إلا أنها كتمت عليه ما فعلته زوجته مع ذاك الشاب، غير أن التاجر قُبيل وصوله إلى البيت بلغه ذلك ممن يوثق بقوله فاتقد قلبه بنار الغضب وصمم على إهلاك زوجته، لكنه كتم عليها ذلك ولم يظهر لها إلا البشاشة، وأما هي فكان إثمها متصورًا يومًا ما أمام عينيها ويوجسها خوفًا شديدًا، فقالت في نفسها: "إن علم زوجي ما فعلته فلا شك بأن تكون الببغاء أخبرته به لأنني متيقنة بأنه لم يعلم بقصتي أحد سواها". فمن ثم كمنت البغض للببغاء وصارت تنتظر فرصة لإهلاكها فقامت ليلة ما، وأخذت الببغاء من القفص فنتفت جناحيها وذَنَبَها وطرحتها من الشباك، وللحال أخذت تبكي وتنوح فاستيقظ زوجها وسألها عن سبب بكائها، فأجابته أن القط قد افترس الببغاء فشق

ذلك عليه، وتأسف عليها جدًا، وأما حارس الببغاء فتفتّتتْ أحشاؤه حزنًا عليها وبكى بكاءً شديدًا لفقد هذه الببغاء الثمينة.

وأما ما كان من أمر الببغاء.. فإنها لما سقطت من الشباك ارتعدت فرائصها من الرعب وخافت على نفسها، فذهبت إلى معبد الأصنام الذي كان بجوار بيت مولاها، وأقامت في المعبد، ولم يكن ثمة مأكل ولا مشرب، فمناها الجوع وحرمت الهجوع، ولم تكن تقتات إلا من فضلات الخبز المتروك من النساء. وأما ما كان من التاجر فإنه تأكد من خيانة زوجته وفساد خلقها فشتمها وطردها من بيته. ولخوف أهل المدينة من زوجها لم يكن أحد يأويها عنده حتى عاشقها أيضًا لأنه كان عاجزًا عن مقاومة بعلها.

فأدركت هذه المرأة أحزانًا جسيمة كادت تهلكها، فأتت معبد الأصنام المار ذكره، وأقامت به نادمة على ما فعلت ومواظبة على الصلاة والعبادة.. فلما كانت ذات مرة تتضرع إلى الأصنام لترق لحالها، وكان المعبد وقتئذٍ خاليًا من الناس أتت الببغاء وراء الأصنام وقالت:

– أيتها المرأة قد استجبت دعاك ورثيت لحالك فرحمتك، إلا أنني لا أوقع شعائر لتُحنِّنَ بقلب زوجك ما لم تحلقي شعر رأسك وحاجبيك وجذوتك... فلما سمعت المرأة هذا الكلام أخذت موسي وأرادت أن تفعل كما سمعت فعند ذلك ظهرت لها الببغاء، وصرخت بأعلى صوتها:

– أيتها الحمقاء أنت لم تعرفي المحب من المبغض. قد تمنيت الشر وفعلته مع من كان. تمنى لك خيرًا واستنزلت الليلة على رأسك، فبالله العالم السر والخفاء إنني لم أبح قط بسرك ولم أعلم زوجك بما بدا منك، ولما سألني عن ذلك كتمته ولم أخبره بشيء وجعلته أن لا يصدق هذا الخبر، وأما ما دهمت به من شرك فإنما هو بلية مقدرة عليَّ منذ الأزل، ولا جناح عليك بذلك؛ لأنك على جانب عظيم من الغباوة، إذ أنك اتخذت كلامي كلام الأصنام التي تعبدينها، وهي من

الأصل لا قوة لها، فالآن ارتدعي عن غيك واتركي هذا الدين الباطل واعتنقي دين الإسلام واندمي على ما فرط منك من قبح السيرة، ثم بعد ذلك اذهبي إلى زوجك واستغفريه عما بدا منك وأنا أذهب إليه وأقنعه ببراءتك.

فأذعنت المرأة لقول الببغاء وفي الحال اعتنقت دين الإسلام وتابت إلى الله تعالى. وأما الببغاء فقامت لساعتها وأتت إلى التاجر، فلما رآها أخذه العجب والانذهال وكاد يطير من الفرح فأخذها وقبّلها وسألها عن أحوالها فأجابته أنه لحقيقيٌّ بأنني قد مِتُّ، لكن الله تعالى منَّ عليَّ بحياة جديدة.

فقال لها التاجر:

- يا للعجب هل يُحيي المخلوق بعد أن يموت.

فأجابته:

- نعم يحيي.. وهذا من الأمور المقرَّرة، أما سمعت حكاية سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟، فسألها التاجر:

- وما هي حكايته...؟

* * * * *

حكاية

قالت الببغاء:

إن سيدنا إبراهيم عليه السلام قال يومًا لله تعالى: إلهي أرني كيف تُحيي الموتَى ليطمئن قلبي، فأجابه الحق سبحانه يا إبراهيم خذ أربعة من الطير واقطع رءوسهم واخلط الأجزاء ببعضها ثم حلها أربعة أجزاءً واجعل على كل جبل جزءًا منها ثم ادعُها إليك فترى العجائب. ففعل إبراهيم لساعته كما أمره الله تعالى ثم دعا العصافير فأتته حية. فهذه الحكاية يا سيدي مُسَطَّرة في القرآن العظيم ومنها يتضح أن الله سبحانه قادر مطلق يُحيي ويُميت، فمن كرمه قد مَنَّ عليه بالحياة.

فقال التاجر:

– عجبًا ما أعظم هذا الإله الذي يحيي الأموات هل هو أعظم من آلهتنا؟ فأجابته الببغاء:

– يا سيدي إن آلهتكم هي أصنام صنعتها أيدي الناس من الأجص وغيره ولا حامية لها ولا قوة، وإنما الإله الحق الخالق الكائنات هو إلهنا الحي الصمد.. فقال لها التاجر حقًا إن الإله الذي يحيي الأموات هو إله عظيم فاهديني إليه حتى أعبده.

فعند ذلك علمته الببغاء كلمة الإخلاص فنطق بها وصار مسلمًا ثم قال:

– لها لقد آمنت بالإله المتعال وبقوته الربَّانية وتيقنت أنه يحيي الأموات ولكن فلأي سبب أحياك؟ فأجابته:

– يا سيدي إنني لما قضيت نحبي لم تلبث أنت حتى افتريت على زوجتك فطردتها من بيتك حيث صدقت سعاية الوشاة، ولما حل بها هذا المصاب أتت معبد الأصنام ولبثت فيه مواظبة على الجوار والعبادة التي لم تكن تبديها نفعًا؛ لأنها كانت تلتمس الفرج من الحجر والأجص، ولكن الله لم يهملها لما كان يعهد من طهارتها، فتدفقت عليها أبحر مراحمه وأهداها الصراط المستقيم فأسلمت لله وتمسكت بالعروة

الوثقى، وحيث لم يكن لها لا ملجأ ولا نصيرًا أخذت تتضرع لله: "ليردني إلى الحياة حتى أشهد أمامك ببراءتها فاستجاب الله تضرعها ومن علي بالحياة حتى آتيك شاهدة بالحق"

فالآن اعلم أن زوجتك بريئة مما اتهمت به، فاذهب إليها وأحضرها إلى بيتك. فصدق التاجر كلامها وقام لساعته وأتى معبد الأصنام وأخذ زوجته إلى بيته واستغفرها عما بدا منه، فحينئذٍ تأكدت هذه المرأة حُب الببغاء لها فشكرت فضلها وندمت على ما فرط منها.

* * * * *

فعند ذلك استأنف الببغاء كلامه قائلاً:

– والآن يا قمر السُكَّر قصصت عليك هذه الحكاية لتتأكدي خلوص حبي نحوك، فإني أسعى وأجدُّ في أن أبلغك مرادك، ومتى حضر ساعد ووشي بك إليه فأنا أقلع الشبهة من قلبه، وأثبت براءتك بحيل لطيفة فاذهبي حالاً إلى معشوقك ولا تدعي أيام الصبا تمر على الحالة التي كنت عليها.

قال هذا وصرفها. فخرجت قمر السُكَّر فرحة مبتهلة، لكنها رأت أنه قد طلع الصباح وأشرقت شمس الضحى على الهضاب والبطاح فتنفست الصعداء، وعادت إلى حجرتها كئيبة ورقدت، ولما ظل المساء قالت في نفسها: "إن الببغاء قد طاوع هواي فإن وشى بي لزوجي فإني أكذبه وأغش ساعدًا ولا ريب في أنه يصدقني أكثر من الببغاء ولا جناح عليَّ إن اعتصمت وقتئذٍ بالكذب لأدفع عن نفسي وأما الآن فلا حاجة إليه".

قالت هذا وأتت قفص الببغاء واستأذنته الذهاب إلى حبيبها فلما رآها قال لها:

– أأنت للآن تماطلين عن الذهاب إلى حبيبك وقد ضاق صدره من الانتظار، فناشدتك أن اذهبي إليه ولا تخشي شيئًا من قبل زوجك، لأنني أكذب عليه ولا أدعه يعرف شيئًا، ولا إثم عليَّ إن اعتصمت بالكذب لأنه مباح عند الضرورة لاسيما إذا

كان يؤدي لحسن العاقبة أو لقطع المنازعة بين أخين، وأما أنت فاحفظي سرك ولا تخبري أحدًا بأحوالك فتوجهي إلى حبيبك والزمي معه الأدب والاحتشام وتحاشي كثرة الكلام لأنه قيل: "خير الكلام ما قل ودل ولم يُطَل فيُمِل" ولهذا السبب كان مرد جانباز مقبولاً ومعزوزًا عند ملك خراسان، فسألته قمر السُّكَّر وما هي هذه الحكاية..؟

* * * * *

حكاية

قالت الببغاء:

إن ملك خراسان جلس مرة مع وزرائه وعلماء مملكته وجمع من شعبه بين الغني والفقير والقدير والحقير فأخذوا يقصون عليه ما جل من الحكاية السالفة المتضمنة من الحكم أجلها ومن الآداب أحسنها وأنفعها، وبينما كانوا على هذه الحال نظر الملك بغتة إلى الصحراء المجاورة للبلاط الملوكي، فرأى رجلاً ضعيفاً نحيفاً آتيًا نحوه، فلما وصل هذا الرجل بين يدي الملك سجد وكفر واستأذنه ليتكلم فأذنه، فعند ذلك دعا له بطول البقاء وقال:

– يا مولاي إن وزراءك يعلمون حقيقة أمري ما كنت عليه وما صرت إليه، فإني كنت متقيدًا بخدمة ملك خجند الذي كان يُودُّني لخلوص حبي له وصدق خدمتي أمامه ودعاني (مرد جانباز) الرجل الشجاع لفراستي وشجاعتي وكنت أكتشف غوامض الأسرار وبحسن إدارتي وتدبيري كنت آتي المملكة بأدوات جمة وأفتتح الفتوحات التي يعجز عنها ألوف من الجنود المتمرنة على القتال، وأوفر كل سنة على الخزينة ألف دينار، وكانت مجازاتي على هذه الخدم النصوحة كل سنة عشرة آلاف دينار، فكنت أصرفها على أهل بيتي عائشاً معهم بالأمن والمسرات.. وأما الملك فكان عادلاً منصفاً محبًا للرعية، لكن بعد ذلك تعرضت له الدنيا واستمالته بشهواتها فاغتنم ما أبدته من اللذات الغابرة فطغى وبغى وتكبر وتجبر، وكان كلما ازداد أمره وعظمت شوكته يزداد عسفاً وعنوًا فنكث العهود ونبذ المواثيق ولم يعد يفكر بعاقبة أمره وأحوال مملكته، فغزا الدمار بلاده وأصبحت مملكته خرابًا، فأسف البطانة وأحقد الخاصة والعامة، ولكن لشهرته بالنخوة واحتقار رجال الدولة لم يكن أحد يجسر على معارضته فصرت أنا كسائر الوزراء نسيًا منسيًا، وإذ لم يعد يلتفت إليَّ اعتزلته وتنحَّيتُ عن خدمته واضطررت إلى الخروج من مملكته لمخافتي من

الفقر والفاقة ومن مصائب الدهر الذي لا يعاند إلا من كان ممتازًا ومشتهرًا.. وقد قال الشاعر:

قل للذي بصروف الدهر عيرنا .. هل عاند الدهر إلا من له خطرُ
ألا ترى البحر تعلو فوقه جيفٌ .. وتستقر بأقصى قعره الدررُ
وفي السماء نجوم لا عداد لها وليس يخسف إلا الشمس والقمرُ

والآن أصبحت في حالة يُرثى لها، وقد أتيتك يا مولاي لترق لحالي وتترأف عليَّ وتأمر لي براتب يكفي لمعاشي ومعاش عيالي، وأقوم بكل نشاط واستقامة بالخدمة التي تعينها فيجزل الله ثوابك لأنه مثيب المحسنين.

فلما سمع الملك هذا الكلام تحير واندهش والتفت إلى الرجل ضاحكًا وقال له:

- أيها الرجل إن أمرك لعجيب لأنك تدعي بما ليس فيك ومنظرك المخيف يوجب الاحتقار، وحيث لا يمكنني أن أوجه إليك خدمة من خدمات الدولة فلا أحرمك من الحسنات التي تتوزع من بيت المال؛ لأنه معد للمحتاجين، فأجابه الرجل:

- يا مولاي لماذا تنظر إلى الصورة الخارجة؟ هل يعرف الإنسان من صورته ويعلم عقله من كبر جسمه فلماذا تعرض عن الباطن الذي فيه العقل والإنارة، فإن كنت ضعيفًا صغير الجسم فهذا لا ينافي كوني عاقلاً حكيمًا وأمينًا فهيمًا، فلا تنظر إلى الظاهر بل انظر إلى الباطن فتعرف الحقيقة، ألم تسمع ما قاله الشاعر:

لا تعجبنَّك أثوابًا على رجل .. دع عنك أثوابه وانظر إلى الأدبِ
فالعود لو لم تفح منه روائحه .. لم يفرق الناس بين العود والحطبِ

فينتج من هذا يا مولاي أن قيمة المرء ليست بجمالها ولا بغناه وثروته بل بعقله وعمله، ولهذا قال الله تعالى: "إنما يخشى الله من عباده العلماء" وقال الشاعر:

وهل ينفع الفتيان حسن وجوههم .. إذا كانت الأخلاق غير حسانِ
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى .. فما كل مصقول الحديد يماني

فاعلم إذن يا سيدي أني على جانب عظيم من الدراية وقادر على القيام بأعباء الدولة حق القيام، فإن كنت تشك بقولي فجربه بالامتحان، وأحسن تجربة أن تعين لي خدمة في بلاطك الملوكي فيظهر ما في باطني من العقل والفطنة، لأن العقل كالأشرار لا يظهر حتى يقدحه قادح، ولا يسير عقل الإنسان إلا بالأمر والنهاية لأن الولاية معيار العقول كما قال الشاعر:

بالأمر والنهي عقل المرء يُختبرُ .. وبالسياسة في الأحكام يعتبرُ
إن الولاية معيار العقول بها .. يبين من فيه عقل أو به خورُ

فازداد تحيُّر الملك من هذا الكلام.. فأخبر الوزراء بأمر هذا الرجل واستشارهم بذلك وقال لهم:

– لقد صرت في حيرة عظيمة، لأنه لا يخلو هذا الرجل من أن يكون إمَّا كاذبًا أو صادقًا.. فإن كان كاذبًا فلا نلتفت إليه فلا نعرَى عن الملام من عامة الناس لأنه لا يطلع على حقيقة أمرنا مع هذا الرجل إلا القليلون وإن أجبنا التماسه فنكون قد انخدعنا بخلابة ألفاظه وأسرفنا مالَنا فنأثم بتبذيرنا ما للرعية وإن كان صادقًا، ولم نلتفت إليه فنكون قد تركنا عملاً محمودًا وإن نظرنا إليه، فلابد من أن نعين له راتبًا وافرًا لأنه أمير خجند وهو كأحد عُمَّالنا عين له سنويًا راتبًا قدره عشرة آلاف دينارًا فيجب علينا أن نعطيه أضعاف ذلك، وإنَّ علينا أقل من هذه القيمة، حسبنا من اللئام، فأفيدوني ما ترونه في هذا الشأن، لأنني وقعت بين شرَّين، هذا وكان عند الملك وزير عاقل فقال له:

أيها الملك إن الرأي السديد عندي أن لا تخيب هذا الرجل الذي أتى مترجيًا نوالك، وقد وقفت الآن على وسيلة تتخلص بها من هذا الأمر، وهي أن تقيمه حارسًا على البلاط الملكي في الليل ولا تسمح له بالرقاد دقيقة واحدة، وعين له راتبًا سنويًا قدره عشرون ألف دينار، فكيف يمكنه أن يسهر سنة كاملة مع أنه قلّما يوجد من يسهر ثلاث ليالٍ متوالية، فإن قام بهذه الخدمة فبها ونعمة، وإلا فتكون عظمة الملك قد عرت عن الملام. فوقع هذا القول لدى الملك موقع الاستحسان، فأجراه وأمر "مرد جانباز" بحراسة البلاط الملوكي في الليل فقبل ذلك وشكر الملك على هذه المنة وقام مواظبًا على وظيفته؛ فكان يسهر الليالي برمتها، ولم يكن يرقد دقيقة واحدة.. فمنذ سنة كاملة على هذا الموال ولم يكن يبدو منه أدنى قصور بخدمته؛ فأعطوه حينئذٍ عشرين ألف دينار، وهكذا كان في السنة الثانية والثالثة والرابعة حتى اندهش الجميع من ذلك.

ففي ذات ليلة حلم الملك فرأى في منامه القمر مستديرًا وراء السحاب والعالم كله في الظلام، ونظر ذاته جالسًا على سرير السلطنة بكمال الهيبة والوقار فانسرَّ جدًا، ولما أفاق من نومه طالبًا من يعرف تفاسير الأحلام تذكر "مرد جانباز" وفي الحال دعاه باسمه؛ فسمع الرجل صوت الملك؛ وفي الحال أسرع إليه وقبّل الأرض بين يديه وقال:

أطال الله بقاءك يا مولاي ماذا عن ذلك في هذه الليلة حتى تدعوني.. قصَّ عليَّ الأمر لعله خير. فقص عليه الملك بالاختصار ما رآه في منامه وأمره بتفسير حلمه. فأطرق مرد جانباز برهة وأخذ يفسر رؤيا الملك فكان تفسير الرؤيا خيرًا يشير إلى سعادة الملك في المستقبل، وبينما كان الملك مصغيًا سامعًا تعبير الرؤيا سمع صوتًا في البرية كأنه صوت امرأة وهو يقول "ها أنت تاركة من يبذل نفائس العطايا ليفتديني بها"... فتعجَّب من ذلك، وتاق لمعرفة الأمر فاستأذنه وقتئذٍ مرد جانباز ليذهب إلى الصحراء فيعلم الحقيقة فلم يأذنه.. فبعد ذلك سمع الملك هذا الصوت

ثانية فازدادت رغبته في معرفة هذا الأمر، لكن الصوت لم يعد يُسمع سوى عن بعد.. فسأل الملك قائلاً:

- ما عسى أن يكون هذا فإنه أمر عجيب، فأجابه:

- يا مولاي لا أعرف ما هذا الأمر ولكن إن شئت معرفته، فأمرني أن أذهب إلى الصحراء، فأعرف الحقيقة وأرجع أقص عليك الأمر؛ فأذن الملك لساعته وإلى الجهة التي سمع منها الصوت فلما أضحى الملك وجده فكر في نفسه قائلاً:

- إن الملوك لم يكونوا ينظرون أحوال خدمهم الظاهرة بل كان جل دأبهم أن يتجسسوا بواطن الوزراء وسائر الخدم وليس كثيرًا ما يتظاهر الإنسان بما ليس فيه فالأجدر بنا أن نقتدي بهم لأن أدَّعي أولاً ثلاثة أشياء: .. النشاط في الخدمة، والعلم، والأمانة، والآن قد تأكد لدينا نشاطه من سهره في الليل وتيقظه. وتأكدنا عمله من تعبيره الرؤيا فلم يبق علينا إلا أن نختبر أمانته باتباعه إلى الصحراء لنرى ماذا يصنع، قال هذا وقام لساعته وتبعه بحيث لا يراه ليعرف عاقبة أمره، قطع مسافة طويلة، والملك يدلف إليه وهو لا يراه، وكلما دنا إليه الملك وقف ريثما يبعد عنه، ثم يتبعه فلم يزل سائرًا حتى تراءت له امرأة جميلة الصورة لكن علامة الحزن مطبوعة على وجهها؛ فلما نظرها ورأى ما هي عليه من البهاء هتف صارخًا:

- أيتها المرأة لماذا أنت ضالة في هذه الصحراء ليلاً، فما هو سبب ذلك ومن أين أنت ومن أين أتيت وإلى أين تذهبين..؟ فلما سمعته المرأة تنفست الصعداء وقالت: واأسفاه إنَّ حياة ملك خراسان ماضية إلى الفناء لأنه قد دنا أجله. فلما سمع مرد جانباز هذا الكلام وقع مغشيًا عليه!! لما حاقَهُ من الحزن.. فلما أفاق أخذ يبكي وينوح ثم تقدّم إلى المرأة وقال لها:

- يا سيدتي أليس لهذا الداء دواء لكي أبادر سريعًا إلى جلْبه ولو اقتضَى بذل حياتي فأبذلها فدية عن نفس الملك.

فأجابته المرأة:

- لا دواء لذاك إلا إذا كان للملك مُحب مخلص، يؤثر حياة الملك على حياته؛ فإن كنت لمولاك محبًا شفوقًا مخلصًا فابذل حياتك وحياة عيالك فدية عن نفس الملك.. ليبقى اسمه مقيدًا في سفر الحياة.

فأجابها:

- أما نفسي فإني مبذلها للحال وأما نفس عيالي فلا سلطة لي عليها ويعز عليهم مبارحة هذه الدنيا، ولكن إذا اكتفيت بتضحية نفسي فإني مبذلها سريعًا.

فأجابته:

- المرأة كلا لا أرتضي بنفسك فقط، بل يجب أيضًا أن تضحي بأنفس عيالك؛ فشجعهم وحثَّهم على هذه التضحية لأن الصدقة ترد البلاء وتزيد العمر، فعند ذلك قام وأتى بيته؛ فأخبر أهله بما جرى له وكان له زوجة وابن وابنة فلما سمعوا كلامه هتفوا صارخين بصوت واحد:

فليقدم كل منا نفسه عن الملك ولا يجزع من الموت؛ لأنه مستطاع عند مرام النفس وهو أمر محتوم لا مناص منه سواء كان آجلاً أو عاجلاً، وأنشدوا:

- "ولا تبعد فكل فتىً سيأتي .. عليه الموت بطرق أو عادي"

قالوا هذا وقرارهم على تقديم أنفسهم لهذه المذبحة، وأن يبتدئ بذبح عياله ثم بقتل نفسه؛ فاستل سيفًا ماضيًا وأخذ ابنه الوحيد ثمرة فؤاده وأجلسه في وسط المحل ورفع يده ليذبحه، وإذا بصوتٍ قد ناداه قائلاً: اعدل عن قصدك أيها الرجل ولا تمدد يدك للغلام فقد نظر الله إليك بعين الرحمة، وتأكد من خُلوص توبتك وحبك الصادق وأسكب عليك أنعامه الغزيرة ومن بحيرة جديدة على الملك؛ فخرَّ جانباز ساجدًا لله وشكره على ما أولاه من النعم، ثم قام هو وعياله وأخذوا يبكون فرحًا يمجدون الله تعالى.

هذا ما كان من أمر هذا الرجل وأولاده، وأما ما كان من أمر الملك فإنه كان ناظرًا بعينه كل ما جرى، ولما كان منعكفًا تارةً على حمد الله تعالى، وتارةً على

معانقة أهله، رجع الملك سرًا إلى البلاط الملوكي ولم يشعر به أحد ولم يخبر أحدًا من أهل البلاط بما كان من أمر.. ولما فرغ من حمد الله سبحانه رجع إلى البلاد ودخل على الملك ووقف بين يديه صامتًا فقال له الملك:

– أخبرني بما رأيت... فأطرق وقال في نفسه إن أخبرت الملك بما صار . وهو أمر غريب يبعد عن الصدق . فيحل كلامي محل الكذب فيسخط عليَّ فالأجدر بي أن أصف له خبرًا يسهل تصديقه ثم التفت إلى الملك وقال:

– يا مولاي إن التي كانت تصيح وتصرخ هي امرأة جميلة تخاصمت مع زوجها وخرجت من البيت تبكي وتطلب إنصافًا؛ فلما رأيتها وعرفت حقيقة أمرها أرجعتها إلى زوجها وصالحتهما معه، فأشار إليه الملك بأشارة الاستحسان وأسرَّ الأمر في قلبه حتى انقضى ذلك الليل.. فلما طلع الصباح قضى الملك مهماته وعند انتصاف النهار جلس على عرشه ودعا لديه سائر الوزراء ورجال الدولة والعلماء.. فجلس من له عادة الجلوس ووقف من له عادة أن يقف، وكان واقفًا على يمين الملك؛ فعند ذلك أخذ الملك يقصُّ عليهم حلمه وما حدث له مع مرد جانباز وما بدا من شجاعة هذا المحب الباسل التي تحير العقول.. فلما سمع الحاضرون هذا الخبر أخذهم العجب والاندهاش وفرحوا فرحًا عظيمًا وشكروا مرد جانباز على أمانته وخلوص وداده. وأما الملك فأخذ يضمه إليه ويثني على وداده وشجاعته الفريدة، وأمر له بالتحف الثمينة والهدايا الفاخرة وجعله وزيرًا ثانيًا عنده، ثم بعد مدة أقامه رئيسًا على الوزراء؛ فقام مرد جانباز بخدمة الملك والدولة حق القيام حتى استحق التفات مولاه وحُب الرعايا واعتبارهم.

* * * *

قال الببغاء:

– والآن يا قمر السُّكَّر ينتج من هذه الحكاية أن الوداد أعظم شيء في الدنيا، ولابد منه لمن يروم المفاخر والمعالي، لأنه وحده أدرك بمرد جانباز منتهى الأوتار، ورفعه إلى ذوي المجد والكرامة، ولا يشابه ملك خراسان إلا أنت يا سيدتي، ولا يماثل مرد جانباز إلا أنا لأنني أسعى ليس فقط لوقاية حياتك بل لأُدرك بك أيضًا غاية الوتر، وحيث إن غايتك الوحيدة الوصول إلى حبيبك؛ فإنني أبذل جهدي لأُبلغك إليه فاذهبي إليه الآن واقضي ليلك معه بالفرح والسرور ولا تنسي ما أوصيتك به سابقًا.

فعند ذلك خرجت قمر السُّكَّر فَرِحَةً متهللة قاصدة حبيبها فرأت أنه قد طلع الصباح؛ فرجعت إلى حجرتها حزينة باكية، ونامت حتى صارت الشمس إلى المغيب، وقامت من النوم وتعطرت وتعصبت، ولما خيَّم الظلام أتت قفص الببغاء فلما نظرها مقبلة عليه هتف صارخًا:

– فبانت نور البدور والكواكب وأضاءت بنورها الغياهب والسباسب.. لماذا أنت للآن شاخصة أمام عيني وتاركة حبيبك وقد قرب الهجر مصيره إلى الفناء، ألا تعلمين أن تأخرك للآن يوقع أشد الخصام بينك وبين حبيبك؛ لأنه ربما يخال فكرَهُ أنك ترغبين في تجربته وامتحانه، ويظن أن ذلك ناتجٌ عن كِبْرٍ منك لأن المحبوب إذا علم محبة عاشقه له تدلل كما قال الشاعر:

ناديتُ لما بالدَّلال قتلتَني ... عرَفَ الحبيبُ مقامَهُ فتدللْ

أما تجربة الحبيب فإنها مستظرفة ومستطابة لأنها تأمين من سوء العواقب والمصائر، غير أنكِ لستِ بمحتاجة لتجربة محبوبك؛ فلا تحرقيه إذن بنار الهجر والفراق، ولا تجرِّبيه كما جرَّب ذلك الشاب النيسابوري صاحبه، فسألته قمر السُّكَّر.

وما حكاية هذا الشاب....؟

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في قديم الزمان في مدينة نيسابور شاب جميل الصورة ذو قوة غريبة، حتى أن معاصريه كانوا يعدونه من الجبابرة؛ فيومًا ما حينما كان مارًا في الطريق صادفه رجل مبتل يحب الفتيان... فلما وقع نظره على هذا البدر المنير كاد يقع مغشيًا عليه؛ فتقدّم إليه بوجهٍ باشٍ وقال له يا حياة روحي وجسدي سبحان الذي سخَّرك لِي في هذا المنار، لأن جمالك يُحيي الفؤاد وينعشه فلا تمنعني قربك، لأنني ابتليت بحبك وهِمْتُ بغرامك.. فلما سمع الشاب هذا الكلام واندهش في الحال.. خطر بباله هذا المثل السائر:

"التأني من الرحمن والعجلة من الشيطان" فأطرق هنيهة وفكَّر في نفسه قائلاً إن تهافتُّ وأبرمتُ عهدًا مع هذا الرجل فربما لا يراعي هذا الوفاء؛ فأكون قد رجعت بصفقة مغبون وصحَّ بي قول هذا المثل: من استرعى الذئب فقد ظلم.. ثم نظر إليه وقال له: يا هذا.. لا يليق بالعاشق إلا أن يصاحب أجمل محبوب يراه، فإن لي أخًا أجمل منِّي صورة على هذا الطريق فإن انتظرته وفد إليك بعد برهة وجيزة.

ولما سمع الرجل هذا الكلام طمع بوصال ذاك وأعرض عن هذا الذي ودَّعه، وصار في طريقه حتى أفضى إلى مكان خالٍ.. فقام فيه يترصد الرجل ليرى ما يفعل بعد ذهابه عنه.. فرآه جالسًا على الطريق ناظرًا يمينًا وشمالاً ومنتظرًا وفود الموعود.. فلما رآه الشاب على هذه الحالة تأكدت خزعبلاته وفتور حبه فتركه على حالته وصار.

* * * *

فالآن أخبريني يا قمر السُّكَّر هل تأخرك عن زيارة حبيبك هو لأجل التجربة وإن قلبك خالٍ من الحب فتريدين أن تعرضي عنه، فأجابته قمر السُّكَّر:

– أيها الببغاء العاقل إن قلبي مضطرم بحب الأمير، ولم يكـ ن يخطـ ر ببـ الي تجربته، لكن لما سمعت حكايتك هذه علمت أن التجربة خير الأمور، فلا بـ أس إذا امتحنت حبيبي لأعلم مقدار حبه لي..

فأجابها الببغاء:

– نعم إن التجربة ذات فائدة عظيمة؛ لأن بها تعرف بواطن الأمور ويؤمن مـ ن الغدر والمصائب.. غير أن تصرُّف الناس لا يكون على وتيرة واحـ دة لاخـ تلاف أطباعهم فمنهم من تدوم محبته، ومنهم من لا تدوم، فيحافظ على مؤاخـ اة صـ ديقه وقتًا ما، ولأدنى سبب تنقلب صداقته بُغضًا شديدًا كما صـ ار أمـ ر ذاك الصـ ائغ والنجار اللذين عاشا اثني عشر عامًا بأعظم حب ومودة، ثم انقلبت صداقتهما عداوة شديدة لطمع أحدهما بقليل من الذهب، فقالت قمر السُّكَّر:

وكيف كان ذاك...؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

زعموا أنه كان في إحدى مدن أزربيجان نجّار وصانع، وكانا عائشين مع بعضهما بالحب والوفاق، وكانا في نعيم من الدنيا، إلا أنه في آخر الأمر عرَى الكساد صنعتيهما؛ فكساهما الفقر والفاقة حتى أصبحا عاجزين عن تحصيل قُوتهما الضروري؛ فعزما حينئذٍ على الرحيل من بلادهما، وعنَّ لهما السفر إلى بلاد الناس كي يكتسبا ما يدرأ يد الإملاق.. وكما قال الشاعر:

وإذا رأيت الرزق عز ببلدةٍ وخشيت فيها أن يضيق المذهبُ
فارحل فأرض الله واسعة الفضا طولاً وعرضًا شرقها والمغربُ

فتأهَّبا للسفر وسارا إلى بلاد الرُّوم يطلبان الرزق حتى أفضَيا على مدينة عظيمة على تخوم هذه.. فأقاما فيها وأخذا يتعاطيان صنعتهما، وصادفا هناك رواجًا، ولكنهما دخلا مرة معابد الناصريِّ فنظرا فيها الأواني الفضية والذهبية فصارا يرغبان في سرقتها ويترقبان فرصة مناسبة، فيومًا ما صنع النجار تمثالاً من الخشب فباعه واشترى بثمنه ما كان لازمًا لمعيشتهما.. غير أن أهل المدينة كانوا يُعرضون عنهما.. فارتديا ملابس الرُّهبان فأقاما في مسكنهم منعكفين على الصلاة والعبادة، حتى بلغا من الزهد أعظمه ومن الورع أفضله وقاما على إصلاح المفسدين.. فردَّا الضالين وأهديا التائهين وجعلا إقامتهما في المعبد مدعيين بذل الوقت لأجل الصلاة والعبادة، ولما كانا يسمعان بأن معابد الناصري كافة فيها أواني فضية وذهبية استأذنا من الرُّهبان وأخذا يطوفان في المملكة ويرشدان الناس إلى عبادة الله، وما زالا على هذه الحالة حتى أفضيا إلى كنيسة في جوار القسطنطينيَّة فأقاما فيها مدة منعكفين على العبادة وإرشاد الناس؛ فشاع خبرهما في المملكة وطار صيتهما في سائر الأقطار.. فيومًا ما صنع قيصر الروم وليمة فاخرة دعاهما إليها

الجثالقة والقسيسين وجمهورًا من الرهبان وصرَّح في دعوته باستدعاء الراهبين المتلبسين لما بلغه من برهما وفضلهما.. فلما عرض عليهما الرهبان دعوة قيصر أخذا يحملقان بوجوههم ويقولان:

كيف يليق بنا أن نجيب هوى النفس ونرغب عن العبادة في غرور العالم وأباطيله؛ فنحن معتزلان المسرات العالمية المناقضة زهد الزاهدين وانقطاع المنقطعين، فاذهبوا أنتم ولبوا دعوة قيصر واعتذروا عنَّا لديه، وأعلموه أن انصبابنا على الملاهي يجلب علينا سخط الخالق وغضبه على الناس، لأنه قد كثرت الفواحش بينهم وأفعمت المعابد إهانة، فلا تعجَّبوا إذا ترك الإله معابده واعتزلكم. قالا هذا وأخذا يبكيان ويذرفان الدموع.

فتقدّم الرهبان وقبلوا يديهما وذهبوا إلى وليمة قيصر.

وأما النجار والصانع فإنهما رجعا إلى الكنيسة وأقاما فيها منتظرين بفروغ صبر وفود المساء. فلما خيَّم الظلام نظرا إلى تمثال كبير من الذهب الصافي الخالص العيار؛ فرفعاه من مكانه وحملاه على منكبيهما وسارا من الكنيسة يطلبان له خُلوة يخفيانه فيها.. فوجدا مكانًا خاليًا وحفرا فيه حفرة ودفناه فيها ورجعا إلى الكنيسة ولم يعلم أحد بما فعلا.. فمضت أيام ليست بقليلة ولم يدخل أحد الكنيسة لما كان عليه الرهبان من الفتور في العبادة؛ ففي آخر الأمر أتى الكنيسة خدمها فافتقدوا التمثال فلم يجدوه فأخبروا الرهبان بذلك.. فلما شاع هذا الخبر بينهم وقع في قلوبهم الخوف والرعب واشتد بينهم الخصام وصار كل منهم يتهم الآخر، ولم يتهموا النجار والصانع خيفة من سخطهما عليهم، ولأنهم كانوا يعتقدون أنهما بعيدان جدًا عن ارتكاب إثم كذا فظيع.. ولكن لم يلبثوا حتى أخبروهما بما وقع، فعند ذلك خرقا ثيابهما ونتفا شعور رأسيهما ولحيتهما وأخذا يبكيان وينوحان حتى نظرا إلى الرُّهبان وقالا لهما:

– إنه عندما وطأنا هذه الأرض تأكدنا سوء العاقبة لما نظرناه من تهاونكم في العبادة فكنتم تتركون معبودنا ليلاً ونهارًا. تذكروا ما قلناه لكم لما لبيتم دعوة قيصر فإننا كنا نخشى اتقاد غضبه علينا وكنا يومًا ما في خوف ورعبة عظيمة وكنا نقول: إن مولانا قد أفعم إهانة من الناس وحيث قد صار متروكًا منهم فلا غرو أنه سيتركهم ويذهب إلى السماء يشكو من سوء معاملة هذا القوم المجرم ويلتمس الانتقام من جريرة البشر فيها، هو ذا الآن قد حل بنا ما كنا نخشاه ولولا تضرعنا وصلواتنا لما بقي حتى الآن، وهل يمكننا بعد هذا أن نأمن غضبَهُ، فمن الآن فصاعدًا لم تعد تسعنا الإقامة معكم خوفًا من غضب إلهنا، فالأجدر بنا مبارحتكم والرحيل إلى ديار أخرى، فلما سمع الرهبان هذا الكلام بكوا بكاءً شديدًا وصاروا يلتمسون منهما أن يبقيا عندهم ويقولون لهما:

– لا تفارقا.. لأن دعاءكما يدرأ غضب الله تعالى وبواستطكما يقبل الله توبتنا الصادقة.. أما الراهبان المتلبسان فلم يذعنا لقول أحد، وبعد يومين ودَّعا الرهبان وسافرا ولمَّا خيَّم الظلام رجعا إلى المحل الذي دفنا التمثال فيه فأخرجاه من الأرض واستعدا لحمله وما يزالا سائرين حتى وصلا إلى بلديهما في أذربيجان، وبقى الصانع مستلمًا التمثال ويصرف من ثمنه بسعة.. فيومًا ما قال له النجار:

يا أخي اضبط بدقة حساب الذَّهب حتى يرتاح ضميرك من الحرام، ويكفينا هذا المال زمنًا طويلاً.. وكان الصانع إلى ذاك الحين ينفق من الذهب بدون تبذير..

لكن الشيطان – خزاه الله – لم يلبث أن حرك في قلبه شهوة الطمع فقال الصانع في نفسه: حقًا إنني لذو سذاجة كلية لأن الذهب بيدي وما أحد عارف غيرنا، فإن قلت للنجار لم يبقِ شيئًا من الذهب فمن يكذبني في دعواي وهل يستطيع النجار أن يخاصمني لدى الحكام.. ففكر في هذا وقرر رأيه عليه.. فيومًا ما أتاه النجار حسب عادته وطلب منه مقدارًا من الذهب فتظاهر الصانع بالتعجُّب والاندهاش وقال له:

أتظن أنّ من الذهب فضلاً وزيادة.. ألا تعلم أنه قد فرغ ولم يبق منه مثقال واحد، فلما سمع النجار هذا الكلام سكت لأنه كان عاقلاً فتظاهر بالقناعة وآثر ذلك في نفسه وقال له:

– يا أخي لا تحزنن إذا فرغ المال لأنه خلق لقضاء ما يحتاجه الإنسان فداك:

– يا أخي كل مال فإنه غير مأسوف عليه بل اعتاض عنه بصحتك الكريمة، وصار بمثل هذا الكلام يخاطب الصانع ليخفي عليه ما كمنه له لأنه علم يقينًا أن الصانع احتال عليه وأنكر الذهب المشترك ليستبد به، فصار النجار يفكر بوجه الحيلة ليسترجع ما فرط عليه من الذهب فحفر في داره حفرة عظيمة وقطع شجرة فصنع منها تمثالاً للصانع حتى لا يكاد يتميز عنه وألبسه ثيابًا مثل ثياب الصانع ووضعه في الحفرة ثم أتى بعد ذلك بأفراخ ذئب فغللها بالقيود، ووضعها قبالة تمثال الصانع وصار كل يوم يحضر لها طعامًا، ويضع قطع اللحم على منكبي التمثال.. فلما كان يشتد عليها الجوع كانت تفلت من أغلالها وتقحم على التمثال وتأكل اللحم الموضوع على منكبيه، وكان النجار يحضر لها الطعام كل يوم مرتين ويضعه على رأس التمثال وكتفيه وكان يهز لها رأس التمثال وأذنيه، ليظهر لها علامة الإنس حتى تعتاد عليه فصارت إذا رأته ترقص طربًا وتحرك ذنبها وتبدي الفرح والاستئناس.

فيومًا ما دعا النجار الصانع إلى وليمة في بيته فأتى الصانع إلى بيت النجار وأحضر معه أولاده الصغار وقضى عند صاحبه قسمًا من النهار بالصفا والانشراح، ولم يظهر كل منهما للآخر سوى الإنس والملاطفة وبعد أن جلسا على الأكل وأكلا وشربا قاما يتفاكهان في الحديث ثم قام الصانع وقال للنجار:

– يا أخي أنا ذاهب الآن إلى المدينة وأترك أولادي هنا فرحلهم بعد ساعة إلى البيت، ثم ترك أولاده وذهب وبعد ذهابه أخذ النجار الأولاد وحبسهم في مكان منفرد في بيته ورجع إلى الحفرة؛ فرفع تمثال الصانع وأخفاه وكانت الذئاب حينئذٍ

جائعة جدًا؛ لأنه كان قد منع عنها الطعام في ذلك النهار، فلما كان المساء أتى الصانع إلى بيته وطلب أولاده فلم يجدهم فسأل عنهم أهله؛ فأجابوه أنهم لم يأتوا البيت فصار حينئذٍ بحيرةٍ عظيمة، وانشغال فكر نحو أولاده فأتى ليلاً بيت النجار وسأله عنهم فأجابه النجار:

– يا أخي والله لا أدري إلى أين ذهبوا لأنهم بعد أن توجهت إلى المدينة مكثوا هنا برهة، وذهبوا ولم أدر إلى أين، وأما الصانع فلم يشك قط بقول النجار ولم يخطر بباله أنه كمن له حقدًا، فظن أن الأود رجعوا إلى البيت بينما كان هو آتٍ إلى بيت النجار فرجع إلى بيته وطلبهم فلم يجدهم فحينئذٍ ضاق صدره ونفد صبره، فأخذ يطوف في الشوارع يفتش على أولاده وبقي على هذه الحالة من ابتداء الليل حتى ظهيرة النهار الآتي، فعندئذ خرق ثيابه وأخذ يبكي وينوح ويندب أولاده...

ثم بعد ذلك خلا بفكره أن النجار ألحق بهم مكروهًا فرجع إليه وقال له:

– إنني تركت أولادي عندك ولم أكن عارفًا أنك خائن ماكر وأن الحسد دب في قلبك وكمنتَ لي البغض؛ فلا شك في أن أولادي لم يذهبوا من عندك بل إنك أهلكتهم أو أخفيتهم. قال هذا واشتد بينهما الخصام حتى رفعا أمرهما إلى القاضي فتقدّم الصانع وقال له. يا مولاي إنه كان بيني وبين هذا الرجل صداقة عظيمة وبقيت محافظًا على عهده.. أما هو فكنّ لي البغض، وصار يترقب فرصة ليلحق بي الأذى فدعاني لمناولة الطعام عنده؛ فأحضرت أولادي معي وأبقيتهم في بيته وذهب فأخفاهم عنده.. والله يعلم ما صنع بهم لأنني فتشت عليهم في كل المدينة فلم أجدهم فأرجو إنصافي من هذا الغادر. ثم أخذ يبكي ويندب أولاده فرقّ له القاضي ونظر إلى النجار وقال له: إن الأولاد عندك فإن لم تحضرهم فالويل لك.

فأجابه النجار:

– يا مولانا إن الأولاد بقوا عندي غير أنهم بعد ذهاب أبيهم صاروا ذئابًا فغللتهم بالقيود، ووضعتهم في حفرة في بيتي وها هم الآن موجودين فيها.

فقال له القاضي:

– يا أيها الرجل قص عليَّ الواقع لأن المسخ كان في عهد الأنبياء الأقدمين أما الرسول ﷺ فقد خلَّص العالم منه وهذا من أخص عجائبه.

فأجابه النجار:

– إن عجائب الرسول لا تنكر غير أن الله تعالى سمح بذلك مجازاة لهذا الذنب الأثيم واقتصاصًا من جرائره ومآثمه لأنه طالما ركب الضلال واعتصم بالخداع والنفاق.

فنظر القاضي إلى مَن كان عنده وقال له:

– يا معشر المسلمين إن هذا الأمر لعجيب لأن قول النجار ربما لا يخلو من الصحة؛ فيجب أن نختبر هذا الأمر وننظر بأعيننا لنرى الحقيقة، فحينئذٍ جمع القاضي من كان عنده وأتَى بيت النجار ليرى الأولاد الممسوخين وبمعينة النجار والصانع وجمع غفير.. فلما وصلوا إلى بيت النجار تقدّم النجار وأخذه إلى الحفرة فلما رأت الذئاب الصانع الذي اعتادت على تمثاله صارت ترقص وتلاطفه وتطلب منه أكلا، ففي الحال تقدّم إليها النجار وحلَّ قيودها فوثبت على كتفيِّ الصانع وصارت تلاعبه وتمسكه بأذنه وأنفه فلما رأى ذلك القاضي وجماعته أخذتهم الحيرة والاندهاش وقالوا:

ماذا نصنع وماذا نقول.. الآن زالت الشبهة وتأكد لدينا أيها الصانع أن الأولاد مُسخوا ذئابًا. قالوا هذا وخرجوا من الحفرة، فحينئذٍ أخذ النجار الذئاب وسلَّم قيودها إلى الصانع وقال له:

– خُذ يا أخي أولادك.. ففهم الصانع حقيقية الأمر وتأكد أن في وسع النجار أن يلحق به الأذى فاختلى به وقال له:

أصفح يا أخي عن ذلتي واستر على ذنبي.. فإن نصيبك من الذهب عندي، وإنْ شئت زيادة عليه فما تطلبه تنله.

فأجابه النجار:

- وأولادك يا أخِي عندي فمتى أتيتني بالذهب سلمتُك إياهم.

فذهب الصانع وأحضر حصَّة شريكه من الذهب وأخذ أولاده وافترق عن حقدٍ وبُغض، فهذا ما آلت إليه صداقتهما القديمة.. أجارنا الله من أمثال ذلك.

فالآن يا قمر السُكَّر ينتج من هذه الحكاية أن البشر ينقسمون إلى قسمين.. فمنهم من تدوم مودته، ومنهم من لا تدوم، فالأولى هي المودة الخالصة، ويكون صاحبها خاليًا من أغراض النفس والأهواء، والثانية هي التي تكون لغايات يُضمرها صاحبها، فهذه لا تعرف سوى بالامتحان... وأما مودَّة حبيبك فهي من النوع الأول فلا حاجة لامتحانها فالآن لا تعلِّلي نفسك بشيء بل أسرعي، واذهبي إلى حبيبك وذوقي صفو وصاله.

فقامت قمر السُكَّر لساعتها فرحةً قاصدة الذهاب إلى حبيبها.. فلما فتحت الباب رأت الشمس قد أشرقت فأنارت الكون فعند ذلك تنفست الصعداء، ورجعت إلى حجرتها متأسفة متحسرة أجَّلت رَغَدَها إلى الليلة التالية وقضت ذاك النهار بفروغ صبر تارةً راقدة، وتارةً باكية، متذكرة حبيبها ومتشوقة إليه، ولما جاء المساء جاءت قفص الببغاء وتنهَّدتْ وقالت:

- أيُّها الببغاء اشفق لحالي لأنني في حسرة عظيمة لخيبة آمالي وتأخُّر أحوالي وقد أدرك بي الغرام درجة الهلاك... فبالله خُذ بيدي وبلِّغني مُرادي...

فأجابها الببغاء:

- يا قمر السُكَّر قد قال الحكماء: إن سعادة الإنسان في الدنيا القيام بخدمة مولاه وحفظ الأمانة له، ولذلك أرى من المُقتضى أن أتحفكِ بالنصائح اللازمة لأقوم بخدمتك فاعلمي إذن أن الأيام تمرُّ ولا يشعر الإنسان بمرورها فلا تماطلي قط بل

اذهبي إلى محبوبك حالاً وسريعًا لأن عاقبة الهجر وخيمة، فإنه ا تـ ورث الحـ زن والكدر، وربما يخشى أيضًا رجوع زوجك فيحول بينك وبين مرامك فتصبحين في خجل عظيم من محبوبك، كما أضحى ذلك الأمير مخجولاً من زوجـ ـة الجُنـ دي..
فسألته قمر السُّكَّر:

- وما هذه الحكاية......؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في إحدى مدن الهند جندي متقاعد وله زوجة بديعة الحُسن والجمال، وكانت طاهرة عفيفة لم تمد يدها قط إلى المحرمات؛ فلذلك أحبها بعلها حبًا شديدًا وتعلق بها تعلقًا متينًا حتى أنه لم يكن يفارقها لحظة واحدة، بل ترك الجُندي كل ما في الدنيا ولازم زوجته ليلاً ونهارًا قانعًا بمشاهدتها وحبها، وكانت هي أيضًا تحب زوجها ولم تكن تخالف رضاه ولا تطمع بغيره، وكان كلاهما قانعًا بما يرزقهما الله من فيض كرمه وكانا ينفقان من موجوداتهما بكل سعة عائشين برغد عيش وأتم هناء، لكن هذه الحالة أفضت بهما إلى أن يبيعا كل ما كانا يملكانه، حتى أن المرأة باعت ثيابها وجواهرها ولم يبق عندها شيء فشقَّ ذلك عليهما لأنهما كانا معتادين على الرخا ورغد العيش.

وحيث كانت امرأة الجُندي حكيمة عاقلة تقدّمت إلى زوجها وقالت له:

– بعد أن كنا في نعيم من الدنيا قد حاقنا الفقر المدقع.. لكنَّ الله تعالى لا يحرمنا معاشنا لأنه يسَّر لكل خليقة رزقًا تعيش منه، قد قيل: "وما من دابة على الأرض إلا وعلى الله رزقها.." حقيقةً أنه قد فرغت يدُنا من كل شيء غير أن وسائط المعيشة كثيرة بحول الله تعالى لمن يجدُّ ومن يسعَى لأنه جعل في الحركة بركة.. فحيث إنك على جانب عظيم من الصحة والعافية فلا يليق بك أن تتقاعد وأقرانك قائمين بخدمة الملك والأمراء وهم على أحسن حال وأتم منوال، فاذهب إلى العاصمة والتجئ إلى أحد رجال الدولة فيأخذ يدك ويدرك منيتك فتعود إلى ما كُنا عليه.

فلما سمع الجُندي هذا الكلام تحسَّر وتأسَّف وقال لها:

– كيف أفارقك وأطيق لوعة الهجر والفراق

فأجابته:

- إنَّ نار الفقر أشد من نار الفراق وقد قيل: "إن شدة الفقر من نار جهنم.." فإنَّ من يريد وصال حبيبه يجد لذلك وقتًا كافيًا، وأما تحصيل الرزق فلا يتأتَّى في كل حين وإن لم تتعاط شغلاً ينتج منه عائدٌ لنا فمن أين نعيش، وكيف نتلذذ بالحب وقلوبنا محترقة بنار الفقر، فاسمع إلى نصيحتي وطلب الرزق، ولا بأس إذا افترقنا لأن الوصال بعد الهجر لذة عظيمة، ولكن إذا كانت الغربة لا يرتاح بالك من نحوي ويخشى أن آتي محرمًا فإني أتعهَّد لك أمام الله تعالى بمحافظتي على الطهارة والعفاف وأصون عرضي ونفسي من كل دنس إلى منتهى الحياة. ولا تحسبن الفراق شقاء لأنه قد قيل: السعيد سعيد من بطن أمه والشقي شقي من بطن أمه فإن الله تعالى يُقسم الأرزاق بين عباده فيُسعد من يشاء ويُشقي من يشاء، ومطلق العنان لكل إنسان فإن المرأة إذا أرادت المنكر ارتكبته غائبًا كان زوجها أو حاضرًا، وأنت تعلم يقينًا أنني لم أرتكب قط فعلاً شنيعًا، وأنني بعيدة عن ذلك، وتعلم أيضًا طهارة أبي وأمي وجدِّي وجدَّتي وهذا أمر مشهور عند أهل المدينة، وكما أنهم حافظوا على طهارتهم فأنا أحافظ على طهارتي، لأنه كل فرع يتبع أصله، فإن رجلاً طلَّق امرأته لمَّا علم بأن أمها كانت بغيًا. فسألها الجُندي:

- وكيف كانت تلك الحكاية....؟

* * * *

حكاية

قالت المرأة:

إنه كان في قديم الزمان تاجرٌ مغرم بهوى النساء ومتعلق بحبهن تعلقًا شديدًا؛ فيومًا ما سافر إلى بلدة بعيدة وفي أثناء الطريق بينما كان في إحدى المدن تحركت فيه الشهوة النفسانية؛ فبادر إلى تسكينها وتزوج ابنة بديعة الحسن والجمال، لكن أمها كانت بغيًا فقضى معها في تلك البلدة زمنًا طويلاً، وأحبها حبًا شديدًا، ثم بعد مدة عزم على الرحيل من تلك المدينة فتأهَّب للسفر وحمل متاعه وودَّع أصحابه وسار مسافرًا مع زوجته بمعية القافلة. فبعد أن ساروا أيامًا وقطعوا مسافة طويلة وصلوا إلى جسر عظيم؛ فلما دنت منه النوق السائرة في طليعة القافلة نفرت ورجعت إلى الوراء فساقوهم فلم تقطع، بل كلما ضربوها رجعت واستدبرت فحينئذٍ قالت زوجة التاجر:

– تقدَّموا بهذه النوق التي معنا فمتى عبرت هذه عبرت تلك. فتعجَّب التاجر من ذلك وسألها قائلاً:

– من أين تعلمين أن هذه النوق تعبر، وأنها متى عبرت فتعبر تلك أيضًا...؟

فأجابته:

– إنني أعلم أن تلك النوق هي نتاج هذه المعتادة على السفر، فإن قطعت أمهاتها قطعت هي للحال؛ لأن من المقرَّر أن كل فرع يتبع أصله. فسألها زوجها قائلاً: هل يتبع الفرع أصله في كل شيء..

فأجابته:

– نعم وهذا لا ريب فيه.

فلمَّا سمع التاجر هذا الكلام أوَّله تأويلاً خاف منه سوء العاقبة؛ لأن حماته كانت بغيًا، فعند ذلك التفت إلى زوجته وقال لها:

– حقًا لقد صدقتِ فيما قلت لأنك تشابهين هذه النوق أحوالك، معلومة عندي فكما أنَّ هذه النوق تتبع آثار أمهاتها في السير فأنت أيضًا تقتفين آثار أُمك وتسيرين في الطريق الذي سارت فيه فتورثين العار والفضيحة، فمن الآن فصاعدًا ما عُدت أريد مصاحبتك فانصرفي عنِّي، طالقٌ أنت، ثم طالقْ، ثم طالقْ. قال هذا وتركها وسار مسافرًا نحو بلاده.. فالآن ينتج من هذه الحكاية أن كل فرع يتبع أصله فمن كان أصله طاهرًا مصونًا فهو طاهر ومصون، ومن كان أصله دنسًا فاحشًا فهو دنس فاحش، وأما أنا فبحولِه تعالى أُعد من الصنف الأول أبي وأمي وأجدادي اشتهروا بالصلاح والعفاف؛ فإنني أحذو حذوة أهلي وأحافظ على طهارتي إلى نهاية العمر، لا أحتاج قط إلى صيانتك وحراستك، ولا أدنى عرض، ومهما أصابني من الرزايا والنكبات سأكون كتلك المرأة المدعوة (مرحومة) التي قاومت سائر البلاد وحفظت عفتها من كل غائلة فاكتسبت رضا الله تعالى وأكسبت زوجها فخرًا وعرفًا لا يوصف. فسألها الجُندي:

– وما هي حكايتهما......؟

* * * *

حكاية

قالت زوجة الجُندي لبعلها:

زعموا أنه كان في إحدى نواحي تركستان رجل بار يُدعى صالحًا وكان له زوجة اسمها (مرحومة) وكانت طاهرة عفيفة طائعة لزوجها. فيومًا ما عزم على السفر إلى الحج فأحضر أخاه المدعو (فساج) وأوصاه بزوجته وبيته ثم أخذ يتأهَّب للسفر فجمع مهمَّاته وودَّع زوجته وأخاه وسائر أصحابه، وسار مسافرًا إلى المدينة، وأما أخوه (فساج) فقد حقق وصيته، وكان يأتي كل يوم إلى بيت أخيه حسب عادته وبدخوله إلى الدار وقع نظره بغتة على زوجة أخيه وكانت ذات حُسن عجيب وبهاء غريب، ووقع الغرام بغتة في قلبه وأراد أن يباغيها فدعاها إليه يتنزه معها ويبدي لها حسن الملاطفة والرقة لكي يستميلها إليه، فلم يحصل على نتيجة، فعاد إليها في اليوم الثاني فلم يحصل على مراده، فصار عشقه يزداد يومًا بعد يوم حتى ضاق صدره ولم يعد في طاقته احتمال الصبر والغرام؛ فكشف عنه قناع الحياء، ودعا (مرحومة) وأباح لها بسرِّه وطلب منها الوصال فلما سمعت (مرحومة) هذا الكلام أخذها حزن جسيم، غير أنها تستحي منه ولم تخجل، بل أخذت توبخه وطردته من أمام وجهها، فتحير (فساج) من ذلك وزاد غضبه وأكمن لها بغضًا شديدًا، ومع ذلك لم يدع من أن يلاطفها بالكلام ويخاتلها ليسترضيها وإذ لم يجد في ذلك نفعًا أخذ يتوعَّدها بالقتل، وأما هذا الكلام لم يزعزع (مرحومة) بل رذَّلته وقالت له:

دعني أيها الشقي فلست أخاف منك لأنك إن هتكت ستري واتهمتني بالفاحشة فيعلن الله براءتي، وإن أهلكتني أنل منه جزاءً عظيمًا. قالت هذا وابتعدت عنه وأتت إلى حجرتها وجلست غاضبة حزينة متفكرة في عاقبة أمرها.

وأما ما كان من أمر (فساج) فإنه اشتد غيظُه وصار يفكر في حيلة لإهلاكها، فقال في نفسه:

– إذا اتهمت هذه الملعونة من فحشاء، أهلكتها فلا يشق ذلك على أخي لأنه من عائلة ذات شأن، فلا شك أن يشكرني لغيرتي على عرضه، ويلعن هذه الآثمة.. قال هذا واستحضَر أربعة شهود من ذوي الخلاعة وأغراهم بالمال ليشهدوا على (مرحومة) بارتكاب الفاحشة فأذعنوا لقوله ووعدوه بتمام كل ما يشاء.

فعند ذلك أتى (فساج) مجلس الشَّرع الشَّريف وقرَّر لدى القاضي أنَّ زوجة أخيه قد زنت، ويطالب من ثَمَّ مجازاتها فطلب منه القاضي البينة الشرعية على ذلك.. فذهب (فساج) وأحضر الرجال الأربعة فأعطاهم الرشوة ولقَّنهم الشهادة فحضروا معه إلى القاضي وأبدوا شهادة مطابقة لدعوى (فساج).. فلما سمع القاضي شهادتهم حكم بإجراء القود الشرعي على (مرحومة) فجاءوا بها إلى الصحراء ورجموها، ولما ظنوها قد ماتت تركوها في الصحراء وانصرفوا، غير أن الله تعالى أسرع إلى إعانتها وأنقذها من الموت لبراءتها وجهادها في سبيل الطهارة، وأبقى لها نسمة حياة، لكنها بقيت مغشيًا عليها حتى المساء فلما آلت الشمس إلى الغروب أفاقت فرأت جسدها مُكلمًا بالجراحات الثخينة؛ فبقيت بين الحجارة صامتة جامدة لا تتحرك، ثم التفتت إلى العُلا ونظرت إلى مقر الإله العالي، ثم سجدت على إنعامه، ثم هتفت بلسان الألم وقالت: إلهي أنت عالم السر والخفاء فتعلم أن ما نسب إليَّ من الإثم هو محض افتراء، وإنما فعلوا ذلك فريَّةً عليَّ وبهتاناً على الأطهار، غير أني قد قصرت في عبادتك فاستحققت القصاص، ولذلك قد قبلت بكل خضوع لمشيئتك الربَّانية فاقبل مني تزكية دمي وحياتي كفارة عن ذنوبي السالفة، ولا تصرف وجهك عني لأنني ملهوفة وأنت غوث اللهيف.. أنت الذي أنقذت خليلك من نار نمرود وأحييت يونس في أحشاء الحوت:

– فيا مُحب الطهارة اظهر براءتي ولا تتركني في بلواي بل انقذني من هذه الميتة الشريرة، لأنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

فسمع الله تضرُّعَها وأنقذها من الموت، وسخَّر لها أعرابيًا لينتشلها من بلواها، فعندما وصل هذا الأعرابي إلى قُبَّالة تلك الحجارة سمع نواحًا وزفيرًا فالتفت يُمنة

وشمالاً وصار يتقدّم نحو النواح حتى رأى هذه المرأة في حالة سيئة مهشمة بالجراحات، باكية نائحة يكاد الجُلودُ ينفطر لبلواها، فرقَّ الأعرابي لحالها وقال لها: ما الذي أصابك أيتها المرأة... أخبريني حقيقة الأمر.

فاستأنست (مرحومة) وأخذت تقص عليه ما كان من أمرها مع أخي زوجها من أوله إلى آخره، فلما سمع الأعرابي قصتها المحزنة رثا لها ورق لحالها، فمد يده إليها وأخرجها من بين الحجارة، ونظر إليها فإذا هي جميلة المنظر فأخذها بيدها وسار مسافرًا معها إلى بيته وتائقًا لوصالها، فإذن لم يعد يحتمل ألم الغرام، فنظر إليها وقال لها:

– هل تريدين أيتها المرأة أن أقترن بك للزواج الشرعي فتعاد في خير القرين. فأجابته (مرحومة): "هل يجوز للمرأة أن تكون زوجة رجلين في وقت واحد فكيف يسوغ أن تتزوجني وزوجي لا يزال على قيد الحياة ولست بطالق منه.. وهو الآن في الحج الشريف فخَفْ من الله تعالى وابتعد عن هذه المعصية..". فخاف الأعرابي من الله وعدل عن قصده وقال للمرأة:

– اطمئني فلا استحلُّك قط بل تكونين في بيتي مثل أخت لي ولا أدع أحدًا ينظر إليك.

وما زالا سائرين حتى وصلا إلى بيت الأعرابي فأدخلها بكل ترحاب، وأخبر زوجته بما كان من أمر (مرحومة) وأمرها بأن تواصلها بالمعروف، فرقَّت لها زوجة الأعرابي وأحبَّتها كأخت لها فأقامت (مرحومة) في بيت الأعرابي زمنًا ليس بيسير على أحسن حال؛ فشفيت جروحها ورجعت إلى حالتها الأولى، وما فتئت عائشةً عند الأعرابي بأرغد عيش وأتمِّ هناء حتى داهمتها تجربة أخرى عكرت صفو عيشها.

هذا؛ وكان لذلك الأعرابي ولدٌ شرِّير فاسق قبيح المنظر فكان بالقضاء والقدر أنه ابْتُلِيَ بعشق (مرحومة)، وصار يراقب فرصة مناسبة يبلغ مرامه منها، ففي ذات

مرة إذ كانت قائمة في خلوة دنا منها وطلب منها الوصال فأبت وردَّته وابتعدت عنه وأظهرت له الكراهة؛ فصار تارةً يلاطفها وتارةً يتوعَّدها بالقتل إن لم تجب طلبه غير أنها لم تجزع ولم تخفْ، بل بقيت ثابتة على عزمها، فأكمن لها الغلام البغض والضغينة، وصار ينتهز فرصة لإهلاكها. وكان للأعرابي طفلٌ جميل الصورة وكانت (مرحومة) تحبه حبًا شديدًا وفي أغلب الأوقات تحمله على ذراعيها.. ففي ذات ليلة قام الغلام عند انتصاف الليل وكان الجميع راقدين واستل خنجرًا قاطعًا وذبح الطفل أخاه ولوَّث بدمه ثياب (مرحومة) ويديها ووضع الخنجر تحت فراشها، فلما طلع الصباح واستيقظ الكل من نومه قامت زوجة الأعرابي تتفقد ابنها فرأته مذبوحًا وثوب (مرحومة) ملطخ بالدَّم.. فصارت أم الطفل تبكي وتنتف شعرها وتندب ولدها والغلام الشقي يشتم (مرحومة) ويقول:

– لا ريب أن هذه الشقية ارتكبت هذه القساوة البربرية.. تعالوا وانظروا فإن الخنجر تحت فراشها. ولم يزل هذا الشرير يتكلم بمثل هذا الكلام حتى أوغر صدر أبيه وأمه على (مرحومة) فوثب عليها الأعرابي وأخذ يضربها ضربًا شديدًا؛ فقاست من ذلك ألمًا لا يُنسى لكنها لم تغب عن الصواب، بل استلطفت الأعرابي وخلت به وقصت عليه ما وقع بينها وبين ابنه فصدَّق الأعرابي كلامها لأنه كان يعهد في غلامه القسوة والفجور، فندم على ما فرُطَ منه ورقَّ لحالها وقال لها:

– "لقد تأكدت أيتها المرأة براءتك، ووددت لو تبقين في بيتي يومًا ما غير أنَّ زوجتي قد تصوَّرت أنَّكِ قتلت ابنها فانغرس بغضك في قلبها ولم يعد في وسعي أن أقلعه منه، ومن ثمَّ فإنَّ إقامتك في بيتي عذاب عظيم فاذهبي إلى بلد أُخرى وأقيمي فيها إلى أن تتحققي من رجوع زوجك من الحج"... قال هذا وأعطاها أربعمائة درهم ورحَّلها.. فشكرته على معروفه وودَّعته وسارت مسافرة ماشية كل ذلك النهار، حتى وصلت إلى محل آمن في الطريق وكانت الشمس قد آلت إلى الغروب، فنامت في ذلك المكان، ولما كانت تستيقظ كانت تسبِّح الله وتتضرع إليه لشفقٍ عليها.

ولما أصبح الصَّباح قامت مسافرةً حتى وصلت إلى مدينة عظيمة فنظرت صليبًا كبيرًا ودمًا غفيرًا محدقًا به فتقدَّمت إليهم وسألتهم عن سبب اجتماعهم وعن الصليب وعمن أعد له، فأجابوها أن من عادة ملك المدينة أن يصلب ك ل م ن لا ي ؤدي الخِراج الموظف عليه، وأن شابًا قد عجز عن تأديته لفقره واحتياجه ف أمر المل ك بصلبه، حيث لم يتيسر له دفع ما عليه إذ لا أحد تقدَّم لإسعافه. فس ألتهم حينئ ذٍ أن يدُلُّوها عن المحكوم عليه وكم يجب عليه من الخراج، فدلُّوها وذهبت، وقالوا لها إنه مستوجب عليه أربعمائة درهم فعند ذلك دفعت (مرحومة) أربعمائ ة دره م الت ي أخذتها من الأعرابي عن المحكوم عليه، وأنقذته من موت الصلب، فحينئ ذٍ طُ رح ذاك الشاب على أقدامها، وأخذ يشكرها على فضلها ومعروفها، لكنه لما وقع نظره عليها ابْتُلِيَ بِحبِّها.. فلما تركت الجمع وسارت تبعها ذلك الرجل وراح يتودَّد إليه ا فرذلته وأخذت تُوبِّخه، وهو يثب عليها ويتهدَّدها إن لم تطاوعه، فأخذت حينئذٍ تُذكِّره بالجميل وتؤنِّبه على فعله، وهو لا يزعن ويقول لها:

– إن الموت كان خيرًا لي لأنني لو مِتُّ لما كُنت لي سبب العذاب، فأنقذتيني من شرٍّ عظيم وأوقعتيني في شر أعظم.

قال هذا وأخذ يتبعها كرهًا حتى أفضيا إلى البحر وكانت هناك س فينة، وك ان الملاحون على الشاطيء مستعدِّين على السفر فطلبت (مرحومة) أن تسافر معه م وحيث رأوها جميلة المنظر ارتضوا بذلك ولما همُّوا على إنزالها السفينة شرع ذلك الشاب الأثيم يصرخ ويقول:

– لماذا تريدون اختلاس جاريتي فبالله عليكم اتركوها لأنني قد اشتريتها بمالي.. فلما سمع رُبَّان السفينة هذا الكلام أخذه العجب فنظر إلى (مرحومة) فإذا هي جميلة جدًا فأحبها حبًا مفرطًا.. واشتراها من المُدَّعي برقبتها بعشرة آلاف دينار وأنزله ا في السفينة وسافر بها.

وأما (مرحومة) فرضيت أن تباع مثل العبيد والأَمَة، لأنها كانت تبتغي النجاة من ذاك الشاب الأثيم خيفةَ شرِّه.. وحقيقي أنها نجت منه غير أن في كل واد بني سعد.. فلما أصبحت في السفينة رأت ما أشبه الليل بالبارحة.. لأن رُبَّ ان السد فينة ابتُل يَ بحبها وبقيَ صابرًا حتى المساء بفروغ الصبر، فلما ظل المساء عِيل صبره ولم يعد في طاقته احتمال ألم العشق.. فدنا من (مرحومة) وأطلعها على حبه وطلب وصالها لكونها على زعمه جارية له.. فبكت (مرحومة) بكاءً شد ديدًا وتحسَّ رت وتأسَّ فت وقالت له: خف يا صاحبي.. من الله فإن لي زوجًا لم يزل على قيد الحياة فلا يحـ ل لك أن تتزوجني.

فصار الرُبَّان يتوعَّدها ويتهددها ولم يحصل على نتيجة فعند ذلك وثـ ب عليهـ ا وأراد أن يغتصبها.. فصرخت بأعلى صوتها.. فسمع الملاحون صراخها وأسرعوا إليها، فلما رأوا ما هي عليه من جمال شغفوا بها وصاروا يثبون عليها، وإنما كـ ان يريد كل منهم أن يخلصها من يد صاحبها لتكون من نصيبه.. فلما رأت (مرحومة) ما لحقها من خطر عظيم نظرت إلى العُلا وهتفت صارخة:

– يا من أغرقت فرعون في البحر لبغيه وفجوره وأنقذت خليلك نوح بواسـ طة السفينة لصلاحه وبره هلم لإغاثتي ولا تسمح أن أتدنَّس بعد أن حفظت طهارتي من كل غائلة.

فسمع الله تضرُّعها وكان البحر وقتئذٍ هادئًا فتفاقمـ ت ميـ اه البحـ ر وهاجـ ت وتلاطمت الأمواج وهاجت واشتدت الأنواء وعصفت الرياح حتى أصبح الملاَّحون في خوف عظيم، ولذلك تركوا المرأة وأسرع كل منهم لنجاة نفسه لكـ ن الله تعـ الى الناظر من العُلا قباحتَهم أهبط عليهم صاعقة من السماء فأحرقتهم جميعًا ولم يبـ ق إلا (مرحومة) فيسر الله لها بعد ذلك ريحًا مناسبة فسافرت بالسفينة إلى أن وصـ لت إلى شاطيء مدينة عظيمة، وقبل أن ترسو في مينائها خافت من تجديد المصـ ائب فخلعت ثيابها ولبست من ثياب الملاحين التي كانت في السفينة، فلما نزلت إلى البر أسرع الناس إليها وأخذهم العجب لما رأوا السفينة خالية من الملاحـ ين.. فسـ ألوا

(مرحومة) عن ذلك وعن أحوالهم فلم تجبهم بكلمة.. بل طلبت منهم أن يحضروها إلى والي المدينة حيث كان قد بلغها خبر مزاياه الحميدة وأخلاقه الفريدة فأحضروها بين يديه، وقصت عليهم ما أصابها أولاً وثانيًا وثالثًا وحيث كان ذلك الوالي متورعًا عفيفًا رقَّ لحالها وتحنن عليها ولم يتمالك من البكاء، فهنأها على خلاصها وشكرها على عزمها وثباتها وقال لها أن تطلب ما تريد فيُعطي لها.. فأجابته (مرحومة):

– يا مولاي أطال الله بقاءك وأجزل ثوابك إن في السفينة التي حضرت فيها مالاً وفيرًا وأشياء كثيرة من الأقمشة وغيرها فخُذها كلها لبيت المال، وأْمُر أن يُبنَى لي منسك أقيم فيه إلى أن يأتي القضاء المحتوم على كل الخلائق فأجاب الوالي طلبها، ولما كمل بناء المنسك أقامها فيه وكان يرسل لها كل يوم ما يعوزها.

فأقامت (مرحومة) في هذا المنسك منقطعة إلى الله تعالى ومواظبة على عبادته فباركها الله ومنحها نعمة صنيع العجاب والمعجزات حتى اشتهرت وبَعُدَ صيتُها في سائر الأقطار، فصارت الناس تتقاطر إليها من جميع الجهات؛ لأنها كانت تشفي من كل الأمراض، حتى أنه أتاها أبرص وأعمى فأشفتهما شفاءً تامًا.

فلبثت (مرحومة) على هذه الحالة أيامًا عديدة منعكفة على عبادة الله تعالى، فرجع زوجها من الحج ولمَّا وصل إلى بيته لم يجد زوجته، فظن أنها ذهبت إلى زيارة أحد الأقارب فسأل أخاه (فساج) عنها فقال:

– دعنا يا أخي من ذكر هذه الملعونة.. لأنها ألحقت بنا العار والفضيحة لكونها زنت مع شاب غريب، فقاضاها القاضي بعد ثبوت ذلك شرعًا وأمر برجمها فرجمت.

فلمَّا سمع صالح هذا الكلام صدَّقه وحزن حزنًا شديدًا.. لكنه صبر على شدته وتحمل هذه المصيبة، هذا؛ وإن الله المتعال علاَّم الغيوب والخفايا وذا الانتقام لم يدع أن يقتص من جريرة (فساج) الشرير، فسقطت على عينيه ماء سوداء فعميَ ولم تشفه معالجة الأطباء بل كان يزداد وجعه يومًا بعد يوم.

ففي آخر الأمر سمع صالح أنه يوجد في المدينة امرأة صالحة منقطعة إلى الله تعالى ومشتهرة بصنيع العجائب ودعاؤها مقبول عند الله وتشفي من جميع الأمراض.. فعزم على زيارتها وأخذ أخاه وسار مسافرًا إلى المدينة.. فبينما كانا سائرين في الطريق التقى بابن ذلك الأعرابي الذي قتل أخاه واتهم (مرحومة) بقتله وهو قاصد زيارة البكر الزاهدة وأبوه بمعيته، وذلك لأن هذا الغلام قد شلت يداه ورجلاه وتعطلت أعضاؤه كلها وصار جسمه الأبرص، لأن الله تعالى غضب عليه وانتقم منه لتهمته الباطلة. فسار الأعرابي وابنه مع صالح وأخيه دون أن يعرف أحدهم أمر الآخر حتى أفضوا إلى المدينة التي فيها أنقذَتْ (مرحومة) من الصلب ذلك الشاب الشقي الذي قد حلَّ عليه الانتقام الإلهي وأصيب بمرض عضال لم يشف منه إلى أن أشار عليه أقاربه أن يذهبوا إلى الزاهدة المتقدّم ذكرها لينال الشفاء من مرضه، فقبل نصيحتهم وعزم على السفر إلى المدينة فسار مسافرًا وبينما كان في الطريق التقى بالزوار المار ذكرهم وهم (صالح) و(فساج) و(الأعرابي) و(ابنه) فرافقهم وساروا جميعًا مسافرين وكل منهم يجهل أمر الآخر، وما زالوا يقطعون كل يوم مسافةً حتى وصلوا إلى المدينة المقصودة فدخلوها فرحين، وأخذوا يسألون عن منسك مَنْ اشتهرت بفعل المعجزات حتى اهتدوا إليه فرأوا ازدحام الناس على باب المنسك كأنه بلاط أعظم الملوك أو مستشفى إحدى الدول. ولازدحام الناس صارت المرضَى تتناوب الدخول إلى المنسك فمكث صالح ورفاقه كل ذلك النهار ولم تأتهم فرصة الدخول فانتظروا إلى اليوم الثاني، لأن من كان لا يحظى بمقابلة هذه الزاهدة كان ينتظر إلى اليوم الثاني ثم إلى اليوم الثالث ثم وثم... إلى أن تأتيه الفرصة، فلما أصبح اليوم التالي بكروا بكور الغراب فرأوا من ازدحام الناس ما كان في الأمس فوقفوا خارج المنسك منتظرين أن تأتيهم فرصة الدخول.. وأما (مرحومة) فكانت متوقعة. وإذ نظرت صدفة في الشباك رأت هؤلاء المرضَى وعرفتهم كلهم وتحيرت من صنيع الله بهم وانتقامه منهم فسجدت حينئذٍ لله ومجَّدت أحكامه العادلة ثم دعتهم إليها وقالت لهم:

- اعلموا أن الله على كل شيء قدير وبدونه لا تقدر على شيء فهو يضرب بالأمراض العضالة ويشفي منها وأما أنا وكل سواه فعاجزون عن ذلك غير أنه تمجدت أسماؤه نظر إليَّ بعين الرحمة وسلَّطني على أن أُشفي ليس فقط الذين مثلكم بل الذين بلغوا درجة الهلاك أيضًا، وأما أنتم فأريد من صميم الفؤاد أن أتضرع إلى الله تعالى ليَمُنَّ عليكم بالشفاء غير أني لا أتضرع هنا لأنني الآن متوجهة إلى والي المدينة لأنه باد لي معه غرض ضروري، وقد أشرت إليه بأن يجمع عنده سائر البطانة وأعيان المدينة فاتبعوني أباركـكم هناك وأتضرع إلى الله من أجلكم.

قالت هذا وسارت إلى والي المدينة وهؤلاء المرضى يتبعونها فلما قربت من دار الوالي وكان قد استبشر بقدومها تقدّم لملاقاتها مع بطانته ومن كان عنده من أكابر المدينة لأنها سبقت فأوعزت إليه أن يدعوهم لداره فدخلت حجرة كبيرة حيث كان قد أعد لها مرتبة عالية، فجلست وجلس مَنْ كان حاضرًا من بطانة الوالي وأعيان المدينة وأكابر العلماء والحكماء وعند ذلك أمرت الحاجب أن يحضر أمامها المرضَى الذين أتوا بمعيتها فأحضرهم.

أما الوالي وجماعته وسائر أهل المدينة فلم يكونوا عارفين وقتئذٍ أن هذه الزاهدة تُسمى (مرحومة) لأنها غيرت اسمها وانتحلت اسمًا آخر، وأما قصتها العجيبة فلم يكن أحد يعرفها سوى الوالي فقط.. فلما دخل المرضى إلى الحجرة نظرت (مرحومة) إلى الحاضرين وقالت لهم: إن هؤلاء المرضى لهم قصة معجبة وقد أُلهمت أن لا أتضرع لأجلهم ما لم يتوبوا عن ذنوبهم ويعترفوا بها، علانية؛ لأن ما أصيبوا به إنما هو قصاص من الله لذنوب ارتكبوها فإن اعترفوا أمامكم بذنوبهم تضرَّعت لأجلهم إلى الله فيرزقهم الشفاء التام، وإلا فلا. فلما سمعت الجماعة هذا الكلام تحيروا وتاقوا إلى معرفة أمر هؤلاء المرضى فأخذوا يلحون عليهم ليقصوا حكايتهم. فأبوا ولبثوا صامتين.. غير أن علامة الاندهاش والانذهال لاحت على وجوههم فأصبحوا خاشعين فقالت (مرحومة): قولوا لهم إني لا أتضرع لأجلهم ما لم يقصوا عليكم حكايتهم كلٌّ على حدة مفصلاً.. وحقيقة إن الله تعالى يريد أن تُكتم

السيئات، وإنَّ ستر الذنوب محمدة يندب إليها لأنه قيل من سترته لكني لا أقصد بكشف سرهم أن ألحق بهم الفضيحة بل لأعلن قدرة الله تعالى وعجائبه في سائر الأقطار، فيجب الآن أن يخبروننا بقصتهم دون تمويه؛ لأنهم إن موهوا زاد الله عقابهم. قالت هذا وأخذت تلح عليهم هي والجماعة بأن يقصوا حكايتهم فلما رأوا أنه لابد من إفشاء سرهم أظهروا الطاعة والندم.. فتقدّم (فساج) أولاً وقال: كان لأخي هذا امرأة صالحة عظيمة اسمها (مرحومة) ولما ذهب أخي إلى الحج أوصاني بها وبأن أتفقدها كل يوم وأحضر لها ما يعوزها فواصلتها أيامًا بالمعروف والإحسان؛ لكنني لم ألبث حتى تحركت فيَّ الشهوة النفسانية فشغفتُ بها وأطلعتها على سريرتي وطلبت أن أباغيها فأبت ورذلتني؛ فكمنت لها الحقد وقصدت إهلاكها، فادَّعيت عليها لدى القاضي بأنها زنت ورشوت أربعة شهود فشهدوا طبق دعواي فحكم عليها القاضي بالرجم فرجمت، والآن قد انتقم الله منِّي لقساوتي البربرية. فلما سمع الحاضرون حكايته أخذهم العجب والاندهاش غير أنهم كما سبق لم يكونوا يعرفون من هي (مرحومة) ثم تقدّم ابن الأعرابي وأخبرهم بقصته وبما فعل مع (مرحومة) المارُّ ذكرُها فازداد تحير الحاضرين واندهاشهم.

ولما أنهى ابن الأعرابي مقالته تقدّم الشاب الذي كان مُعَدًّا للصلب وقص على الجماعة ما كان من أمره مع (مرحومة) وذلك دون زيادة ولا نقصان، ولما انتهى من حكايته قامت (مرحومة) ونظرت إلى الجماعة وقالت لهم: يا أمة محمد أنا (مرحومة) التي اتهمت بالزنا ورجمت، وهذا الرجل المدعي صالحٌ هو زوجي لا أعرف رجلاً غيره.. أنا التي نكبت من ابن الأعرابي ومن هذا الشاب الذي أنقذته من الصلب، وقد باعني إلى ربَّان السفينة بعشرة آلاف دينار.. ولما دخلت السفينة كانت مُصيبة أعظم مما سبق تنتظرني فيها لأن الملاحيين أثاروا علَى طهارتي حربًا شديدةً، وأرادوا اغتصابي، غير أن الله تعالى رمقني بعين الرحمة وأنقذني منهم وأرسل عليهم صاعقة من السماء فأحرقتهم، وبقيت أنا وحدي في السفينة، فيسَّر الله لي ريحًا مناسبة حتى وصلت إلى هذه المدينة فرآني جمع غفير وتعجَّبوا

من ذلك، فالآن قد اتَّضح لكم ما قاسيته من المصائب والرزايا وما حل بهؤلاء المفترين من الأمراض العُضالة جزاءً لما ارتكبوه ضدي من الذنوب والافتراء، فاعتَبِروا جميعكم من هذه الأمثال واعلموا أن الله يجازي كُلاً حسب أفعاله. ثم نظرت إلى المرضى وقالت:

– حيث قد اعترفتم بذنوبكم فيجب أن تتوبوا إلى الله تعالى فيتوب عليكم؛ لأنه هو التوَّاب الرحيم، فاندموا على ما سبق منكم ندامة صحيحة واستغفروا الله تعالى؛ لأنني قد غفرت لكم ما أبديتموه نحوي من الافتراء، وما ألحقتموه بي من الأوجاع والعذاب، فإن تبتم توبة صالحة تضرعت لأجلكم فشفيتم وإلا فلا شفاء ترجونه.

فلما سمع المرضى هذا الكلام تأثروا وانتصحوا فندموا على ما فعلوا، وأخذوا يذرفون الدموع السخينة ويُقبّلون أقدام (مرحومة) ويستغفرونها عما مضى، وأما هي فغفرت لهم وباركتهم وتضرَّعت إلى الله من أجلهم فأجاب تضرعها وأشفاهم من أمراضهم، فرجع الأعرابي وابنه والشاب المار ذكره إلى بلدهم شاكرين الله تعالى وحامدين فضل (مرحومة) وإحسانها.

وأما ما كان من أمر (مرحومة) وزوجها فإنهما مكثا عند الوالي ثلاثة أيام، ولم يدعهما أن يسافرا من عنده إلا اضطرارًا لأنه كان يوم أن يبقيا عنده يومًا ما لما رأى من فضلهما وبرِّهما ولأنه أحبهما حبًا شديدًا فأجزل عليهما العطاء ورحّلهما إلى بلادهما وهما يمنان الشكر لمحامد أخلاقه، ويحمدان كرمه وجوده، فوصلا إلى بلادهما بالسلامة وعاشا عُقيب ذلك زمانًا طويلاً بأتم رغد وأحسن عيش متذكرين هذه الحكاية ومتأثرين منها حتى أتاهما هادم اللذات ومفرِّق الجماعات.

فلما أنهت امرأة الجُندي مقالتها هذه أردفت كلامها قائلة: فالآن ينتج من هذه الحكاية أن عفاف المرأة وفجورها منوطان بها، فإن كانت تبغي المباغاة بغت، احترس عليها زوجها أو لم يحترس، وإن كانت تحافظ على طهارتها حفظتها من كل غائلة غائبًا كان زوجها أو حاضرًا، كما يتضح ذلك جليًا من مثل (مرحومة)

المارُّ ذكرُها. فأنا قد منحني الله تعالى من فيض كرمه حب الفضيلة والعفاف فسواء كنت في البيت أو لم تكن فإني أحافظ على طهارتي وأصون نفسي من كل دنس. فاذهب الآن لكي تسعى لنا في طلب الرزق حتى لا نهلك جوعًا وإن شئت زيادة اطمئنان من نحوي فخذ هذه الوردة واحترس عليها واحذر من الآن تدعها من يدك دقيقة واحدة، فكلما رأيتها طريئةً نامية اعلم أنني على جانب عظيم من الطهارة، وإن رأيتها لا سمح الله قد ذبلت فاعلم أني حينئذٍ قد خنتك وملت إلى الفساد أعوذ بالله من ذلك، فاطمأن بالاً لنحوي ولا يشق عليك فراقي، فقُم واذهب إلى العاصمة والتجئ إلى أحد الأمراء فيأتيك خيرًا.

فاستحسن الجُندي هذا الكلام وأزعن لنصيحة زوجته، فقام المساعد وبعد أن ودَّعها سار إلى العاصمة وإلى أحد الأمراء وكان معروفًا بمحامد الأخلاق ومشهورًا بالكرم والجود فتقيد الجُندي بخدمته، وكان يومًا ما مكبًا على إتمام واجباته ولهذا السبب أحبه الأمير حبًا شديدًا، وصار يعامله بالإحسان ويحسن الالتفات إليه، وأبلغه إلى أعلى درجة وأقامه رئيسًا على خدمة وأعوانه حتى أخذ الدالة عليه، وصار يتقرب منه في كل حين بدون استئذان وكان يحضر كل يوم مجلس الأمير والوردة في يده، ولم يكن يتركها دقيقة واحدة وكان الأمير يرى هذه الوردة فيطمئن أن الجُندي يقطف كل يوم وردة من البستان، ولذلك لم يكن يسأله عنها ولكن فقد مضى فصل الربيع والصيف وأتى الخريف واستؤصل جميع أصناف الزهور والرياحين، ولم يزل الأمير يرى الوردة بيد الجُندي فتعجَّب من ذلك وقال في نفسه: لا يخلو هذا الأمر من شيء عجيب.. فدعا الجُندي إليه وسأله قائلاً:

– من أين تقطف كل يوم وردة أخبرني حقيقة الأمر ولا تكتم عليَّ شيئًا..؟ فلم ير حينئذٍ الجُندي أن يكتم حقيقة أمره بل أخذ يقص على الأمير حقيقة الواقع كما هي وقال: مازالت هذه الوردة طريئة فأعرف أن زوجتي لم تتبذ وصيتي حافظة طهارتها، وإن ذبلت هذه الوردة أعرف أنها قد نست ومالت إلى الحرام. فلما سمع

الأمير كلامه ضحك عليه وقال: أيها الجُندي كنتُ أعهدك عاقلاً فإذا أنت على جانب عظيم من الحماقة؛ لأنك لم تعرف مكر امرأتك الخادعة الماكرة واعتمدت على كلامها وصدقته وليس هو بالحقيقة إلا كذب وخداع، ولا شك أنها بعد ذلك تشمتت بك إذ ترى أنها خدعتك، فانخدعت يا أحمق وظننت زوجتك طاهرة عفيفة مع أنها فاجرة ساحرة، أوجدت هذه الوردة بسحرها حتى تبعدك عنها لتنال مطلق الحرية، ولا ريب أنها بعد أن ابتعدت عنها انعكفت على المعاصي والفجور فسرتك في المبدأ وأحزنتك في المنتهى فلا تفرح بخلٍّ تسرك مباديه وتسوؤك عواقبه لأنه قد قال الشاعر:

وزهدني في الناس معرفتي بهم .. وطول اختباري صاحبًا بعد صاحبِ
فلم ترني الأيام خلا تسرني .. مباديه حتى ساءني في العواقبِ
ولا كنت أرجوه لدفع مسلمة .. من الدهر إلا كان إحدى النوائبِ

وأما الجُندي فلم يصدق هذا الكلام ولم يتغير ظنه بزوجته ولكنه لم يجاوب الأمير بل لبث صامتًا، وأسرَّ الأمر في قلبه وانصرف.

فلما تفرَّق المجلس وانصرف كلٌ إلى محله أخذ الأمير يتفكر في أمر الجُندي وزوجه ويفكر في وسيلة يثبت بها على المرأة ارتكاب الفحشاء والفجور ليؤكد صدق ما قاله للجندي فدعا اثنين من أعوانه، أحدهما اسمه حسيب وهو الأكبر، والثاني (نسيب) وهو الأصغر وهما أخوان، وكان الأمير يحبهما حبًا مفرطًا لحسن أخلاقهما وخلقهما ولشدة ما اتَّصفا به من الفراسة وجودة العقل والفطنة والحماسة.. وكان جُل اعتماده عليهما فلما حضرا بين يديه أخبرهما بما وقع له مع الجُندي واستشارهما في كيفية نوال مآربه وقال لهما: إن هذا الأمر يهمني جدًا ولا يروق لي عيشٌ ما لم أنل غايتي فما العمل بذلك. فقام حسيب وقال له:

– يا مولاي إن هذا الأمر ليس بصيرًا فأمرني أن أذهب إلى مدينة الجُندي وأفحص مدققًا عن حالة زوجته وأتجسس سائر أحوالها، فربما أتوصل إلى نوال

وصالها، فاعطني فرصة خمسة عشر يومًا حتى أذهب وأعود إليك وأخبـ ـرك بمـ ـا يكون، فاستصوب الأمير رأيه وأعطاه مُهلة خمسة عشر يومًا ليذهب ويعود وأعطاه مالاً وافرًا لينفقه في سفره، فأخذ حسيب يتأهَّب للسفر وتنكَّر وسار مسـ ـافرًا حتـ ـى أفضى إلى مدينة الجُندي فنزل في منزل المسافرين، وبعد أن استراح قلـ ـيلاً أخـ ـذ يطوف في المدينة، وإذ نظر في إحدى المتنزهات جماعة من الشبان يتفاكهون فـ ـي الحديث جلس معهم وتعرف بكل واحد منهم وصار يسألهم عن عوائد المدينة، وقال المثل: "الكلام يجر الكلام" وعليه حيث كانوا ساعتئذ يتجـ ـاذبون أطـ ـراف الحـ ـديث عرضوا بذكر محبة النساء ووصالهن وصفو العيش والمعاشرة معهن؛ فأظهر لهـ ـم حسيب أنه يرغب ويتمنَّى بديعةَ حُسنٍ يواصلها وفريدة خُلق يغازلها، وسألهم بأيـ ـة واسطة ينال مآربه فأجابوه أنه يوجد في هذه المدينة عجـ ـوز مخضـ ـبة الأصـ ـابع وبإحدى يديها عصا وباليد الأخرى سبحة مركبة من خمسمائة حبـ ـة ودأبـ ـت هـ ـذه العجوز أن تطوف الأسواق في النهار وتصلي على الطريـ ـق وتتظـ ـاهر بالعبـ ـادة والقداسة، وإن صادفها رجل في الطريق ركعت أمامه وقبّلت الأرض وطلبت منـ ـه المغفرة حتى أن كل من ينظرها يتبرك منها.. فهذا ظاهرها وأما باطنها فهو باطن أخبث الشياطين لأنها تتعاطَى المنكر والخداع وتغش الكبير والصغير وتخدع الحكيم مثلما تخدع الجاهل، وكم أخرجت من النساء المحصنات إلى طريق المعاصي لأنه لم يقصدها عاشق إلا بواسطتها نال مبتغاه، وأخذوا من ثم يُطنبـ ـون بمـ ـدح هـ ـذه العجوز، فلما سمع حسيب كلامهم رقص فرحًا وطربًا، فانتظر بفروغ صبر تفـ ـرُّق المجلس، فلما تفرَّق أخذ حسيب يطوف في المدينة ويسأل عن العجوز حتـ ـى عثـ ـر عليها فحياها وأخذ يقص عليها خبره ووعدها بكثير من المـ ـال إذا اسـ ـتمالت إليـ ـه زوجة الجُندي، فتعهَّدت له بذلك وقالت له: اطمئن بالاً لأنني سأفرغ جهدي لتنال ما ترغب في أقرب وقت، ثم قامت لساعتها وأتت امرأة الجُندي فحيتها وقالت لها: ما بالك منذ رحل عنك زوجك لازمة الخلوة في بيتك ولا تخرجين للمتنزهـ ـات حتـ ـى تنزح غمتك، فإن من عوائد الغواني الحسان أن يرغبن في معاشرة الشبان، لاسيما

إذا كانت المرأة جميلة المنظر مثلك وزوجها غائب عنها، وزيدي على ذل ك ف إن زوجك قد خان عهدك واعتضاد عنك بغيرك فأنا أهديك لمن يروق إليك لأن عندي شاب جميل الصورة ذو حسب ونسب وعلى جانب عظيم من الغنى فالرأي عن دي أن أدعوه إليك لتتمتعي بوصاله؛ لأنك إذا بقيت على هذه الحال تذهب أيامك سُ دى وتصبحين نادمة متأسفة.

فلما سمعت امرأة الجُندي كلام العجوز علمت مرادها وشعرت بخداعها، وحيث إنها كانت على جانب عظيم من العقل والفطنة أسرَّت الأمر في قلبه ا وتظ اهرت أمام العجوز بالإذعان لقولها وأجابتها طائعة لإرادتها.. فقالت لها العجوز:

إن الشاب الذي وعدتك به هو عندي، وقد كَلِفَ بك كلفاً ا شد ديدًا لأن ه سـ مع بخصالك الحميدة وبما أنت عليه من البهاء الفائق، وقد أرسلني إليك لأكش ف ل ك سريرته وألتمس له وصالك فلا تبخلي عليه بالوصال لأنه أهلٌ لك، وأنشدتْ تقول:

مـ ا ضـ رها لـ و أنجـ زت لعيـ دها .. يومًا بوعـ دٍ مـ ن جميـ ل وعودهـ ا
هيفـ اء إن عرفـ ت غنيـ ت بعرفهـ ا .. عن طيب عنبرها الـ ذكي وعودهـ ا

فأجابتها المرأة:

– حقاً لقد اقتنعت بكلامك فأنا خاضعة لأمرك؛ فاذهبي الآن وأرسلي إلـ يَّ هـ ذا الشاب لأنظره فإن أعجبني صاحبته وإلا فلا وإن بذل لي أموال الدنيا بأسرها.

فلما سمعت العجوز هذا الكلام فرحت فرحًا عظيمًا وقامت لسـ اعتها وأتـ ت (حسيبًا) وقالت له:

– بشراك يا سيدي.. قد نلت مبتغاك لأنني أوقعت في قلب المرأة حبًا وافـ رًا لنحوك وقد طلبت مني أن أرسلك إليها حتى تراك فاذهب حالاً وقابلها.

فلما سمع (حسيب) هذا الكلام فرح فرحًا عظيمًا؛ فأسرع وأتـ ى بيـ ت الجُنـ دي وتعرَّف بزوجته وباح لها بسرِّه وقالت له: إنك قد صرت محبوبًا عندي لمـ ا أتـ ت

عليه من جمال؛ فأنا بين يديك ورهينة أمرك لأن العشق صير كيف صد يرني لـ ك رفيقة وأنشدت:

لك نـ ـاظر خضـ ـع المحـ ـب لقهـ ـرهِ .. حار القلـ ـوب بأسـ ـرها فـ ـي أسـ ـرهِ

الحسـ ـن صـ ـيَّره عليـ ـه محكمـًا ـا .. فأنـ ـا المطيـ ـع لنهيـ ـه ولأمـ ـرهِ

ولكن حيث إني إلى الآن لبثت في بيتي محصَّنة ولم يسمع أحد عني خبرًا مشينًا فأبتغي منك كتم السر بغاية ما يمكن، حتى تكون أحوالنا مجهولة من الجميع.. لأنني لا أريد أن يقف أحد على سريرتنا وهذا غاية رجاي منك، حتى العجوز أيضـًا لا تدعها تعلم ما صار بيننا بل يجب الآن أن تذهب إليها وتقابلها وتقول لها إن امـ رأة الجُندي التي أهديتني إليها لم تعجبني قط، وإنما طلبتُ مشاهدتها لأن الناس وصفوها إليَّ بجمالٍ هي عارية منه، ولهذا أعرضت عنها، وها الآن أودِّعُك، ونهـ ـار غـ ـدٍ أسافر ثم تعطيها جائزة وتودعها وتنصرف عنها.. وبعد ذلك أحضر إليَّ وأحضـ ـر أمتعتك إلى هنا ولا تدع أحدًا يشعر بمجيئك إلى بيتي. فقام (حسيب) وأتـ ـى مقـ ـر العجوز، وقال لها إنه أعرض عن امرأة الجُندي لأنها لم تعجبه، وأنه قد همَّ علـ ـى السفر إلى بلاده ثم أعطاها جائزة وانصرف من عندها، ولما جنَّ الليل أتـ ـى ببيـ ـت الجُندي فرحًا متهللاً فاستقبلته المرأة بالبشاشة والترحاب وبعد أن اسـ ـترحاح قلـ ـيلاً أحضرت له الطعام ليأكل، وجلست معه على المائدة، وكانت قبل وفوده عليها ثانية قد أفهمت خادمتها بأن تُهيِّئ لهما فراشًا للرقاد وهما على الطعام وعندما يذهبان إلى الرقاد تذهب إلى الباب وتقرعه قرعًا قويًا ثم تأتي وتناديها بأن أخاك الأكبـ ـر أتـ ـى وهو واقف يقرع الباب. فأذعنت الخادمة لقول سيدتها، وبعد الأكل جلسا يتفاكهـ ـان بالحديث ثم نهضا وأتيا الخبا وخلعا ثيابهما واستعدًا للرقاد فعند ذلك قُـ ـرع البـ ـاب وأسرعت الخادمة باسم سيدتها وقالت لها:

– إن أخاك الأكبر قد أتى وهو واقف يقرع الباب. فلما سمعت المرأة هذا الكلام تظاهرت بالحزن والاندهاش ونظرت إلى (حسيب) وقالت له:

لم يعد لي حيلة في ذلك.. فما يكون من حالي وأمري إذا رآك أخي هنا. ثم سكتت هُنيهة وقالت له: لا تخف ولا تجذع لأن أخوتي مقيمون في بستان خارج المدينة، وكل خمسة أو عشرة أيام يأتي أحدهم ليتفقد ويقضي عندي ليلة واحدة وعند بزوغ الصباح يرجع إلى محله، لكن عندي محلاً خفيًا . أي بيت تحت الأرض . فتعالى معي وأقم فيه حتى يدخل أخي ولا يراك.. وبعد ذلك ننهتم في أمرك.. فأخذته حينئذٍ بيده وأتت به المخزن وأنزلته فيه وحبسته هناك ولم يكن عليه حينئذٍ سوى ملابسه الداخلية، حيث كان قد خلع ثيابه وتهيأ للرقاد، فبقي هذا المنكوب الحظ تحت الأرض كل تلك الليلة عريانًا بلا غطاء ولا فراش على الحضيض، وعيناه غائصة بالدموع السخينة، وأما ما كان من أمر العجوز فإنها كانت متيقنة أن (حسيبًا) رجع إلى بلاده ولم تكن تعلم أنه دُفن تحت الأرض حيًّا فقضى ليلته حزينًا باكيًا نائمًا على التراب حتى أصبح الصباح، فلما طلعت الشمس أتت إليه المرأة وأخذت تخاطبه من خارج البيت وتقول له:

– أيها الشقي التعيس لقد رماك القدر فلا ينفعك الحذر .. قل لي ما هو سبب مجيئك من بلادك إلى هنا.. وما قصدك ورغبتك.. قصّ عليَّ حقيقة الواقع، وإن شئت أن تنجو من هذا السجن المريع فاعتصم بالصدق، لأنه شفيع المذنب وإن اعتصمت بالكذب فوالله لأُميتُك شرَّ ميتة.

قالت هذا وصارت تتوعده وتتهدده بشر عظيم فخاف (حسيب) خوفًا شديدًا لأنه كان غريبًا واقعًا في شرك لا يستطيع منه خلاصًا، ومن ثم لا نجاة له ما لم يتكلم بالصدق.. فأخذ حينئذٍ يقص على المرأة حقيقة أمره وغايته وما وقع لبعلها مع الأمير، وأن سبب قدومه إلى تلك المدينة ليجبرها ويقودها إلى الفحشاء؛ فتعجَّبت المرأة من كلامه وحمدت الله تعالى وشكرته؛ لأنه حفظ طهارتها من الدنس وأنقذها من هذه التجربة ثم نظرت إلى (حسيب) وقالت له:

حيث قد صدقتَ فيما قلت وأخبرتني حقيقة الأمر فقد نجوتَ من الهلاك؛ فالآن لا تخف بل أصبر حتى ترى آخر الأمر.. فها أنا متوجهة لزيارة المعبد فامكث هنا ولا تجذع. ثم أعطته قليلاً من الطعام والماء بقدر ما يقيه من الموت وانصرفتْ.

هذا ما كان من أمر (حسيب) والمرأة وأما ما كان من أمر الأمير فإنه أضحى منتظرًا رجوع (حسيب) يومًا بعد يوم، ففي آخر الأمر عِيلَ صبرُه وأصبح في حيرة عظيمة لأن (حسيبًا) أخذ فرصة خمسة عشر يومًا حتى يذهب إلى مدينة الجُندي ويعود، فمضت هذه الفرصة ومضى عشرون يومًا وثلاثون ولم يعد من سفره، ففزع صبر الأمير وضاق صدره وخاف خوفًا شديدًا على رسوله لأنه كان يخشى من أن يقف أحد على أمره.

فبينما كان ذات مرة غائصًا في بحر الأفكار دعا (نسيبًا) أخا (حسيب) وأخبره بما كان من أمر أخيه واستشاره في ذلك لأنه كان قد مضى ثلاثون يومًا ولم يعد، ولم يقف الأمير على خبره وقال له:

– إنني قد صرت بانشغال فكرٍ نحو أخيك. وحزنت حزنًا شديدًا أدرك بي درجات الهلاك، فقد دعوتك الآن لأرى ما عندك من الرأي في أمر أخيك فأطرق (نسيب) هنيهة ثم قال: – لا تحزن يا مولاي لأن هذا ليس بأمر عسير.. ولكن لا يثقلن عليك إذا أبديت رأيًا فلعله يفوز لديك بالقبول. فأجابه الأمير:

– تكلم أيها الفتى العاقل ولا تخف.. لأنني أعتمد عليك بما أعهد من فطنتك ودرايتك.

فقال (نسيب):

– ألا تسمح يا مولاي أن أتبع آثار أخي وتمهلني خمسة عشر يومًا حتى أذهب وأتفقد أحوال (حسيب) وأتجسس أحوال امرأة الجُندي وأطَّلع على سريرتها، وأعود إليك بعد الخمسة عشر يومًا وأقص عليك ما يكون.

فاستحسن الأمير كلامه وسمح له أن يسافر إلى مدينة الجُندي ليتفقد أخاه ويتجسس أحوال المرأة المارُّ ذكرها، فتأهَّب حينئذٍ للسفر، وجمع كل ما يلزمه في غربته وأعطاه الأمير مالاً وافرًا وبعد ذلك سار مسافرًا و باذلاً في السير كل ما في وسعه، حتى أفضى إلى المدينة المقيمة فيها زوجة الجُندي فدخلها فرحًا، ونزل في منزل الغرباء الذي نزل فيه أخوه من قبلِه.. فلما نظر الشبان أصحاب أخيه ظنوه (حسيبًا) لقرب المشابهة.. فرحبوا به ولكنهم علموا أخيرًا أنه ليس بحسيب بل أخوه فأبدوا له الإكرام وجلسوا يتفاكهون معه بالحديث، وحيث إنهم كانوا جميعًا من العشاق أخذوا يتحدثون عن العشق وأحواله وأخبروا (نسيبًا) عن العجوز التي أهدوا أخاه إليها وقالوا له.. كل من استصعب أمرًا يسَّرته له وإنه إذا قصدها بلَّغته مراده.

فلما سمع (نسيب) هذا الكلام فرح فرحًا عظيمًا وقام لساعته وأخذ يطوف في أسواق المدينة وشوارعها حتى صادف العجوز فحياها بالسلام، وطلب إليها أن تستميل إليه زوجة الجُندي لينال وصالها، وإنه يعطيها كثيرًا من المال إذا أدركت به غايته فأجابته العجوز:

– يا بني إنه أتاني من مدة شاب جميل الصورة يشابهك كثيرًا وطلب مني ما طلبته أنت فأبلغته مراده، وأرسلته إلى المرأة المارُّ ذكرها غير أنه رجع إليَّ في اليوم التالي وقال لي: إنها لم تعجبه قط، فأعرض عنها وعزم على الرجوع إلى بلده، فباطلاً تعبتُ أمامه وباطلاً اجتهدتُ، ولكن لا بأس إذا سعيت هذه المرة لأجلك، فعسى أن تعجبك هذه المرأة ولا تكون مثل ذاك الشاب المغرور.

ثم قامت العجوز مسرعة وأتت بيت الجُندي وأخبرت المرأة بأن عاشقًا جميل الصورة ذا حسب ونسب وغِنًى وافر يطلب وصالها وصارت تحثها على إجابة طلبها فأجابتها المرأة:

– أيتها العجوز تعلمين أني لا أخالف قط أمرك إذ لا يسعني أن أرفض نصيحتك غير أنك أحضرت لي قبلاً شابًا جميل المنظر فأحببته من أول نظرة، لكنه أتى إلى

هنا مرة واحدة وما عدت نظرته فصحَّ فيه ما قيل.. "إن الشبان لا وفاء لهم". وحيث قد أحببت ذلك الشاب وقلبي تعلق به وهو لم يرع الوفاء بل أعرض عنِّي فلا عُدت أريد منذ الآن مصاحبة غيره، لأنه لا عطر بعد عروس، وفضلاً عن ذلك فإني أخشى أن يكون هذا عديم الوفاء مثل ذاك.

فأجابتها العجوز:

- لا يشق عليك فراق ذلك الشاب لأن هذا أجمل منه صورة وأكرم منه أخلاقًا، ولا شك أنه سيكون ذا وفاء، لأنه ليس كل الناس سواء، بل بينهم تفاوت عظيم في الفضل ورعاية العهود وقد قال الشاعر:

ترى الناس أسواء إذا جلسوا معًا ... وفي الناس زيف مثل زيف الدرهم

فأجابتها زوجة الجُندي:

- يا أمي فليحضر هذا الشاب إليَّ مرة واحدة حتى أنظره فإن أعجبني نال وصالي ومحبتي.. وإلا فسأصرفه عني عاجلاً. فلما سمعت العجوز هذا الكلام فرحت فرحًا عظيمًا ثم قامت وأتت مسرعة إلى (نسيب) وبشَّرته بنوال رغبته وأوعزت إليه أن يذهب إلى المرأة.. ففرح (نسيب) فرحًا شديدًا وقام لساعته، وذهب إلى امرأة الجُندي فاستقبلته كما استقبلت أخاه وقالت له: حذاري من أن تدع أحدًا يعرف بأسرارنا حتى العجوز أيضًا فلا تبح لها بشيء، بل اذهب إليها وقل لها إن امرأة الجُندي لم تعجبني فعرضتُ عنها، وها أنا الآن مسافر إلى بلدي ثم تعطيها جائزة وتنصرف، وعندما يدلَهِمُّ ظلام الليل تعالَى إلى هنا وأحضر حوائجك ولا تدع أحدًا يشعر بمجيئك إلى بيتي.. فقام (نسيب) عند ذلك وأتى إلى العجوز المتقدّم ذكرها وقال لها:

- إن كثيرًا ما وصفوا لي هذه المرأة بالبهاء والجمال، ولكني رأيتها بخلاف ما وصفوا، فأعرضت عنها وها أنا الآن راحل إلى بلدي.

قال هذا وأعطاها جائزة وانصرف عنها.. فلما ظل الليل أتى (نسيب) بحوائجه إلى بيت الجُندي فرحَّبت به المرأة وعاملته كما عاملت أخاه وأوصت الخادمة كما أوصتها سابقًا فبعد الأكل أتيا الخبا، وخلع كل منهما ثيابه ولما استعدا للرقاد قرع الباب فحينئذٍ أسرعت الخادمة ونادت سيدتها قائلة بأن أخاها يقرع الباب، فعند ذلك تظاهرت المرأة بالخوف والرهبة وأتت بنسيب إلى البيت الذي حبست فيه أخاه ووضعته فيه وأغلقت الباب وانصرفت.. فلما نظر (حسيب) أخاه انطرح على عنقه وقبّله وجلس كل منهما يقص خبره على الآخر ويذرف الدموع السخينة.

وأما ما كان من أمر الأمير فإنه أصبح في حيرة عظيمة وحزن لا مزيد عليه لأن المُهلة المعينة لرجوع (نسيب) قد انقضت ولم يرجع، فبات الأمير ينتظره بفرغ صبر، وإذْ لم يعد إليه ازداد قلقُهُ وتحيُّرُهُ وقال في نفسه: لابد أن أذهب بذاتي إلى مدينة الجُندي لأتجسس أحوال زوجته وأرى ما صار من أمر (حسيب) و(نسيب).. فمن ثمَّ دعا الجُندي إليه وقال له: إن لزوم الخلوة أضناني وقد استصوبت التفرغ عن الانشغال والتنزه في المدن لأفرِّج همِّي وغمِّي، وأريد الآن أن أذهب إلى مدينتك لأنها موصوفة بمتنزَّهاتها وفيها كل ما يقر الخاطر ويسر الناظر.

فأجابه الجُندي إن أمرك أحق أن يطاع وتشريفك المدينة مما يكسبها شرفًا وفخرًا ويوليني أعظم فرح ومسرة.

فأجابه الأمير قائلاً:

– إذن أتهيأ للرحيل لأن غدًا نسافر إلى المدينة باكرًا.

فتأهَّب الجُندي واستعدت حَشَم الأمير، ولما أصبح الصباح أسرجوا الخيول وامتطى كلٌ جواده وساروا مسافرين إلى أن أفضوا إلى المدينة، فنزلوا في بيت الجُندي حيث استقبلتهم زوجته بمزيد من الترحاب والإكرام.. ولما قابلت زوجها أخبرته سرًا ما كان من أمر (حسيب) و(نسيب) فسألها زوجها:

– أهما الآن في السجن؟. فأجابته:

– نعم لكن لا تُعلم بهما أحدًا.

فقال لها:

– نِعْمَ ما فعلت.

ثم قامت المرأة وهيأت لهم الطعام، وبعد ذلك أتت إلى المخزن ودعت حسيبًا وأخاه وقالت لهما: إن عندي اليوم وليمة عظيمة دعوت إليها أميرًا من أعظم الأمراء، وأنا محتاجة إلى الخادمات فإن شئتما أن تتما هذه الوظيفة وتخرجا من السجن فهلُمَّا معي فألبسكما ثياب نساء حتى يظنكما الحاضرون نساءً لكونكما على بهاء عظيم وبعد ذلك أُطلق سبيلكما.

فلما سمعا هذا الكلام فرحا فرحًا عظيمًا لأنه تيسَّر لهما أن يخرجا من الظلمة إلى النور فامتثلا لأمرها، وتبعاها فرحَيْن فألبستهما ثياب نساء وأحضرتهما إلى المطبخ وصارت تعطيهما الطعام ليقدماه إلى المائدة، فلما تقدّما إلى محل المائدة ونظر الأمير سيدهما والجُندي وبعض الحشم طار عقلهما من الحيرة والاندهاش.

ولما رآهما الأمير تعجَّب تعجُّبا شديدًا فأجلسهما بين يديه وسألهما عن أحوالهما فأخبراه بكل ما وقع لهما وطفقا يمدحان زوجة الجُندي لجودة عقلها وعفافها.. فأخذ الأمير العجب من هذا الأمر وإذْ وجد المرأة على خلاف ما توهم خجل منها خجلاً عظيمًا، واعتذر لها وشكرها على صونها وعفافها وأكرمها إكرامًا جزيلاً، وأعطاها كل ما كان قد أحضره معه من الجواهر والحلي، وصار منذ ذاك اليوم يزيد في إكرام زوجها ويبالغ في الإحسان إليه حتى أصبح على أحسن حال وأتم منوال.

فلما وصل الببغاء إلى هذا المقام نظر إلى قمر السُّكَّر وقال لها:

– يا سيدتي إنني أخشى من أن تأخرك عن الذهاب إلى حبيبك فيوقع بينكما الخلاف فتصيرين في خجل عظيم منه كما خجل الأمير المارُّ ذكره من امرأة الجُندي؛ لأنه يحتمل قدوم زوجك (ساعد) من سفره قبل أن ينال حبيبك مبتغاه منك، فبالله عليك لا عُدت تماطلين بل اذهبي في هذه الساعة إلى حبيبك الذي كابد مشقة عظيمة إلا من كابد الشوق والهيام ولله در من قال:

لا يعـرف الشـوق إلا مـن يكابـد ..   ولا الصـ بابة إلا مـن يعانيه . ا

فلما سمعت قمر السُّكَّر هذا الكلام كادت تطير من الفرح فقامت مسرعة قاصدة حبيبها، غير أنها لما فتحت الباب رأت أنه قد أصبح الصباح وأنشج ظـلام الليل فظهر كل شيء علنًا كما ظهرت أسرار (حسيب) و(نسيب) فتأسفت وتأوهت وعادت إلى حجرتها نائحة باكية، وقضت ذاك النهار متقلبة على نار الهوى ولم تكن تداويه سوى بالرقاد، وبقيت على هذه الحال حتى ظل الظلام وأسدلَ سوادَ ستارهِ على الأنام فعند ذلك قامت فتطوست وتبرقشت وأتت قفص الببغاء فوجدته غائصًا في بحر الأفكار ومطرقًا في الأرض حتى خالت أنه قد مات فحينئذٍ تقدّمت إليه وهتفت صارخة:

– بم تفكر أيها الببغاء.

فأجابها قائلاً:

– يا سيدتي إن أمرك أعظم ما يهمني كما قلت لك مرارًا فكيف لا أفكر في أحوالك وأنا صديقك الوحيد وليس لك نصير سواي.. فإن أهملتك فمن يفكر فيك وها أنا الآن غائص في بحر الأفكار لا أرى بماذا أداوي وجعك ولكن لقد أضناني السهر ومناني التعب ولكثرة أفكاري غبت عن الصواب.... فسألته قمر السُّكَّر:

وما هذه الأفكار التي شغلتْ بالك في هذه الليلة؟ فأجابها الببغاء:

– إنني كنت مُتفكرًا في صداقتك مع الأمير فهل يا ترى هي ناتجة عن محبة شديدة متبادلة بين الجانبين، أم هي من جانب واحد فقط.. فإن كانت من الجانبين فهي أعظم حظ وسعادة وإلا فلا طائل تحتها بل لعمري ستكون عاقبتها وخيمة وهذا أمر مقرر كما يظهر من حكاية تلك الببغاء الحكيمة مع السلطان، لأن المحبة كانت من جهة واحدة أي من جهة السلطان الذي أشفته الببغاء من مرضه العضال، وإذْ لم يكن لهذه المحبة أسٌ وطيدٌ فلم تكن عاقبتها على ما يرغب السلطان. فسألته قمر السُّكَّر:

– وكيف كانت تلك الحكاية.

* * * *

حكاية

قالت الببغاء:

إنه كانت في مملكة "كامرو" ببغاء حكيمة عاقلة ماهرة في فن الطب فأتت يومًا إلى شجرة عالية، ووضعت عشها فيها وأفرخت عددًا وكان عدد أفراخها خمسة عشر فرخًا، وكان تحت الشجرة وكرٌ فيه ثعلب وله أفراخ كثيرة.

وأقامت الببغاء زمانًا طويلاً في هذه الشجرة تربي أفراخها.. غير أنها كانت في بعض الأحيان تذهب للاصطياد وتترك الأفراخ في عُشها فكانت هذه تنحدر من الشجرة وتلعب مع صغار الثعلب، فما لبثت الببغاء حتى عرفت بذلك فتكدرت لأنها كانت تخشى من سوء العاقبة.. فأخذت من ثم توبِّخ أولادها وتنصحهم ليرتدعوا عن هذا العمل الذي كان يشق عليها، وجلست تخبرهم عن أحوال الدنيا وأهوالها وما فيها من الكوارث والأخطار لا سيما لمن يألف غير جنسه وأنهت مقالتها بقولها لهم:

– يا قرة العين إن كنتم ترغبون في اللعب فالعبوا مع ابناء جنسكم لأن العاقل لا يصاحب غير جنسه، وقد قيل: "كل شيء ينفر من ضده ويميل إلى نده" وقال الشاعر:

ولا يألف الإنسان إلا نظيره .. وكل امرؤ يصبو إلى من يشاكله

ومن صاحب غير ابن جنسه كانت عاقبته وخيمة فبالله عليكم ابتعدوا عن غيكم ولا عدتم تعاشروا صغار الثعلب، لأن هذا لا يليق بكم لأننا من أشرف الخلائق وذاك جنسه من أخسها وأدناها، والفرق بيننا وبين الثعلب كالفرق بين السماء والأرض، فلا أريد منذ اليوم أن تعاشروا فراخه ولا تنظروا إليها. وأما الأفراخ فلم يذعنوا لنصيحة أمهم ولم يقلعوا عن عاداتهم الأمر الذي زاد كدر والدتهم وغيظها فأخذت تتهددهم بالضرب والقصاص الشديد فلم يتوبوا بل استمروا على ما كانوا عليه.

فيومًا ما رأتهم أمهم يلعبون مع صغار الثعلب فغضبت غضبًا شديدًا وضربتهم ووبختهم ثم جلست تنصحهم وتقول: اعلموا يا بَنِيَّ أن بين الخلائق تفاوتًا عظيمًا فمنهم من يكون شريفًا فلا يليق به أن يصاحب من كان حقيرًا دَنِيًّا لأن عاقبته تكون شرًا، وليس للمخلوق أن يصاحب من هو من غير رتبته، ولهذا لا يصاحب الإنسان طيرًا ولا الطائر دابة فكيف يليق بكم إذن وأنتم من جنس الطيور أن تعاشروا صغار الثعلب التي هي من الجنس الأدنى.. ألا تعلمون أن مصاحبتها تلحق بكم العار وتنزع عنكم حُلة الشرف والكرامة.. فأقلعوا عن هذه العادة فتصادفوا حظًا وافرًا وإن خالفتم وصيتي أنزل الله عليكم شر داهية لأن من لا يطيع والديه يقتله الله، ولا شك أنه يصيبكم إن نبذتم وصيتي ما أصاب القرد لمخالفته وصية أبيه.

فسألتها الأفراخ:

- وما هي حكاية القرد وما أصابه...؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

زعموا أنه كان في إحدى المدن حصن منيع وكان محافظًا عليه أحد القواد الباسلين وكان لهذا القائد ولد متولع بلعب الشطرنج، وكان في إحدى جدران الحصن قرد مسن وله ولد يُدعى (زيرك)، وكان هذا متأنسًا ومتجنسًا بجنس البشر فلم يلبث حتى تصاحب مع ابن القائد، وكان في غالب الأوقات يلعب معه بالشطرنج، وفي بعض الأحيان يتخاصمان ويتشاجران، ولكنهما كانا بعد ذلك يصطلحان ويعودان إلى اللعب، وأما أقارب (زيرك) فكانت تسوءهم معاشرته لابن القائد لأنهم كانوا يخشون من ذلك سوء العاقبة، فيومًا ما تقدّم أحدهم إلى أبيه وأشار إليه بأن يردعه عن مصاحبة ابن القائد لئلا يقع في شرك يصادف فيه الهلاك. فسُرَّ القرد من هذه النصيحة ودعا ابنه (زيرك) إليه وأخذ ينصحه ويحثه على ترك مصاحبته ابن القائد قائلاً له: يا بُني دع مصاحبة هذا الرجل لأنها ربما تكون سبب هلاكك، لأن من عاشر غير ابن جنسه كانت عاقبته البوار ويلزمنا بالأخص أن نجتنب مصاحبة ابن آدم لأن شيمته المر والخداع؛ فحذاري حذاري من مصاحبته لأنه قد صح فيه ما قاله الشاعر:

يعطيك من طرف اللسان حلاوة .. ويروغ منك كما يروغ الثعلب

قال هذا وسار تارةً يتوعَّده وطورًا يلاطفه، أما (زيرك) فلشدة رغبته بلعب الشطرنج لم يذعن لنصيحة أبيه بل بقي مصرًا على غيه وجاريًا على عادته.

فيومًا ما صنع ابن القائد وليمة فاخرة، ودعا إليها سائر أصحابه، فلما اجتمع المدعوُّون أخذ ابن القائد يلعب بالشطرنج مع ميمون (زيرك) وكانت عادتهما أن الغالب يسخر بالمغلوب وسيتهزيء به وإذْ كان (زيرك) وقتئذٍ غالبًا أخذ يسخر بابن القائد ويضحك عليه فخجل المغلوب من أصحابه وهاج غضبه؛ فأخذ الشطرنج

وكان من سن الفيل وضرب به المسكين (زيرك) على رأسه فشجَّه، لكن (زيرك) لم يخف، بل لشدة ألمه نسي حقوق المودة القديمة فوثب على الأمير وعضَّه في وجهه وجرحه جُرحًا بليغًا فصاح ابن الأمير بمن كان حاضرًا ليمسكوا (زيرك) إلا أنه لم يكن إلا كلمح البصر حتى فرَّ هاربًا من أمام الجماعة، وانساب في محل مسد تحكم في الحصن، وأما ابن القائد فكان يزداد وجعه يومًا بعد يوم فعالجه أشهر الأطباء الحاذقين، فلم ينجح به الدواء حتى يأسوا من شفائه ووقع أهله في حزن عظيم وكدر جسيم وصاروا يبكون وينوحون، في تلك الأثناء وفد عليهم طبيب حاذق من بلاد اليونان، ولما أشرف على مرض ابن القائد وجرحه قرر بأن ليس له سوى دواء دم القرد الذي جرحه فيعمل به مرهم ويدهن به الجرح فيشفَى، فأمر القائد غلمانه أن يفتشوا على (زيرك) ويلقوا القبض عليه ويأتوا به إلى الطبيب، فأتت الغلمان به وذبحوه أمام الجماعة وأخذ الطبيب من دمه وصنع مرهمًا وصار يدهن به الجرح بضعة أيام فنال ابن القائد شفاء تامًا.

* * * *

فلما أنهت الببغاء هذه الحكاية نظرت إلى أولادها وقالت لهم:

تأملوا يا بَنِيَّ بما كان من عاقبة ميمون (زيرك) المنكوب الحظ، فإن معاشرته لابن القائد كانت سبب هلاكه، ولا غرو، فإن هذه عاقبة كل من اقتفى أثره، بالله عليكم دعوا مصاحبة صغار الثعلب لئلا تهلكوا كما هلك ميمون (زيرك). وأما أفراخ الببغاء فحيث إنها كانت على جانب عظيم من الحماقة والغباوة فلم تذعن لوصية أمها، بل بقيت على عادتها المارُّ ذكرها، فكان بالقضاء والقدر أن يومًا ما ذهب الثعلب للصيد ليصطاد لصغاره ما تقتات به، وإذْ لم يجد شيئًا في ذاك النهار تأخر عن الرجوع إلى وكره، فأتى حال غيبته وحشٌ ضارٍ فمرَّ تحت الشجرة المارُّ ذكرها وأوقع بصغار الثعلب وافترسها، فرجع الثعلب إلى وكره وتفقد أفراخه فلم يجدها فتأكد أنها هلكت فصار حينئذٍ يبكي وينوح حتى اجتمع عليه جماعة من الثعالب وشاركوه بحزنه ونحيبه، لكنه علم أخيرًا أن أفراخ الببغاء كانت سببًا لهلاك

صغاره لأن تغريدها جلب الوحوش إلى الشجرة، إذْ لم يمكنها التوصل إلى الشجرة لعلوها فقد افترست أفراخه، فعند ذلك تحركت حفائظه على أفراخ الببغاء، وصار إذ ذاك ينتهز فرصة تمكنه من الانتقام منها، وإذْ لم يجد حيلة لذلك عِيلَ صبرُهُ وذهب فيه الحزن كل مذهب إلا أنه كان له صديق وهو القنفد، فأتاه وأخذ يبكي أمامه ويشرح له مصيبته وقال له:

– يا أخي، إن أفراخ الببغاء قد دبَّ في قلبهم الحسد فأثكلتني أولادي وأنزلتْ على رأسي أعظم بلية ولم أزل أترقب فرصة للانتقام غير أني لا أجد حيلة لإهلاكها.. فأجابه القنفد:

– يا أخي إن حيل الثعلب ومراوغته مشهورة فكيف لم تجد حيلة لإهلاك عدوك...؟

فأجابه الثعلب:

– إنَّ فَقْدَ أولادي سبَّب لي حزنًا شديدًا أعمى بصيرتي وشتت عقلي ولم يعد يخطر ببالي حيلة لإهلاك عدُوِّي فلهذا جئت إليك مستجيرًا بحكمتك.

فقال له القنفد:

– قد عنَّ ليَ الآن رأيٌ سديد ووجدت حيلة لطيفة وهي أن تذهب وتظهر لبعض الصيادين، وتتظاهر بالضعف والعجز، وأنك مجروح في رجلك فتتعارج أمامهم، فإنه إذا نظرك الصياد على هذه الحالة فلا ريب أنه يطمع في صيدك فيتبعك، وأما أنت فلا تهرب من أمامه بل سر قُدَّامه سيرًا خفيفًا حتى تصل إلى الشجرة التي فيها فراخ الببغاء عند ذلك أسرع راقدًا حتى تغيب عن نظره فمتى آيس منك فإنه يلبث واقفًا تحت الشجرة متلفتًا يُمنة وشمالاً فيرى أفراخ الببغاء فيصطادها. فاستصوب الثعلب هذا الرأي واستحسن هذه الحيلة وقام لساعته وفعل كما أشار عليه القنفد، وبالحقيقة إن هذه الحيلة كانت طبق المرغوب، لأنه لما نظر الصياد الثعلب على الحالة المتقدّم ذكرُها صار يتبع آثاره حتى بلغ الشجرة المتقدّم ذكرُها، فعند ذلك

أسرع الثعلب راقدًا وتوارى عن نظره فلمَّا وصل الصياد إلى الشجرة بهت واقفً ا فنظر فرأى أفراخ الببغاء، فعند ذلك أعرض عن الثعلب وطمع في اصطياد الببغاء وأفراخها وفي الحال أخرج شبكته وألقاها على الشجرة فوقعت الببغاء وأفراخها فيها فاعتراها جميعًا الخوف والرعب، وأما الببغاء فحيث كانت حكيمة عاقلة أُروع ت واعتصمت بالحيلة وقالت لأفراخها: إنني كنت يومًا ما أخ اف م ن أن يصد يبكم مصابٌ لمخالفتكم وصاياي وها الآن قد سمح الله بذلك وأوقعكم في بليَّ ة عظيم ة، ولكن لا تخافوا ولا تجزعوا لأن على المخلوق أن يحذر م ن المصا ائب قب ل أن تدركه، وأما إذا أدركته فعليه أن يشدد عزمه ويصبر على الشدة والبلوى لأنه قيل: "العزائم منازل الأبطال والصبر دأب الرجال، ثم بعد ذلك يسعى ويحتال في نج اة نفسه" فالآن يا بَنِيَّ تشجعوا ولا تخافوا فإنَّا لله وإليه راجعون، وتظ اهروا ب الموت حتى إذا رآكم الصياد بلا روح يطرحكم خارج الش بكة فحينئ ذٍ فِ رُّوا ه اربين، واجتمعوا مع بعضكم في محل واحد وأنا أكون فديةً عنكم. فأطاع الأفراخ وال دتهم فتظاهروا بالموت حتى خال للصياد أنهم ماتوا.. فعند ذلك تبدَّل فرحُهُ حزنًا وق ال: عجبًا هل كل هذه الطيور مائتة وليس فيها حيٌّ.؟ قال هذا وتفرَّس فيها ف رأى الأم وحدها حية وما سواها ميت فطرح حينئذٍ الأفراخ من الشبكة وأبقى فيهم أمهم فعن د ذلك فتحت الأفراخ أجناحها في الهواء وطارت، فلما رأى الصياد منها هذا الاحتيال اشتدَّ كدرُه وغيظُه فقال: يا للعجب إن الذي له قيمة عظيمة ويساوي مبلغًا وافرًا قد احتال عليَّ وفرَّ هاربًا وبقيت هذه الببغاء الحقيرة الدَّنِيَّة التي لا تساوي درهمًا واحدًا فأي نفعٍ وأية فائدة منها فالأحسن أن أقتلها لأنه لا فائدة لها. قال ه ذا ورف ع ي ده ليضربها في الأرض فحينئذٍ صرخت الببغاء لخوفها من الموت وهتفت قائلة:

– أيها الرجل لا تتلف رزقك بالباطل. فلما سمع الصياد هذا الكلام جمدت ي ده ولم يضربها.. فعند ذلك صارت الببغاء تفكر في حالتها وتقول في نفسها:

– قضى الله أن أقع في يد هذا الصياد وقد يسّر له ذلك كنزًا ثمينًا غير أني ل م أخبره بحالي، فإن يبيعني بأبخس الأثمان إلى فقير أعيش عنده في حص ن الفاق ة

والهوان ولا يعود يتيسر لي أن أرجع إلى وطني بل أبقى بعيدة عن أهلي حزينة معذبة في سجن مريع، فعليَّ إذن أن أُعلِمَهُ بحالي وأخبره بما في باطني من جواهر كريمة حتى يطمع في أن يبيعني بأعلى ثمن حتى لا يقدر أن يشتريني سوى السلطان، ويكون الصياد قد جنى مني نفعًا عظيمًا وحُزت أنا نعمة وافرة وسعادة لا توصف، فأقوم تحت ظل الملك مترفةً بالنعم وأترجَّى إذ ذاك إخراجي من السجن ورجوعي إلى مسقط رأسي، وإن لم يتيسر لي ذلك فأنا راضية بخدمة الملك، لأنني أكون مكرمة ومحبوبة وقد قيل "خدمة الملك نصف الملوك" وبالحقيقة فإن خدمة السلطان هي عين الشرف والسعادة في الدنيا وفي الآخرة لأن النظر إلى وجه السلطان هو عند الله عبادة، ولاسيما إذا اقترنت الخدمة بخلوص النية والصدق، لأن من كان على هذه الصفة فهو أجدر بالرحمة والسعادة في الدارين. ففكرت في هذا واستصوبت هذا الرأي ثم نظرت إلى الصياد وقالت له: اعلم أيها الرجل أنني وقعت في يدك بقضاء الله تعالى وأنا على كل حال راضية به فلا تحزن أنت إذن من فرار تلك الأفراخ لأن الله تعالى قد أذن لها النجاة ولم يجعلها من نصيبك وهو المنعم على عباده والقاسم بينهم معيشتهم، ثم اعلم أن هذه الطيور لا قيمة لها لأنها جاهلة لا تعرف شيئًا، بل إنك قد وجدت فيَّ كنزًا ثمينًا فحذار حذار من أن تبيعني بثمن بخس لأنني أساوي مبلغًا وافرًا، حيث إنني طبيبة حاذقة أعالج سائر الأمراض فلا تبيعني إذن إلا بأعلى ثمن لأن قيمتي عظيمة جدًا ولأنني مقتني الملوك والسلاطين.

فلما سمع الصياد هذا الكلام تعجَّب واندهش فأعجبته فصاحة الببغاء وبلاغتها وتأكد حكمتها وفطنتها.. فأتى بها إلى المدينة وأخذ يطوف في الأسواق ويدلل عليها مناديًا بما هي عليه من العقل والفطانة، فتقاطرت الناس إليه وصار كل منهم يدفع ثمنًا والآخر يزيد عليه وكان كلما تقدّم أحد إلى قفصها وسمع كلامها أعجبته فصاحتها فزاد في ثمنها فمضت على هذا المنوال أيامٌ ليست بقليلة ولم يشترها أحد.

هذا وكان ملك تلك المدينة قد اعتراه مرض عضال أعياه حتى يئس الجميع من شفائه فأصبح الملك لهذا السبب في غاية الحزن والكدر، وحيث إنه بلغه أخيرًا خبر الببغاء فأرسل أحد أعوانه يشتريها له أملاً بأن تشفيه مـ ن مرضـ ـه، فـ ذهب هـ ذا واشترى الببغاء بمالٍ وافر وأتى بها إلى بلاط الملك، فلما مثُلَت الببغاء بـ ين يديـ ـه سجدت وأكثرت ودعت له بطول البقاء ونظرت إلى جسده وشرعت تعالج مرضـ ـه بالأدوية الفعالة، حتى صار السلطان يتقدّم إلى الشفاء رويدًا رويدًا.. فلهذا السـ ـبب أحبها حبًا مفرطًا وأمر بأن يصنع لها قفصًا من الذهب مرصعًا بالحجارة الكريمـ ـة فقامت الببغاء فيه مُكرَّمةً من سائر الخدم، وعائشةً بأرغد عيش، غير أنهـ ـا كانـ ـت يومًا ما تتذكر وطنها وأولادها وتتشوق لمشاهدتهم حتى كان يخال لها أن القفـ ـص الذهبي سجن مريع.

فيومًا ما زاد شوقها إلى أولادها حتى عِيلَ صبرُها ولم يعد في وسعها احتمـ ـال الشوق فقالت في نفسها: لا شك في أن الملك يحبني حبًا شديدًا لأنني أشـ فيته مـ ن مرضه وأنقذته من الموت؛ فيروم من ثم إرضاء خاطري ومهما طلبت منه أنالُـ ـه، إلا أنه لربما يصعب عليه أن يأذن لي بالرجوع إلى وطني لأنه يشق عليه فراقـ ـي، وأما أنا وإن يكن قد لحقني من خدمتي شرف عظيم فلابد من مفارقتـ ـه لأن أولادي ووطني أحب شئ عندي ولهذا قيل "حب الوطن من الإيمان" وحيث الآن قد اشتاقت نفسي إلى وطني وإلى مشاهدة أولادي، فيجب منْ ثمَّ أن أترك هذه الديار وأرجـ ـع إليهم، غير أن الواجب عليَّ أن أستأذن الملك بذلك. قالت هذا ودعت الأطباء الذين كانوا يساعدونها في معالجة الملك.. وأمرتهم أن يُركِّبوا دواءً وصفته لهـ ـم، فلمـ ـا فعلوا أتت إلى الملك والأطباء بمعيتها وقالت له: يا مولاي قـ ـد صـ ـنعت الآن لـ ـك علاجًا وها هو فليضع منه على أقدامك فتسيل دماء الأعصاب والعـ ـرق وتسـ ـري بحسب عوائدها فتنال شفاءً تامًا. وفي الحال فعل الأطباء كما أشارت الببغاء فشـ ـفي الملك شفاء تامًا وشكر الله تعالى على أنعامه و الببغاء على فطنتها وحذاقتها.

فعند ذلك تهللت الببغاء فرحًا وسرورًا وهنأت الملك على شفائه وقالت: أطال الله بقاءك أيها الملك العظيم وأجزل ثوابك، إن الله قد منَّ عليَّ بنعمة عظيمة وهي تشرفي بخدمتك وتقبيلي مواطئ أقدامك، فحزت بذلك فخرًا أتفاخر به أنا وابناء جنسي إلى يوم القيامة.. فعند ذلك أمر السلطان بأن يفتح باب القفص لتخرج منه الببغاء لفرْجِ غمُتّها ولم يفطن قط أنها ستطير من القفص.. فلما فتحه طارتْ الببغاء واستقرت في العُلا ونظرت إلى المَلك وقالت:

– وقاك الله يا مولاي من كل شرٍ وغائلة، فها قد حزت الآن تمامَ الشفاء ولم يبق في جسدك أثر مرض، وحيث قد نلت منك أنعامًا وافرة فإني الآن أستودعك الله تعالى واستأذنك بأن أذهب إلى وطني.

فلما تيقَّن الملك بأن الببغاء قد عزمت على الرحيل.. طار عقله وحزن حزنًا شديدًا فالتفت إليها وقال:

– ألم تذكري أيتها الببغاء ما قيل: "إنما الإحسان بالتمام فمن أقدم على معروف لا يُحسب له أجر ما لم يتمه" فحقًا إنك قد أحسنت إلينا ولكن فلماذا لا تكملين هذا الإحسان.. ألست تعلمين أيضًا أن على كل مخلوق أن يجتنب إلحاق الضرر بأصحابه ولو أضر نفسه بذلك، بل ولو أُهلك أيضًا، فإذا غبت عن نظري دقيقة واحدة فإنه يلحقني من ذلك ضرر جسيم وأعود إلى الفراش، وربما لا أشفَى هذه المرة من العِلَّة ثم إنه لا يزال في جسدي آثار المرض فعليك أن تعالجيها حتى تزول لكي لا تزداد يومًا بعد يوم.

فأجابته الببغاء:

– أيها الملك اعلم أنه لم يبق في جسدك أثر مرض، لكن هذه التأثيرات الظاهرة كالضعف وأمثاله.. فلا تلبث أن تزول بعد مدة وجيزة ولا يلزم لها معالجة. ومن ثم فلم تعد في احتياج إليَّ فاسمح لي بأن أرجع إلى مسقط رأسي لأرى عيالي وأولادي لأنني في اشتياق عظيم لمشاهداتهم.. فكيف يسعك أن تمنعني عنهم.

فقال لها السلطان:

– قد عرفت الآن إنك قد نفرت منا.. ومللت الإقامة معنا وتريدين مبارحتنا على أي وجه كان.. فإن كان يشق عليك الإقامة في هذا القفص فاختاري بستانًا من بساتين المدينة حتى تقيمي فيه.

فأجابته الببغاء:

– ألست تعلم يا مولاي أنه خير للمخلوق أن يقيم في سجن مريع مع أهله وأصحابه، من أن يقيم في روضة غناء بعيدًا عنهم.

فلما سمع الملك هذا الكلام تنفس الصعداء وقال لها:

– حيث لابد من أن تفارقينا فأقلُّه تعالي حتى أودِّعك.

فأجابته الببغاء ضاحكة: أيها الملك إنني لست بجاهلة بهذا المقدار حتى تخدعني وتوقعني في الشرك، حقيقةً أنني منكودة الحظ لأن الصياد لم يعرف قيمتي ولا الملك أيضًا عرفها، إلا أنني حكيمة عاقلة عارفة بجميع العلوم والمعارف وباستخراج الحجارة الكريمة وغيرها، والحاصل أني أعلمك شيئًا واحدًا وهو أنه توجد عُشبة كذا إذا عصرها الإنسان ونقَّط من عصيرها نقطة واحدة في عينه، فمهما صنع بعد ذلك لا يراه إنس ولا جن، وإنما لم تظهر معارفي وحذاقتي كما يجب لأنني لم أشأ إظهار كل ما في باطني، فالآن أذنت أيها الملك أو لم تأذن، رضيت أو لم ترض، فإني لا ريب راحلة إلى وطني لأشاهد أولادي وعيالي لأن فراقهم مزق فؤادي وفتت أكبادي، ولم يعد في طاقتي احتمال لوعة الهجر والفراق لأنني ما فتئت متذكرة حبهم لي وما قضيت معهم من الرغد والهناء. وأنشدت:

رعى الله أيامًا تقضت بقربكم   هي العمر بل من بعض ساعتها العمر

فلما سمع الملك هذا الكلام لم يبق له حيلة في إمساكها بل اضطر إلى إجابة طلبها فسمح لها بالسفر وشكرها على معروفها.. فعند ذلك ودَّعته الببغاء وشكرته على ما أولادها من النعم، وطارت في الجو ذاهبة إلى وطنها وبقي الملك ناظرًا

إليها إلى أن غابت عن نظره فحينئذٍ بكى بكاءً شديدًا وتحسَّر وتأسف وتمنَّى لو مات ولم يتعرف بها.

* * * *

فلما وصل الببغاء العاقل إلى هذا المقام نظر إلى قمر السُكَّر وقال لها:

– فالآن يا سيدتي حكيت لك هذه الحكاية لتكون لك مثالاً تتعلم ين منـ ـه أمـ ور العشق وأحواله وما شبه الحب وقيمته، لأنك في الحالة التي أنـ ـت فيهـ ـا لا تـ أمني الخطأ وزلَّة القدم، لأن الهوى قد غشيَ بصرك فجعلك عرضة للخطأ والعثور، وقد تكلمت بإسهاب ليتضح لك جليًا أن المحبة إذا لـ ـم تكـ ـن متبادلـ ـة بـ ـين العاشـ ـق والمعشوق، فليس صاحبها على شيء، وقد علمت من حكاية هذا الملك أن صـ ـداقته مع الببغاء لم تدم لأن المحبة كانت من جهته فقط، فإذن لا فائدة مـ ـن مصـ ـاحبتك للأمير إذا لم تصادفي منه حبًا أوفر من حبك له، لأن من الواجب أن يكـ ـون حـ ـب العاشق أوفر من حب المعشوق لا سيما إذا كان المعشوق مثلك لا نظير لـ ـه فـ ـي البهاء والجمال، وحيث قد تقرر لك ذلك فلم يعد الآن مانع من ذهابك إلـ ـى حبيبـ ـك فقومي لساعتك وتوجهي إليه.

فلما سمعت قمر السُكَّر هذا الكلام فرحت فرحًا عظيمًا وقامت قاصدة الذهاب إلى حبيبها، غير أنها لما فتحت الباب رأت الصباح قد انفجر ولاح، فرجعت متحسـ ـرة، وأتت حجرتها وقضت النهار بالبكاء والنواح، منتظرة وفود المسـ ـاء.. فلمـ ـا ظـ ـل الظلام تعطرت وتزيَّنَتْ بأفخر الملابس والحلي وأتت قفص الببغاء.

وقالت: أيها المحب المخلص انظر لحالي فقد ضاق (صدري) وعيل صـ ـبري، وقتلني الهوى فنحلتُ، وصوتي أشبه بالخيال، وقد صح فيَّ ما قاله الشاعر:

روح تُـ ـردِّد فـ ـي مثـ ـل الخـ ـلال إذا أطارت الريح عنه الثـ ـوب لـ ـم يـ ـبنِ
كفَى بجسـ ـمي نحـ ـولاً أننـ ـي رجـ ـلٌ لـ ـولا مخـ ـاطبتي إيـ ـاكِ لـ ـم ترنـ ـيِ

فبالله عليك انظر إليَّ بعين التحنن وداوِ وجعي، لأنك أنت طبيب العشاق.

فأجابها الببغاء:

– لماذا تماطلين إلى الآن عن الذهاب إلى حبيبك، فحقًا إنك تارةً عاشقة وتـ ـارةً جاهلة.. فهل من حقوق العشق أن تُبلي مشوقَكِ بهذا الهجر الطويل، وتُعرضي عن وصاله، فناشدتك الله اذهبي إليه عاجلاً لأن هجرك قـ ـد طـ ـال فأسـ قمه، ووعدتِـ ـهِ بالوصال ولم تبالِ بإنجاز ما وعدتِ به.. فحقًا إن هذا يُعد من الخيانة، وقـ ـد صـ ـح لحبيبك أن يقول لك ما قاله الشاعر:

أيـ ـا سـ ـادة مـ ـالوا وملـ ـت إيـ ـاهم .. وخانوا ولي قلب مقيم علـ ـى العهـ ـدِ
إذا لم يكن لـ ـي عنـ ـدكم يـ ـا أحبتـ ـي .. محلٌ ولا قـ ـدرٌ فـ ـإن لكـ ـم عنـ ـدي
تُرى يسمح الدهر الخـ ـؤون بقـ ـربكم .. وأحظى بكم يا جيرة العلـ ـم الفـ ـردي

ثم إني أخاف أن يعود زوجك بأقرب وقت، فيحول بينك وبين مرامك ولا يَعُـ ـدْ يمكنك حينئذٍ أن تنجزي ما وعدتِ به الأمير، لأنك وقتئذٍ ترجعين إلى أصـ ـلك لأن من المقرَّر أن كل شيء يرجع إلى أصله، فهل ما سمعت حكاية الابن المصنوع من الخشب، وكيف أنها رجعت إلى أصلها.. حيث لم يوجد وقتئذٍ من يفصل الخصومة بين عشاقها فسألته قمر السُّكَّر:

– وكيف كان ذلك..؟.

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

لقد أخبر الراوون بأنه قد اتفق يومًا على السفر والسياحة نجارٌ وصائغ وخياط وزاهد.. فبعد أن تأهَّبوا للسفر واستحضروا ما يلزمهم في الطريق ساروا مسافرين في بلاد الناس إلى أن قطعوا مسافة طويلة.. وبينما كانوا مسافرين يومًا من الأيام انقضى النهار وخيَّم الظلام وإذ لم يجدوا وقتئذٍ مأوىً يبيتون فيه اضطروا إذْ ذاك أن يبيتوا في أحد الكهوف، وخشيةً من وثبة الوحوش عليهم اتفقوا أن يناموا ويبقى واحد منهم ساهرًا مدة معينة ثم يخلفه الآخر، وهكذا يتناوبون السهر والرقاد حتى طلوع الشمس.. فابتدوا من ثم بالنجار، وقالوا له اسهر ونحن ننام، فسهر النجار ونام الباقون ولكنه حيث كان قد أضناه التعب والمشقة غلب عليه النوم، إلا أنه لم ينمْ بل أراد مدافعة النعاس بعمل شيء يسلِّيه فقطع شجرة كبيرة من ذات الجوار، وأخذ يشتغل فيها بكل هِمَّة ورغبة فصنع من خشبها تمثال ابنة جميلة المنظر.. فلما أنجزها انتهت نوبته وأتت نوبة الصائغ فنام النجار، وقام الصائغ يسهر... وإذا رأى ما صنعه النجار أعجبه ذلك واستحسنه وأراد أن يدفع النعاس عنه كما دفعه صاحبه؛ فأخذ آلات الصياغة وصنع لها حلقًا وخواتم وكل ما يلزم لزينة النساء من الحلي، فأتى بها غاية الإتقان وزين بها تمثال الابنة، وبعد ذلك انتهت نوبته وأتت نوبة الخياط.. فنام الصائغ وقام الخياط ساهرًا وإذ رأى ما صنعه صاحباه استحسنه وحملته الغيرة على أن يحذو حذوهم، فعند ذلك أخذ آلات الخياطة وخاط لها خُلعة ثمينة متقنة غاية الإتقان؛ فوشَّحها بها وجلس أمامها يتفرس فيها فإذا هي جميلة الصورة لا تُعرف من ذات الروح الحية، وبعد ذلك انتهت نوبته وأتت نوبة الزاهد فرقد الخياط وقام الزاهد، ولما فتح عينيه رأى هذه الصورة الجميلة كأنها نور في

خلوة مظلمة، فتقدّم إليها وتفرَّس فيها فإذا هي تمثال على منوال بيع، ولكنه بلا روح.. فعند ذلك رفع نظره إلى العُلا وهتف متضرعًا:

يا من خلق آدم من العدم وجبلته من طين الأرض تمثالاً جامدًا ثم نفخت فيه روحًا حيَّة وأثمرت الشجرة اليابسة أنظر لحالي، ولا تفعمني خجلاً أمام أصحابي الذين صنعوا هذا التمثال البديع، فأرجو كرمك الذي عمَّ سائر الخلائق أن تنفخ روحًا في هذا الصنم الجامد، ليصير ذا حياة فيحمدك بلسانه ويشكرك بقلبه لأنني لا أُحسن صناعةً أماثل بها أصحابي إذ أنني ما تعوَّدت منذ نعومة أظافري سوى على عبادتك وهي حُبي.

فسمع الله دعاء الزاهد وقبِلَ تضرعه لأنه كان بارًا، ونفخ في التمثال نسمة حياة فصار ذا روح حية كالحيوانات الناطقة.

فلما أصبح الصباح قام السياح فرأوا فتاة جميلة المنظر بديعة الحسن والجمال فأخذ كل منهم يدَّعيها لنفسه حتى وقع بينهم الخصام.. فقام النجار وقال:

- إن هذه الابنة هي لي لأنني أنا الذي أبدعتها وصورتها من الخشب فأي حق لكم فيها. فاعترضه الصائغ وقال:

حقيقةً أنك قد نحتها من الخشب غير أني قد صرفت عليها من الذهب والحجارة الكريمة جانبًا ثمينًا زادها حسنًا ورونقًا، فليس لك إذن أن تنازعني فيها لأنها ملكي. فحينئذٍ انتصب الخياط وقال: فليكُف المنازع ولتسكن الزعازع لأنه ليس لكما حق بهذه الفتاة، بل هي ملكي لأنني خِطت لها ملابس ثمينة ووشحتها بهذه الخُلعة النفيسة، وكنت سببًا لنفخ الروح فيها. فعند ذلك انتصب الزاهد كالأفعوان وقال لهم:

- مهلاً مهلاً لقد كذبتم ورب الكعبة لأن دعواكم باطلة، ولا حق لكم بهذه الفتاة لأن منكم من له الخشب، وقد انتسخ بقوة الله تعالى، ومنكم من له الحلي والجواهر فتعطي له، ومنكم من له الخُلعة فتُرد إليه، وأما الفتاة فهي لي لأنني استمددت لها روحًا من محيي الأموات وموزّع الأرواح، فأنَّى لكم أن تدَّعوها، وأما هذه الأقوال

فلم تقنعهم بل ازداد بينهم الخصام حتى أفضى بهم إلى أن يذهبوا إلى القاضي ليفصل بينهم الخصومة، ولما كانوا سائرين في الطريق صادفوا عابدًا ملتفًا بكساءة، فاتفقوا حينئذٍ على تحكيمه عليهم ليفصل بينهم، فدعوه إليهم وقصوا عليه الخبر وحكَّموه عليهم ليفصل بينهم هذه الدعوى.. فلما رأى العابد الفتاة وما عليها من الجمال ابتلَى بعشقِها والتفت إلى السُياح وقال لهم:

– لا تخافوا من الله ولا تستحوا من الناس لأن منكم من يقول إن هذه الفتاة هي لي لأنني نحتها من خشب الشجرة، ومنكم من يدَّعيها لأنه ألبسها كذا وكذا، ومنكم إلخ.. فهل يُصدق هذا الكلام عند ذوي البصائر فارتدعوا من غوايتكم ولا تعتصموا بالكذب، لأن هذه الفتاة هي جاريتي وقد وشَّحتها بهذه الملابس الفاخرة، لأنني منذ أيام تخاصمت معها فأبقت من بيتي، وكنت أجِدُّ في طلبها وأما الآن قد وجدتها، فسبحان الذي سخركم لتأتوني بجاريتي فجزاكم الله خيرًا لأنه أمر برد الجارية إلى مولاها. ومن ثم صار العابد من جملة المدعين فاشتد الخصام بينه وبين السياح وذهبوا إلى المدينة المجاورة وأتوا واليها ليفصل بينهم الخصومة، فلما مثل بين يديه بما وقع لهم نظر الوالي إلى الفتاة فإذا هي جميلة الصورة فأعجبه بديع جمالها وحسن قدها واعتدالها ووقع في قلبه الغرام وتلاعج في لُبه الهيام فقام من ثم يدَّعيها ويقول:

أيها الأعداء المنافقون حقًا إنكم لصوص قاتلون لأنكم قتلتم أخي وغصبتم زوجته هذه التي تدَّعونها، فلأفعلن بكم ولأصنعن، إذْ ليس لكم من يدي خلاص لأنكم أهرقتم دم أخي. فلمَّا سمع المتخاصمون كلام الوالي ابتدروا لتكذيب مدعاه فازداد بينهم الخصام وطلبوا المحاكمة لدى القاضي.. فقاموا لساعتهم وأتوا يتقاضون.. ولما مثلوا أمام القاضي وقرَّر كلٌ منهم دعواه نظر القاضي إلى الفتاة فإذا هي حسنة المنظر فعندئذٍ نظر إلى المدعين وقال لهم:

– يا أحبائي إن دعواكم باطلة وغير مسموعة شرعًا.. لأنها مما يستحيل وجوده عقلاً عادة، هذه الفتاة هي جاريتي نتجت من بيتي وربيتها مثل أولادي ووشحتها

بهذه الملابس الثمينة ولطمعها بها أبِقَتْ من عندي.. فالحمد الله الذي أعادها إليَّ بواسطتكم ولكم الشكر على ما أبديتموه من إرجاع جاريتي فلآتينَّكم جزاءً عظيمًا، اقنعوا بمجازاتي ولا تطمعوا بما فوقه لأن الطمع يذل صاحبه ولله درٌّ من قال:

واقنع ففي بعض القناعة راحةٌ .. و(إلياس) عما فات فهو المطلب
وإذا طمعت كسبت ثوب مذلةٍ .. فلقد كسى ثوب المذلة أشعب

فلما رأى المتخاصمون أن القاضي سار أكبر مدَّعٍ أيسوا من استخلاص الفتاة وتأسفوا تأسفًا شديدًا.. فعند ذلك انتصب الزاهد كالثعبان ونظر إلى القاضي وقال:

– يا مولاي أعلم أنك جالس في هذا المكان لتقضي بين الناس بالحق، فكيف يسوغ لك إذن أن تقول إن هذه الفتاة هي جاريتك ونشأت عندك ونحن نعلم يقينًا حقيقةَ أمرها ومن أين نشأت.. فبأية حجة تستحل ذلك.. وأي جواب تعطيه للحق يوم الحشر والنشر.. يوم تلتف الساق على الساق ويقال إلى ربك يومئذ المساق.

فلما سمع القاضي كلامه نظر إليه ساخطًا غاضبًا وأخذ يوبخه ويقول:

– أيها الأحمق المجنون.. حقًّا إنك على جانب عظيم من الغباوة والخلاعة.. لأنك متلبس بثوب الزهد وباطنك مملوء خبثًا وشرًا، فكيف تدَّعي بما يكذِّبك فيه الظاهر، وكيف تقول إنك نفخت روحًا في صنم منحوت من الخشب... فمن يصدق هذا القول الكاذب فهل سمعتم يا ذوي الألباب إنسانًا حوَّل صورة من شيء إلى آخر وجعل للخشب روحًا تتحرك وفمًا يتكلم.. أما يغرُب هذا على مسامعكم... فارتدعْ أيها الشرير عن غيك وإلا فأجعلك عبرة لمن يعتبر.

وأما الزاهد فلم يخف ولم يجزع من توعُّد القاضي.. بل أخذ يحملق إليه مطلقًا عنان لسانه ضده، فاشتد حينئذٍ الخصام وازداد الصراخ والضوضاء حتى اجتمع إليهم كثير من الناس ليروا ما صار بين القاضي والمتداعيين.

ولما سمع الزاهد توبيخ القاضي له غضب غضبًا شديدًا ونظر إلى الحاضرين وقال:

– يا معشر المسلمين... إن حكايتنا هذه تشابه حكاية أحد أعيان خراسان مع الدوريش (هواي).

فسأله القاضي:

– وما هي حكايتهما.......؟

* * * *

حكاية

قال الزاهد:

إن رجلاً من أعيان خراسان صنع يومًا مادبة ودعا إليها جميع أصحابه فجلسوا بعد الطعام يتفاكهون بالحديث وكان من جملة الحاضرين درويش يدعي هواي فنظر إليه أحد الحاضرين وكان ذا ذوق سليم يسر بالأخبار ويشتاق لمعرفة الآثار وقال له:

لا شك أنك عالم بأخبار من سلفَ من الأمم، فقص علينا من ذلك ما يسر الخواطر وينزه الأفكار. فامتثل الدرويش لأمره وأخذ يقص عليهم من الحكايات أعجَبَها ومن النكت أغربها حتى أفعم الجُلاس فرحًا وحبورًا، وبينما كان يتكلم تحرك أحد الحاضرين، وفيما كان يتمكن من الجلوس بدرت منه ريح فأسمع صرير النحت فضحك الحاضرون، فعند ذلك سكت الدرويش (هواي) فنسب الحاضرون الإثم إليه بدليل قطع الحديث وأخذوا يضحكون عليه.. فخجل الدرويش من ذلك وقال لهم:

– يا كرام العشائر، لقد جئتم شيئًا إذا جاوزتم به الحد جدًا ونسبتم إليَّ ما لم يصدر مني بل من سواي، والدليل على ذلك أن الذي حصل ينتج من اختلاط الريح مع الطعام في البطن.. فأنا لم أذق للآن طعامًا فلماذا ظننتم ذلك منّي.. وقد قريء: (إن بعض الظن إثم) . فعند ذلك أقر بعضهم ببراءة الدرويش واتهمه آخرون فقام حينئذٍ وقال:

– إن صاحب الحق لا يدعْ حقه فأطلب منكم فصل هذه الدعوى لدى القاضي. فعند ذلك عرف القاضي المختصم لديه الزاهد وأصحابه ما يكون من مآل هذه الحكاية.. فاعترض الزاهد وأخذ يوبخه فاشتد بينهما الخصام وطلب المبارزة ليقتص كلٌ من خصمه.

وأما عقلاء المدينة وحكامها لما رأوا ما صار بين القاضي والزاهـ د اجتمع وا للمشورة بهذا الشأن.. فتفاوضوا بذلك مليًا ثم خرجوا إلى المتخاصمين وقالوا:

– إن دعواكم هذه يستصعب فصلها لأن فيها إشكالاً عظيمًا حيث لم ينوِّر أحـ د دعواه ببرهان، غير أنه قد عنَّ لنا رأيٌ حسنٌ وهو قول الرسول ﷺ:

"أيها المؤمنون إذا تحيَّرتم بالأمور فاستعينوا بأهل القبور" فبناء عليه يقتضي أن نذهب إلى المقبرة وهناك يجثو الزاهد على ركبتيه ويتضرع إلى الله تعالى لينصفه حقه.. ونحن نجيبه على تضرعه بقولنا آمين.. فلعلَّ الله يفصل بينكم ويظهر هـ ذا السر المكنون لأنه لا يليق بقاضي المسلمين أن يقاتل مؤمناً بالسـ يف، ولا يجـ وز لزاهد ورع أن يرفع يده من إقامـ ة الـمـ ولى منصـ فًا بـ ين عبـ اده. فاستصـ وب المتخاصمون هذا الرأي وقاموا لساعتهم وأتوا المقبرة فتبعتهم الناس أفواجًا.. فلمـ ا وصلوا إلى الموضع المُعيَّن جثا الزاهد على ركبتيه ورفع نظره إلى العلا وقال:

– إلهي أنت تعلم حالي وتعرف حقيقة أمري انظر كيف أنَّ الحاسدين قد غصبوا مني نعمتك التي تكرمت عليَّ بها. فارجو من لطفك أن تنصـ فني وتظهـ ر حقـ ي علأننية ليُعرف الصادق من الكاذب. وكان الزاهد يبكـ ي ويكـ رر هـ ذا التضـ رع والحاضرون يقولون بصوت واحد آمين.

وبينما كان الزاهد يتضرع ويبكي كانت الفتاة متكئة على شجرة.. ففـ ي الحـ ال انشقت الشجرة وابتعلت الفتاة فرجعت إلى أصلها.. فصح فيها ما قيل إن كل شـ يء يرجع لأصله.. فعند ذلك سكت المنازعون وظهر الحق أعياناً فعرف صدق الزاهد وأصحابه في دعواهم كما اتضح جليًا كذب القاضي والوالي والعابد فعادوا مفعمين خجلاً وخزية واسودت وجوههم أمام الجماعة.. وأما العشاق فقد رجعـ وا خـ ائبين لكونهم خسروا الفتاة المُدَّعاة..

* * * *

فلما أنهى الببغاء مقالته هذه نظر إلى قمر السُكَّر وقال لها:

– إنني أخشى يا سيدتي من أن زوجك يأتي بغتة فيحول بينك وبين مرامك.. وتعودين إلى ما كنت عليه قبل سفره كما عادت الفتاة إلى أصلها، فلذلك اغتنمي هذه الفرصة واذهبي إلى عاشقك الأمير لتنجزي وعدك له.

فلما سمعت قمر السُكَّر هذا الكلام فرحت فرحًا عظيمًا. وقامت لساعتها قاصدة حبيبها، لكنها لما فتحت الباب رأت قد طلع الصباح وبزغت الشمس في الآفاق، وظهر كل ما في المدينة كما ظهرت أحوال المتخاصمين المارُّ ذكرهم فتأسفت ورجعت إلى حجرتها حزينة، وأجلت وعدها إلى الليلة التالية وقضت ذاك النهار تارةً نائمة وتارةً متقلبة على نيران الهوى.

ولما ظل المساء تزيَّنَتْ وتطوَّست ولما خيم الظلام بعث صديقها يدعوها إليه، فأتت قفص الببغاء ونظرت إليه بعين الرقة والملاطفة فعلم الببغاء من ذلك ما تقاسيه قمر السُكَّر من الوجد والهيام بسبب مماطلتها، ففكر في حجة قاطعة يدفع بها عن نفسه فنظر إلى قمر السُكَّر وقال لها:

– يا قرة العين.. اعلمي أنني مكافئُك لما أبديته نحوي من المعروف والجميل، مددت لك يد المساعدة وأتيتك بالنصائح الثمينة لأنني رأيت ذلك عليَّ فرضًا مفروضًا وبما أني اختبرت أمور الخلق أجمع، فرأيت ما ينفع ويزين وما يضر ويشين، فخشيت من ثمَّ عثورك في مسالك العشق لأنك دخيل فيها وهي ضيقة المصادر غير مأمونة العواقب والمصائر، وبالأخص حيث إنك لم تُسيِّري قط أحوال العشاق كما سيَّرتُها أنا مرارًا عديدة فرأيت إذن الليلة البارحة أن أنصحك بذلك لعل نصائحي تبعد بك عن المزلات والغواية وتقضي بك إلى الهداية والدراية، ولذلك أسهبت الكلام حتى طلع الصباح ولم أدرِ به.. وأما في هذه الليلة فلن أشغلك كليلة أمس لأنه لا يليق بنا أن نصرف الزمان بقص الحكايات واستماعها لأن الوقت يمر من السحاب وتمضي معه الفرصة المناسبة فيجب إذن ألا تماطلي، بل اذهبي

حالاً إلى حبيبك حتى لا يعزو إليك إثمٌ فيسوءني ذلك، لأنك ولية نعمتي، ومسـ ـاعدةُ العشاق هي فيَّ خلَّةٌ لا تفارقني حتى الممات، وقد تصفحت صحائف الأخبار ولم أر لي مثيلاً في الأعصار السالفة سوى السلطان ((بهواج)) لأنه كان يحن على العشاق ويفرغ جهده في مساعدتهم.

فسألته قمر السُّكَّر:

– وما هي حكاية هذا السلطان....؟ قصها عليَّ بإيجاز وبعد ذلك أذهـ ـبُ علـ ـى حبيبي.

فأجابها الببغاء:

– إن هذا السلطان كان ذا رأفة عظيمة نحو العشاق وكان دأبه الانعطاف إلـ ـى مساعدتهم بما يفوق كل وصف، ولكثرة شفقته لم يكن يتكلم قط عن عيوب عبده، بل كان يستر كل عيوبهم، وقد قيل "من سَتَر سُتِر" ورُب عاشق كان يرى الوصول إلى معشوقه محالاً ولم يوصله إليه بذل المال والعطايا حتى قيل إن مرة ما جاد بنفسـ ـه ليدرك بأحد العشاق مأربه. فقالت قمر السُّكَّر:

– أما بذل المال فمصدق لأنه كان ملكًا عظيمًا، وأما بذل الـ ـنفس فبعيـ ـد عـ ـن التصديق فقص عليَّ إذن حقيقة هذا الخبر.

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

قد روى السلف من المؤرخين أنه كان في قديم الزمان في مدينة "بلسـ ان" فـ ي عهد العلماء الأعلام عالم فاضل يدعى أبو المجد. وكان حاذقًا في جميـ ع العلـ وم فصيح اللهجة أنيس المحضر، فيومًا من الأيام ضجر من الإقامة فقام من حجرتـ ه قاصدًا التقصف.. فسار نحو أطراف المدينة حتى أفضى إلى بستان فيه من سـ ائر أصناف الزهور والرياحين والأشجار المثمرة والماء الصافي كالزلال، يسـ ير فـ ي وسطه من أربع جهاته ويسقي كل أشجار البستان.. ففرح أبو المجد من هذا المنظر المُبهج وأحدق نظره في البستان.. فرأى فيه تختًا من ذهب جالسة عليه فتاة جميلـ ة المنظر وشعرها مدلًّى على ظهرها، وحولها عدد وافر مـ ن الجـ واري الحسـ ان والفتيات المخضبة البنان، واقفة بين يدي الفتاة المشار إليها بكمال الهيئة والوقـ ار، ومكتفتها كأكتاف النجوم الزاهرة للبدر المنير، فلما نظر أبو المجد هذه الفتاة شغف بها وهام بحبها وتمنَّى الوصال وأنشد:

يا ظبية البان ترعَـ ى فـ ي خمائلـ ه .. ليهنـ ك اليـ وم أن القلـ ب مرعـ اك
المـ .اء عنـ .دك مبـ .ذول لشـ .اربه ولـ يس يرويـ ك إلا دمعـ ة البـ اكي
حكت لحاظك ما في الريم مـ ن ملـ حٍ يوم اللقاء وكـ ان الفضـ ل للحـ اكي
أنـ ت الجحـ يم لقلبـ ي والنعـ يم لـ ه فمـ ا أمـ رّكِ فـ ي قلبـ ي وأحـ لاكِ

وبينما كان واقفًا حائرًا عرض له رجل فسأله أبو المجد عن الفتاة...

فأجابه الرجل:

– إنها ابنة سلطان المدينة. عند ذلك حزن أبوالمجد حزنًا مفرطًا لأنه تيقن أنـ ه دون بغيته خرط القتاد فأخذ من ثمَّ يفكر في هذا الأمر ثم قال في نفسه:

إذا بقيت على هذه الحالة فإني لا شك أموت عن قريب فليس لي حيلة سـ وى أن أذهب إلى السلطان وألتمس منه أن يزوجني ابنته لأنجو من الهلاك فإن رق لحالي وأجاب سؤالي فأكون قد صادفت حظًا وافرًا، وإلا فيغضب عليَّ وغاية ما في مكنته من الانتقام أن يأمر بقتلي.. فعلى هذا يكون موتي مشكوكًا فيه، ولكن إذا بقيت على هذه الحال فموتى مؤكد فالأجدر بي إذن أن أتسلَّح بالشجاعة وأخاطر بنفسي لأذ ال مأربي وخيرٌ لي أن أموت مجاهدًا من أن أموت متقاعسًا... وأنشد:

كم مخلص وعلى في خوض مهلكـ ـة .. وقتلـ ـة قرنـ ـت بالـ ـذم فـ ـي الجـ ـبن

وحيث لابد لكل مخلوق من تجرع كأس المنون فسيان إن كان حَتْفـ ـي آجـ ـلاً أو عاجلاً.

قال هذا وقام لتوه وذهب إلى بلاط الملوك وقدم للسلطان عرضًا يلتمس فيـ ـه أن يزوجه ابنته... فلما بلغ السلطان أحد وزرائه وكان فهيمًا عاقلاً وقال له:

– لا تعجل يا مولاي بقتل هذا الرجل لأنه لا يليق بمنصب العدل والاستقامة أن تتهوَّر بمثل هذا العمل المهم بل لابد من التأني بمثل ذلك، لأن التأني من شيم العاقل وبه يؤمن الزلل وقد قال الشاعر:

قد يـ ـدرك المتـ ـاني حسـ ـن حاجتـ ـه .. وقد يكون مـ ـع المسـ ـتعجل الزلـ ـلُ

وقد يحتمل آية الملك أن يكون هذا الرجل محنك الشعور فأي جرح إذن عليـ ـه.. فاسمح لي أن أذهب وأخاطبه لأعرف حقيقة أمره، وأدفعه عنا بالمعروف، لأنـ ـه لا شك على جانب من الغباوَة والحماقة.

فاستصوب الملك هذا الرأي وأمر الوزير أن يفعل كما قال. فعند ذلك انصـ ـرف الوزير ودعا إليه أبا المجد وقال له:

– أيها الرجل هل اعتراك اليوم جنون حتى أقدمت على طلب ابنة الملك.. فهـ ـل ما دريت بأن ذلك يهيِّج غضبه ويلهب انتقامه، وهل لا تعلم بأن من طلب زواج ابنة الملك يجب أن يكون كُفئًا لها، وأن يأتي من الذهب بحملِ فيل... فكيف أنـ ـت مـ ـع

دناءة شأنك وما أنت عليه من الفقر والفاقة تطمع بما ليس لك فيه مطمح، وتحـ ـرر إلى الملك كتابة مُهينة.

فأجابه أبو المجد:

– يا سيدي إن الغرام حملني على ذلك ومع زيادة فقري فـ ـلا أصـ ـرِّح بأنـ ـه لا يمكنني إحضار المطلوب، لأنني متكل على الرحمة الربَّانية فلعلها تيسر لـ ـي مـ ـا تطلبونه منِّي ولهذا أرجوك أن تمهلني بضعة أيام فربما يسخر الله لي مـ ـن يـ ـأتيني بالفرج.

فأجاب الوزير التماسه وتعاهدا على ذلك وانصرف أبو المجد حزينًا لا يدري ما العمل.

فذهب الوزير وأخبر الملك بما كان من أمره مع الرجل.. وكيف أنه اشترط عليه أمرًا دون نواله، فسر الملك بذلك وشكر فطنته.. وأما ما كان من أبي المجـ ـد فقـ ـد أدركه غَمّ جسيم أنحل جسمه وأضعف قواه ولم يعد يسمع له إلا نحيب وزفير وكان ينشد:

متحجـ ـب عـ ـن كـ ـل مقلـ ـةِ نـ ـاظرٍ   هـ ـلا تحجـ ـب أن يـ ـراه فـ ـؤادُ
ما ضـ ـره لـ ـو كـ ـان يسـ ـمح ربمـ ـا   تشـ ـكو إليـ ـه لهيبهـ ـا الأكبـ ـادُ
بل ليت شـ ـعري مـ ـا يضـ ـر جفونَـ ـهُ   لـ ـو كـ ـان زار مريضـ ـها العُـ ـوَّادُ

وحيث إن الغريق يتشبث بالحشيش فلم يدع أبو المجد استعمال سـ ـائر الوسـ ـائط لنوال بغيته ولم يحبذه ذلك نفعًا. فيومًا ما نظر أحد أصحابه فأخذ يقص عليـ ـه مـ ـا أصابه فقال له صاحبه:

– لا تحزن يا أخي فإن داءك له دواء.. إذ ليس عند الله أمرٌ عسيرٌ. فاذهب إلى الملك ((بهواج)) الشهير واقرع بابه فإنه رؤوف حليم، وجوَّاد كريم، فلا شك في إنه يرحمك ويحسن إليك لاسيما أن دأبه مساعدة العشاق في نوال بغيته. فاستصوب أبو المجد هذا الرأي وقام لساعته وشدَّ رحاله مسافرًا نحو مدينة الملك المُشار إليه، وما

زال سائرًا حتى بلغ المدينة فدخلها فرحًا وفي الحال كتب عرضًا للملك أوضح فيه واقعة حاله والتمس المعونة من لدنه.. بعد ذلك مثل بين يديه وبعد أن كرَّر الدعاء بدوام بقائه قدَّم له العرض. فلما اطَّلع الملك عليه وعلم ما كان من أمر أبي المجد بكى شفقة وتحننًا وفي الحال أمر بأن يعطي لأبي المجد فيل من أكبر ما يوجد عنده، وأن يعطي له أيضًا من الذَّهب حمل الفيل. فامتثلوا لأمر الملك وحملوا من الذهب فيلاً أبيضَ وسلَّموه لأبي المجد وبعد أن ودع أبو المجد الملك وقدَّم له مزيد الحمد والثناء استلم العطية فرحًا متهللاً، وقام راجعًا لمدينة "بلسان" ولشدة فرحه كابد من السير أَشُدَّه حتى وصل إلى المدينة فذهب حينئذٍ إلى البلاط الملوكي وطلب مقابلة وزير الملك، ولما قابله أخبره بقصته أي بأنه امتثالاً لأمره قد أتى بما طلب منه من المال.. فأخذه الوزير منه وأرسله إلى بيت المال وأخبر الملك بذلك.. فتعجَّب الملك تعجّبًا شديدًا وسأل بطانته أن يخبروه عمَّن أعطى هذا الذهب لأبي المجد.. فنظروا فيه فإذا هو مصكوك باسم الملك (بهواج) فأيقنوا بأن ذلك من نواله، وأخبروا الملك بذلك فدعا الملك حينئذٍ أبا المجد وقال له:

– إنني أكلفك بأن تقطع رأس من أكرمك بهذا العطاء الوافر وتأتيني به فإن أقدمت على هذه البسالة زوَّجْتُك ابنتي وواصلتك بالإنعام وإلا فسأقتلك شر قتلة.

فلما سمع أبو المجد هذا الكلام خاب أمله فحزن حزنًا شديدًا ويَئِسَ من نوال بُغيته غير أن زيادة العشق حملته على أن يرجع إلى من صحَّ فيه قول الشاعر:

علـ .م المـ .زن النـ .دى حتـ .ى إذا مـ .ا حكـ .اه علـ .ى البـ .أس الأسـ .د

قلـ .ة الغيـ .ث مقـ .ر باجـ .ددي ولـ .ـه الليـ .ث مقـ .ر بالجلـ .دْ

فلما وصل أبو المجد إلى مدينة الملك (بهواج) قدم له عرضًا والتمس فيه مقابلته... ولما أذن له بذلك تقدّم بين يديه والدموع السخينة تهطل من عينيه وأخذ يقص عليه ما جرى له وما كلفه به الملك "بلسان" وقال:

– يا مولاي إنك من وفور إحسانك ولزيادة تحننك على العشاق قد أنعمت عليّ بمال وافر وأما ملك "بلسان" الغاشم الظالم بعد أن أخذه مني كلفني مالا أطيقه وما تعفه نفسي وتشمئذ منه إذْ قال لي: إن لم تأتني برأس الملك (بهواج) فأقتلك شر قتلة. غير أني أيها الملك الرؤوف لم أحضر بين يديك لأنفذ أمره، حاشاي من أن أرتكب إثمًا كهذا فظيعًا، بل إنني فررت هاربًا من جوره وجئت أحتمي تحت ظلك لأخلص من جوره، راضيًا أن أموت شهيد الحب والغرام بدلاً من أن أموت قتيل ملك جائر.

فلما سمع الملك (بهواج) كلام أبي المجد تنهَّد متحسرًا وقال: لا تحزن يا أبا المجد إن كان ملك "بلسان" قد أبدى معك مكروهًا فإني أبدي لك المعروف والجميل وأجود بنفسي لنوال غايتك، لأن إعطاؤك المال ليس بسخاء عظيم، بل إن السخاء العظيم هو الجود بالنفس لأنه قيل "الجود بالنفس أقصى غاية الجود" لكنني لو كنت أتيقن بأن قطع رأسي يُدرك به غاية الوطر لما كنت أتأخر عن ذلك.. غير أنني أخشى إن قُطع رأسي لا يجديك نفعًا.. فتكون قد خسرتني باطلاً ولا يبقى لك مساعدة من بعدي؛ فالأحسن أن أذهب معك إلى ملك "بلسان" ونعرف حقيقة أمرك، فإن تيقنت أنه يزوجك ابنته بمجرد قطع رأسي فلا أتأخر عن ذلك وإلا فالله عدو الباغي.

قال هذا وتأهَّب للسفر وسار في الطريق مع أبي المجد ولمَّا دخلا مدينة "بلسان" أرسل أبو المجد يخبر ملكها بواسطة أحد بطانته بأنه أتى إليه بالملك (بهواج) فيطلب إنجاز ما وعده به.. فقلَّما بلغ الملك ذلك أمر بإحضارهما بين يديه فدخلا عليه وسجدا أمامه، فنظر إليهما وكان جالسًا على سريره.. فإذا الملك وأبو المجد بين يديه فعند ذلك انحدر عن السرير وانطرح على أقدام الملك (بهواج) وأخذ يعتذر له ويطلب الصفح عما بدا منه، وأوضح له بأنه هو وابنته رهينة أمره وطائعين لمشيئته.

وبعد أن اعتذر ملك "بلسان" وتصالح مع ملك (بهواج) أمر بأن يأخذوا أبا المجد إلى الحمام ليستحم، ففعلوا ولما رجعوا به إلى البلاط الملوكي ألبسوه الحُلل الفاخرة وضموا إلى الذهب الذي أتى به أضعافًا جهازًا لابنة الملك، وعقدوا الـ زواج أمـ ـام الملك (بهواج)، وأقاموا زفافًا حافلاً حضره جميع الأمراء ورجال الدولـ ـة وأعيـ ـان المملكة. وبعد ذلك أقام (بهواج) في مدينة "بلسان" أيامًا قليلـ ـة محفوفـًا بـ ـالإكرام والتبجيل، ثم رجع إلى مملكته مودعًا ومشيعًا من أكابر رجال الدولة وتسربت إلـ ـى خزائنه الهدايا الفاخرة من ملك "بلسان" وعُمَّاله. وبقيت هـ ـذه الحكايـ ـة حتـ ـى الآن يتنقلها الخلف عن السلف، وهي من العجائب والمحامد التي تزيَّنَتْ بهـ ـا صـ ـحائف التاريخ.

* * * *

فعند ذلك نظر الببغاء إلى قمر السُكَّر وقال:

انظري يا سيدتي كيف أن أبا المجد نال مأربه بهمَّة هذا الملك العظيم وأمعنـ ـي النظر بذلك.

فقالت قمر السُكَّر:

– إنني قد صرت غاية في المنة لأنك أيها الببغاء قـ ـد جلـ ـوت همـ ـومي بهـ ـذه الحكاية، وصرت بغاية العجب والاندهاش من مروءة الملك (بهواج) وشهامته.. نعم لقد اشتهر عندنا وعند الجميع سخاء الملوك ببذل الأموال ونفائس العطايا.. غير أنه لم يسمع أحدٌ بأن أحدًا منهم جاد بنفسه ليدرك بعاشق لا يعرفه، وهـ ـو دون عبيـ ـده غاية المنى والوطر، فحقًا إن هذا من أعجب الأمور، غير أنني لم أزل مرتابة فـ ـي أن الملك (بهواج) أتى بنفسه إلى ملك "بلسان" أم لا بل أنقذ أبو المجد بمجرد رضائه بقطع رأسه.

فأجابها الببغاء:

إن منشأ اعتراضك هذا فطنة عظيمة لأن هذه الملاحظة تخطر على بـ ـال كـ ـل عاقل لكونه من المستغرب أن يتنازل ملك ذو عظمة وشأن مثل هذه المنازلة، ولكن فلا يعجبنك ذلك لأن كثيرًا ما كان الملك (بهواج) يخاطر بنفسه من أجل العاشـ ـق، وأمثال ذلك كثيرة في الكتب أصحاب القصص، وقد قيل عنه أنه قدم مرة ما حياتـ ـه العزيزة فداء عن الشيخ الذي هام بحب ابنة سلطان الجن لينقذه من الهلاك. فقالـ ـت قمر السُّكَّر:

- فكيف كان ذلك......؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

زعموا أنه كان عند الملك (بهواج) نديمٌ جميل الصورة اسمه (عازم)، وكان سيده يحبه حبًا شديدًا لفرط ذكائه.. غير أنه كان مولعًا بلعب القمار، فصرف فيه أموالاً وافرة كان الملك يتكرم بها عليه، ومع ذلك لم يقطر حب الملك نحوه بل كان تارةً يؤدي عنه دينه، وتارةً يتكرم عليه بمبالغ وافرة، لسد احتياجاته وبقي على هذا المنوال زمنًا طويلاً عائشًا تحت ظل الملك بأتم هناء وأرغد عيش، غير أن ذلك حرّك عليه حفائظ الوزراء والبطانة، فأخذوا من ثمَّ يسعون به ليوغروا صدر الملك عليه فينكبه، وأما هو فلم يزل على عادته السابقة لا يذعن لنصيحة أحد طامعًا بنعمة الملك وبخلابة الدهر ومواعيده، وكما قال الشاعر:

الدهر يفترس الرجال فلا تكن .. ممن تطيش بهم المناصب والرتبُ
كم نعمة زالت بأدنى زلة .. ولكل شيء في تقلبه سببُ

وكان الوشاة لا يبرحون عن الوشاية ب(عازم) ويقولون للملك إنه مسرف مبذر، ومن كان كذلك فهو أخو الشيطان. ومن كان أخو الشيطان فلا يليق به أن يدخل بلاط الملك ولم يفتروا عن السعاية حتى أوغروا صدر الملك عليه فقطع عنه إحسانه، ولم يعد ينظر إليه سوى بعين البغض والاحتقار فصار نعيمه بؤسًا ورفاعته كربًا فحالت حاله، وظهر له إذ ذاك غرور الدنيا وأباطيلها وكما قال الشاعر:

لعمري أحاديث النفوس ظنون .. وما عز من شيء فسوف يهونُ
ومن ظن أن الدهر موفٍ بعهده .. فبشره أن الدهر سوف يخونُ
ولو علم الإنسان ما هو كائنٌ .. لعاش مدى الأيام وهو مصونُ
ولكن قضاء الله سترٌ محجبٌ .. تحار عقولٌ دونه وظنونُ

وقد حاقه من الحزن والكدر ما أوقعه في حيرة عظيمة حتى ملَّ الإقامة في دار الملك، فيومًا ما لزيادة ما حاقه من الكدر خرج من البلاد الملوكي بدون أن يعلم به أحد، وأخذ عياله وأولاده وسار مسافرًا إلى بلاد الناس مجدًا في طلب الرزق صابرًا على بليته إذْ لم ير لدائه دواءً سوى الصبر، لأن "الصبر عند المصائب من أعظم المواهب" ولله در من قال:

تنكر لي دهري ولم يدر أنني صبورٌ وعند الحادثات تهونُ
فبات يريني الخطب كيف انقضاضه وبت أريه الصبر كيف يكونُ

وفي اليوم التالي بينما كان سائرًا في الطريق أفضى إلى مكان وجد فيه جماعة يلعبون بالقمار، فتحركت فيه شهوة الطمع وقال في نفسه: إذا لعبت مع هؤلاء الشبان فأفرج غمّي وربما أربح ربحًا عظيمًا أسد فيه حاجتي.

قال هذا وأخذ يلعب معهم لكنه خسر كل ما كان معه.. واستدان عشرة دنانير فخسرها أيضًا، وحيث لم يرض دائنوه بتأجيله رهن عندهم زوجته، وأخذ حينئذٍ يجدُّ في اكتساب ما يفي دينه ليفك هذا الرهن الثمين. فطاف كثيرًا وقرع أبوابًا كثيرة ولم يحظَ بفائدة، غير أنه لم يضجر من الطلب بل دام عليه لأنه به يدرك المُنى كمًا.

ومع ذلك كله لم يحصل على فائدة، وحيث كان معتادًا على سخاء الملك (بهواج) رأى أن يعود إليه ويشكو له حاله، أملاً بأنه لا يبخل عليه لأنه لم يخب في طلبه سائل.

فسار مسافرًا قاصدًا الملك (بهواج) بينما كان سائرًا في الطريق عطش عطشًا شديدًا، فصار ينظر يُمنة وشمالاً لعله يجد منهلاً يروي ظمأً من مائه، ولم يزل على هذه الحالة حتى انقضى النهار وخيَّم الظلام فنظر بغتة فرأى في كهفٍ ما يشبه البئر، فسار إليه ولما دنا منه رفع طربوشه وربطه بعمته ودلاَّهُ في البئر يتناول فيه ماءً، فاستقام الطربوش في البئر برهة ولم ينزل فيه ماء، فهتف (عازم) حينئذٍ عجبًا

هل بلغ هذا الطربوش إلى الماء أم لا، وللحال أخذ يحيق النظر فيه فرأى في البئر كُرسيًا من ذهب مُرصعًا بالحجارة الكريمة، وجالسة فتاة، ابنة تضيء كالشمس، والبئر مضيئة من نورها، وأمامها شيخ طاعن في السن نحيف المنظر عليه سمة الحزن والكآبة، وبحذائه "خلقين" فيه دهن يغلي على نار موقدة، وكان الشيخ ينظر تارةً إلى الخلقين وتارةً إلى الفتاة ثم يبكي ويتأوه متحسرًا.. فلما نظر (عازم) هذا المنظر تحير واندهش وغاب عن الحواس حتى أنه لم يعد يتحرك، ولم يعد يمكنه أن ينتشل الحبل من البئر.. فالتفتت الفتاة إلى فم البئر فرأت رجلاً مدليًا حبلاً معلقًا به وعاء مجوف فظنته فقيرًا يطلب الإحسان، فنزعت حينئذٍ أحد سواريها من زندها ووضعته في الوعاء، وأما (عازم) فلم يرفع الحبل بل بقيَ باهتًا متحيرًا ناظرًا إلى وجه الفتاة، فظنت أنه لا يرتضي بأحد السوارين بل بكليهما.. فنزعت السوار الآخر من زندها ووضعته في الوعاء.. وأما (عازم) فرجع عقله إليه، وتشجع ورفع الوعاء، فإذا فيه سواران مرصعان بالحجارة الحكريمة لا يوجد عند الملك (بهواج) ما يوازيهما قيمة، فأخذهما فرحًا وفي اليوم التالي وصل إلى مدينته فذهب إلى رئيس الصيَّاغ وعرض عليه السوارين ظنًا أنه يشتريهما، وأما الصائغ فبعد أن أمعن النظر فيها هتف صارخًا: يا عدو الله لقد سرقت هذين السوارين من خزينة الملك بلا ارتياب. فكذَّبه (عازم) بذلك ووبخه.. فوقع بينهما الخصام، وتقاطرت الناس إليهما وصار كلٌّ يتكلم حسب هواه.

وأما الصائغ فذهب في آخر الأمر إلى بلاط الملك، وقدم له عرضًا أوضح فيه أنه عثر على سارق سرق من الخزينة الملوكية جواهر كريمة.. فصدر له أمر الملك بأن يحضر السارق بين يديه.. فذهب حينئذٍ الصائغ ورجع ومعه الرجل المتهم بالسرقة، فلما مثل هذا بين يدي الملك عرفه الملك.. أنه سميره (عازم).. وحينئذٍ نظر الصائغ غاضبًا وقال له:

- كيف اتهمت هذا الرجل بالسرقة حالة كونه سميرنا ونديمنا (عازم) الذي لـ م نره منذ بضعة أيام، فلأي سبب افتريت عليه وعزوت إليه هذا الإثم. وصار يوبخه هكذا ثم طرده من عنده فعاد مخزولاً.

ثم دعا الملك (عازمًا) وسأله عن أحواله وعن السوارين الل ذين مع ـه.. فأخ ذ (عازم) يقص على الملك كل ما كان من أمره أولاً وآخرًا فانذهل الملك م ن ه ذا الأمر وقال له:

- يا (عازم) لقد صدقت كلامك لكوني أعهد فيك الصدق فهل يمكنك إذا ذهب ت معك أن تبلغني إلى البئر التي رأيتها.

فأجابه (عازم) بالإيجاب.. فعند ذلك تأهَّب الملك للمسير.. ولما ظل المساء سار وبمعيته (عازم) حتى أفضيا إلى البئر.. فنظر فيها الملك فرأى كل ما أخبره عن ـه (عازم).. فأخذ يمعن النظر في الفتاة والشيخ الذي بجانبها.. وفي آخر الأمر سألها من هي فأجابته ابنة سلطان:

- الجن وهذا الشيخ قد عشقني منذ صباه .. أي من نحو اثنين وستين عامً ـا.. فترأفت عليه وبت أنتظره من ذاك الحين حتى الآن.. إلا أنني لا أبيح له الوصال ما لم يغتسل في هذا "الخلقين"، لأنني أنا من طائفة الجن وجسمي لطيف.. وأما جس م الإنس فهو غليظ كثيف.. فما دام هذا الرجل على كثافة جسمه فلا أبيح له الوص ال بل يجب عليه أن يغتسل في هذا الدهن لتزول كثافة بدنه فيصبح كالذهب الص افي، فحينئذٍ يصبح في حالة تليق لمواصلتي. وأما هو فهو على جانب عظيم من الخوف لأنه من اثنين وستين سنة جالس أمامي لا يجسر أن يغتسل في هذا الدهن، وأما أنا فلزيادة رأفتي عليه لم يسعني الأمر أن أتركه بل بقيت أنتظره من ذاك الوقت وحتى الآن، فهذه حكايتنا وقصتنا وأما الاغتسال في هذا "الخلقين" فليس بـ أمر عس ير إذْ صار بحضوري لأن من اغتسل فيه لا يذوق قط عذابًا ولا يموت.

فسألها الملك (بهواج) قائلاً: هل إن الذي يغتسل في هذا الدهن يبقى حيًا أو يموت؟

فأجابته الفتاة: كلا أيها الفتى.. فإنه ليس فقط يبقى حيًا بل لا يذوق قط وجعًا. فعند ذلك نظر الملك (بهواج) إلى الشيخ العاشق وقال له:

– هل إذا اغتسل أحد أمامك في هذا الخلقين وخرج منه حيًا لا تغتسل أنت أيضًا؟

فأجابه:

– نعم أغتسل يا سيدي وأكون عبدًا لمن يغتسل أمامي. فعند ذلك انحدر الملك إلى البئر وآثر أن يخاطر بحياته ليفدي هذا العاشق الجبان، فنزع ثيابه ونزل في الخلقين وبقيَ فيه قدر ساعة ثم خرج منه سالمًا. وبالحقيقة زالت الكثافة البشرية من جسمه.. فتعجَّبت الفتاة من شجاعة هذا الملك وغيرته.. فانحدرت عن عرشها وانطرحت على عنقه وأخذت تعانقه وتدعو له بالعمر والتوفيق.. وأباحت له وصالها وطلبت منه الوصال.. فأجابها الملك (بهواج):

– إنني لم أغتسل بهذا الدهن طمعًا لوصالك.. بل رحمة بهذا العاشق ليجسر على الاغتسال فيه حتى لا يعدم وصالك فيموت قتيل الهوى والغرام. وأما أنا فلا أستحلك بل تكونين كابنتي في هذه الدنيا والآخرة.

فلما سمع الشيخ هذا الكلام ورأى ما رأى غطس في "الخلقين"، واستمر فيه ساعة ثم خرج منه وقد زالت عنه الكثافة البشرية.. فانطرح على أقدام الملك (بهواج) وقبلها وشكره على شجاعته ومروءته، وبعد ذلك اتجه إلى معشوقته وضمها إليه وأنشد متهللاً:

أيها البدر الذي يجلو الدجى .. إن روحي في هواك تحترق
أنا من جملة أحرار الهوى .. غير أني في هواك أحترق

وبعد ذلك رجع الملك (بهواج) إلى قصره ومعه (عازم) نديمه فأثنى عليه وأمـ ر بافتكاك زوجته وبتأدية الدَّيْن الذي عليه، وأكرمه بمال وافر ورجع إلى عادته يعامله باللطف والإحسان، وأما (عازم) فتاب بعد ذلك عن لعب القمار وأقلع.. فازداد حب الملك له وعاش زمانًا طويلاً تحت ظل سيده، وبقيت هذه الحكاية حتى الآن يتناقلها الخلف عن السلف، وهي أعظم شاهد لمروءة الملك (بهواج) وشجاعته ومسـ اعدته للعاشق ببذل ماله ونفسه.

فلما سمعت قمر السُّكَّر هذه الحكاية اعترفت بهمة هذا الرجل العظيم وشـ جاعته وترأفه على العاشق وقالت للببغاء:

حقًا إن مروءة هذا الملك لعظيمة جدًا، لأننا لم نسمع قط أن أحدًا بذل ماله ونفسه لمساعدة العاشق في نوال مرغوبه. فقال الببغاء:

– يا سيدتي إنني كثيرًا ما أماثل هذا الملك لأنني أود أن أوصلك إلى حبيبك ولو اقتضى لذلك بذل حياتي وأما الآن فأقتصر على ما تكلمت به، وسوف يظهر صدق ودادي فقومي لساعتك، واذهبي إلى حبيبك لأنه كفاك مطلاً وانتظارًا.

وقامت قمر السُّكَّر لساعتها فرحة لكنها لما فتحت الباب قـ د أصـ بح الصـ باح وأضاء بنوره ولاح، فرجعت إلى حجرتها خائبة وأجلت مواصلة الأمير إلى الليلـ ـة التالية.. فقضت ذلك النهار تارةً نائمة، وتارةً متذكرة حبيبها وتنشد هذه الأبيات:

جسمي معي غير أن الـ روح عنـ دكم   فالجسم في غربة والروح في وطـ نِ
فليعجب النـ ـاس منـ ـي أن لـ ـي بـ دنًا   بـ ـلا روح ولا روح بـ ـلا بـ ـدنِ

ولما ظل المساء تطيبت وتبرقشت وتوشحت بالملابس الفاخرة، ولما خيم الظلام أتت قفص الببغاء واستأذنته في الذهاب إلى حبيبها.. وأما الببغاء فلما رأى زيـ ـادة عشقها وغرامها لزم السكوت وأطرق.. فكررت قمر السُّكَّر عليه السؤال فلم يجبها قط بكلمة.. عند ذلك قالت له:

هل تكدرت عليَّ أيها الببغاء فبماذا أسأت إليك:

فأجابها الببغاء:

– ما الموجب للكدر يا سيدتي وأنت مجبولة على الرق واللطافة.. ولـ م يـ رزق أحد ما رُزقت من البهاء الفائق.. أنا لست متكدرًا بل غائمًا في بحر الافتكار لأرى ما يكون من عاقبة أمرك.

فقالت له قمر السُّكَّر:

– إن كنت تفتكر بأحوالي.. فلماذا لا تساعدني بذ وال مرغ وبي ولأي سـ ببب أحرمتني مساعدة صديقي وأشغلتني زمنًا طويلاً.

فأجابها الببغاء:

– وهل توجد صداقة أعظم من صداقتي، فإني أسهر الليـ الي برمتهـ ا متفكـ رًا بأحوالك وعيناي لم تذق قط لذة الوسن، إلا أن صداقتي الآن وإن تكن عظيمة فـ لا تدرك لكون الهوى خُتم على قلبك وصدق الصديق لا يظهر في الحال، غيـ ر أنـ ك ستعلمين فيما بعد عظم محبتي لك كما ظهرت محبة تلك الببغاء المسكينة لـ . "شـ اه قباد" الذي كان قد ظن فيها الخيانة وأراد إهلاكها. فسألته قمر السُّكَّر:

– وما هذه الحكاية ....؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في نواحي دمشق الشام صياد فقير وكانت حرفته اصطياد طيور الببغاء، فيومًا ما بينما كان ناصبًا شركه وقعت فيه ببغاء حكمية عارفة بما وجل من العلوم والمعارف، وكانت على جانب عظيم من الفطنة والدراية فأخذها الصياد وأتى بها السوق ليبيعها.. وأما الببغاء فمع ما كانت عليه من الحزن والاضطراب كانت كلما نظرت أحدًا تحييه بالسلام وتخاطبه بكلام يدل على بلاغتها وحذقها، ولذلك ازدادت رغبة الناس فيها.. فكثر الذين كانوا يطلبون شراءها فصار الصياد من ثم يطلب ثمنًا مفرطًا... فبلغ خبر الببغاء مسامع مَلك دمشق وكان يدعي (شاه قباد) فرغب فيها رغبة شديدة قبل أن يراها، ومن ثم أمر أحد غلمانه أن يشتريها من الصياد بأي ثمن أراد، فامتثل هذا لأمر الملك واشترى الببغاء وأتى بها البلاط الملوكي فأمر الملك أن توضع في قفص جميل وأن يُعلق القفص أمامه.. ولما وجدها على جانب عظيم من الفطنة والدراية رفع مقامها وصار يستشيرها في أموره استنادًا على ما قيل: لا تنظر إلى من قال بل انظر إلى ما قال.. وعليه لم يكن يفتكر بأن هذه الببغاء حيوان جاهل لا يفهم شيئًا بل كان يسمع نصائحها ومشوراتها ويسيرها بمعيار الحكمة والامتحان.

فمضت على هذا المنوال أيامًا وشهورًا وأعوامًا. و الببغاء بأرغد عيش وأتم هناء. فيومًا بينما كانت تتفاكه معه بالحديث حسب عادتهما القديمة قصت عليه حكاية مستظرفة فانسر الملك من ذلك وقال لها:

– هلا لا تبغي أيتها الببغاء مني نعمة، فاطلبي ما تريدين ولو كان نصف مُلكي فيعطَى لك. فأجابت الببغاء:

– يا سيدي إن غاية منيتي أن يحفظك الله زمانًا طويلاً ويقر عينك محبة دائمة.

وأرادت الببغاء أن تكافيء ملكها على حسن ضيافته لها وكانت تعرف بستاناً في المدينة به شجرة نادرة الوجود، ويقال إنها شجرة الحياة من أكل من ثمارها يعود إليه شبابه ويضحي في ربيع عمره، فطلبت من أحد أولادها إحضار ثمرة من هذه الشجرة لإهدائها إلى الملك فانصاع الابن إلى هذا الطلب، وطار إلى البستان وأحضر ثمرة الحياة والخلود.

ومرت أيام قليلة وعادت الببغاء إلى الملك وقدمت له الثمرة فقال:

– يجب زيادة في الحيطة أيتها الببغاء العزيزة أن أرى مفعول هذه الثمرة أولاً في غيري، ثم بعد ذلك أجربها في نفسي وليكن ما يريده الله.

ومن ثم استحضروا واحدًا من المساجين فأكل الثمرة فمات.

ولما شاهد الملك والحراس ما حدث للسجين حتى انقضوا مرة واحدة على الببغاء يريدون الفتك بها وهم يكيلون له الضرب المبرح والعقاب والتأنيب قائلين:

– أيتها الببغاء اللعينة.. أهذا جزاءً اليد التي تقدّمت إليك بالإحسان.. بماذا فعل بك الملك حتى تريدين قتله.. لقد قصدت إعدامنا نحن الذين قد آتيناك فضلاً جزيلاً.. فلماذا تعمدت قتلنا وإلحاق الضرر بالرعية المودعة في يدنا من الله تعالى.. فكيف تجاسرت أن تقْدِمي على ارتكاب إثم فظيع كهذا يوجب إعدامك؟ فلما سمعت الببغاء هذا الكلام ارتعدت فرائصها خوفًا فنظرت إلى الملك مرتعبة وقالت: أطال الله بقاءك. وأبعد عنك كوارث الدهر، إنني والله لقد قطفت هذه الثمرة من شجرة الحياة، وقد أخذني الآن غاية العجب كيف أنها كانت سببًا للموت لا للخلود، فهذا لا يخلو من سر عجيب، ولهذا أرجوك ألا تعجّل بقتلي لأنك قادر عليه آجلاً كان أم عاجلاً، وإن شئت فلتذهب إلى البستان لتفحص مدققًا عن هذا الأمر وتقطف ثمرة ثانية وتطعمها لرجل آخر، فربما يظهر المكنون وتتضح براءتي.. فاستصوب الملك ووزراؤه هذا الكلام وساروا إلى البستان، فلما وصلوا إليه نظروا يمنة وشمالاً فرأوا ثعبانًا كبيرًا راقدًا تحت الشجرة وهو يضاهي التنين بكبره.. فلما رأى

الثعبان هذا الجم الغفير فتح فاه وأخذ ينفث سُمًا قاتلاً حتى كاد سـ مه يصـ ل إلـ ى أطراف البستان.. فلما نظروا ذلك ارتعدت فرائصهم خوفًا، فدعا المـ ك البسـ تاني فقال:

– يا سيدي إنني لم أقطف الثمرة من الشجرة بل وجدتها ساقطة علـ ى الأرض، فعند ذلك اندرأت الشبهة من قلب الملك لأنه تيقن بأن الثعبان نفس في الثمرة سُـ مًا قاتلاً، فأمر بإحضار شيخ مُسن وقطف ثمرة وأطعمه إياها فلم يتم الشـ يخ مضـ غها حتى اسودَّ شيبُه وتلألأ وجهُه كأنه شاب بسن الرابعة عشرة، فعند ذلك تيقن الجميع أن الثمرة الأولى أماتت الشيخ لما كان فيها من سم الثعبان.. وتيقنوا من ثم ببـ راءة الببغاء المسكينة حيث كانت وقتئذٍ أثمار الشجرة قد نضجت.. أكل الملك منها وأطعم أولاده وسائر الوزراء وأهل حاشيته فتجدد شبابهم، وأخذ الملك يمدح الببغاء لأمانتها وأجذل لها العطاء تعويضًا عما لحقها من الإهانة.

فاعلمي الآن يا قمر السُكَّر أنه استترت صداقتي الآن فسوف تظهر علنًـ ا كمـ ا ظهرت صداقة هذه الببغاء ومن كون قصر الوقت لا يسمح لي بإطالة الحديث فـ ي هذا الصدد فقومي الآن واذهبي إلى حبيبك وتمتعي بوصاله.

فقامت قمر السُكَّر لكنها لما فتحت الباب رأت قد طلعت الشمس، فتنور وجههـ ا من نورها كما تنور وجه الببغاء الحكيمة و(شاه قياد) فتنفست الصعداء، ورجعـ ت إلى حجرتها باكية نائحة منتظرة بفروغ الصبر انقضاء ذلك النهار... وكانت تنشد:

لا تخـ ش سـ لواني هـ واك فـ إنني .. عـ ن رتبـ ـة العشـ اق لا أتزحـ زحُ
باب المُسـ لي عـ ن جمالـ ك مغلـ قٌ .. حكـ ـم الغـ ـرام بأذ ـه لا يفـ ـتحُ

ولما ظل الظلام تعصبت وتبرقشت وأتت قفص الببغاء وأنشدت:

يا لائمي في حـ ب مَـ نْ مِـ نْ أجلـ ه .. قد غزني وجـ دي وعـ ز عزائـ ي
هل لا نهاك عـ ن لـ وم أمـ رء .. لـ ـم يُلـ ـف قـ ـط معهـ ـا بشـ ـقاء
لـ و تـ درِ فـ يمَ عُزلتـ ي لعـ ذرتني .. خفِّـ ـض علـ ـيَّ وخلِّـ ـي وبلائـ ـي

آه وا أسفاه.. ما أعظم شقاوتي وما أنكد حظي.. فبالله أيها الببغاء ترأف لحـ ـالي ولا تمنعني من الذهاب إلى حبيبي لأن الهوى أضنَى جسدي، وقد أشـ رفت علـ ى الموت، لأنني لم أعتد على أهوال العشق، لأن هذا أول من ابتليت بحبه وما هويت قط غيره.

فما راقني مـ ن لاقنـ ي بعـ د بعـ ده ·· ولا شاقني مـ ن سـ اقني لوصـ اله
ولا لاحـ لـ ـي مزيـ ـد ذ ـد لفضـ ـله ·· ولا ذو خـ ـلال حـ ـاز مثـ ل خلالـ ـه

وإني أخشى أن يقف أحد على أسراري وأعود بعد العناء مفضوحة بين النساء، فيشمت بي الناس وأصادف شر عاقبة.

فقال الببغاء:

- مهلاً لا تخشي من هذا القبيل شيئًا، لأنه ما من أحد يعرف ما انطـ ـوى عليـ ـه أمرك سوى عبدك هذا، والسر عندي محفوظ في طي الخفايا.. وأما أنت فإيـ ـاك أن تبوحي بسرك لكائن لأن من كتم سره بلغ مراده وقد قال الشاعر:

تفرد بحفـ ظ السـ ر وحـ دك لا تقـ ل .. إلى أحد فيه ولـ و كـ ان مـ ن كانـ ـا
فإنـ ـك إن أودعـ ـت سـ ـرك عـ ـاقلاً .. يـ زُل وإن أودعتـ ـه جـ ـاهلاً خانـ ـا

وما عدا كتم السر تذكري أيضًا ما قلته لك سابقًا ومتى قابلت حبيبك أبـ ـدي لـ ـه الملاطفة.. وأما أسرارك فحذار من أن تطلعيه عليها حتى لا تعودين نادمة كما ندم ابن الوزير لما أودع زوجته أسراره..

فسألته قمر السُّكَّر:

وما هي حكاية ابن الوزير؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في إحدى مدن العراق تاجر ذو غِنى وافر اسمه (حسام) وكانت عادته أن يسافر إلى بلاد الناس لاستجلاب الأمتعة والبضائع.. فيومًا ما سافر إلى الهند وأخذ يطوف في المدن الشهيرة ويشتري من العروض كل ما يروق له، ولما عزم على الرجوع إلا بلاده قال لأصحابه:

- نعم إنني قد أخذت من كل البضائع أحسنها.. إلا أنني أرغب شيئًا لا يوجد عند أحد غيري ويعز مثاله في كل مكان.. فأخبره أصحابه أنه يوجد في المدينة التي كان فيها وقتئذٍ رجل بارع في العلوم الرياضية والفلسفة ومعرفة الكائنات وأنه قد ابتدع شيئًا غريبًا، وهو أنه يصنع من الخشب طائرًا لا يتميز قط من الببغاء الطبيعي، ويضع فيه آلة تجعله يتحرك ويتكلم وأشار عليه أصحابه أن يستصنع عنده طائرًا على هذه الصورة.

فاستحسن حسام رأيه وفي الحال ذهب إلى الرجل المشار إليه وأعطاه مالاً وافرًا حتى يصنع له طائرًا على الصورة المارُّ ذكرها.. فلبَّى طلبه وشرع في العمل.. فلم تمض أيام قليلة حتى فرغ وأتى به غاية الإتقان.. فأعجبت هذه الببغاء حُسامًا فأخذها وتأهَّب للسفر، وفي اليوم التالي سار راجعًا إلى بلدته فوصل إليها بالسلامة.

هذا وكان في تلك المدينة ابن وزير مُبتلَى بحب النساء، وبينما كان ذات مرة مارًا في الطريق كان بالقضاء والقدر أن رأى امرأة حسام وفي الحال وقع الهيام في قلب كل منهما.. وتعاشقا منذ تلك الساعة وصار ابن الوزير في الفرص المناسبة يذهب لمغازلة زوجة حسام ومباغاتها، ومضى على هذا المنوال أيام كثيرة وحسام لا يدري بذلك.. وأما ابن الوزير فكان يحسن إلى حسام ويعامله باللطف والإحسان إكرامًا لخاطر زوجته، وكان في أغلب الأوقات يدعوه إلى الصفاء والانشراح.

فيومًا ما صنع ابن الوزير وليمة دعا إليها جميع أصحابه وكان حسام من جُملة المدعوِّين فجلسوا يتفاكهون بالحديث ويتحدثون عن الكسب والتجارة، فنظر أحد الأعيان إلى حسام وقال له:

– إنك قد سافرت إلى بلدان كثيرة وشاهدت عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات فقص علينا ما رأيته في سفرياتك المشهورة.. فأخذ حسام يقص عليهم ما يقر الخاطر ويبهج السامع.. وبعد ذلك شرع يخبرهم عن الببغاء الناطقة وبحسن مسامرتها وعن فصاحتها، فتعجَّب الحاضرون عن ذلك، وأخذتهم الحيرة والاندهاش..

ولما تفرق المجلس أرسل ابن الوزير ينهي إلى معشوقته زوجة حسام بأن ترسل له الببغاء الهندية في قفصها.. فامتثلت المرأة لأمره وأرسلت له الببغاء مع رسوله، وفي الحال استحضر ابن الوزير صانعًا ماهرًا في صناعة النحت وأمره بأن يصنع له من الخشب طائرًا على هيئة الببغاء الهندية، فامتثل الصانع لأمره وصنع كما أمره به.. وبعد ذلك أبقى ابن الوزير الببغاء الناطقة عنده، وبعث الأخرى إلى معشوقته في قفص تلك، وأنهى إليها بأن مراده بهذه الحيلة أن يستخلصها من زوجها لتكون حليلةً له.. وأوصاها بأن تكتم هذا السر على كل كائنٍ من كان. ثم وضع الببغاء الناطقة في قفص ثمين وكان في غالب الأوقات يتحدث معها فيطربه حديثها وتدهشه فصاحتها، فتيقن حينئذٍ أن كلام حسام ومدحه لهذه الببغاء لم يكن فيه مبالغة.

وكان لابن الوزير زوجة بديعة المنظر حميدة الخصال فأطلعها على سره، وأخبرها عن مرامه وأوصاها بأن لا تبوح به لأحد.. وأما هي فبحسب طبع النساء لم تكتم سر زوجها وقد قيل "كل سر جاوز الاثنين شاع" بل أطلعت عليه رجلاً يُدعى (أبو العبَّاد) وكانت قد عشقته منذ زمن طويل ولم يكن أحد عارفًا بأحوالها، ولم تُقبل على عشق هذا الرجل إلا لنشوز بعلها عليها، لأنه كان قد جفاها، وكما أن زوجها كان يتعدَّى على غيره كانت هي تأتي المنكر جزاءً له.

فيومًا ما صنع ابن الوزير وليمة ودعا إليها حسامًا وسائر أصحابه، ولما جلسوا يتفاكهون بالحديث عرضوا بذكر الببغاء الناطقة، فشرع حينئذٍ حسام يطنب في مدحه، فعارضه ابن الوزير وكذَّبه ووبَّخه فغضب حسام لذلك، وحلف يمينًا مغلَّظًا على صدق ما قاله فكذَّبه أيضًا ابن الوزير وقال له:

– إذا كان ما تقوله صحيحًا فإني أعطيك سائر ما أملك وإني أطلق زوجتي لتصير حليلة لك.. فارتضى حسام بذلك وأقسم كل منهما يمينًا مغلَّظًا بأن يقوم بتعهده وأشهد الحاضرين على ذلك ثم تفرَّق المجلس وذهب كلٌ إلى محله.

فذهب حسام إلى بيته وأتى الببغاء يخبرها عما جرى بينه وبين ابن الوزير فوجدها جسمًا بلا روح ولا لسان، فأخذته الحيرة حتى كاد يطير عقله من الاندهاش، وشرع يبكي وينوح ويقول: تبًا لذلك الرجل الذي صنع هذه الببغاء لأنه جعلها تتكلم لوقت معين فانقضت مدتها وعادت جمادًا. وصار يبكي ويتأسف على ما هو عليه وعلى ما سيخسره فضلاً عن العار الذي سيلحقه.

وبينما كان على هذه الحالة دخلت عليه والدته وإذا وجدته في هذه الحالة سألته عن سبب حزنه وبكائه فقص عليها السبب مفصلاً، فرقَّت له وأخذت تفكر في حيلة لإنقاذه من هذه الحالة الشقية... وبعد أن تضرعت إلى الله قالت له:

– اعلم يا بني أنه يوجد في هذه المدينة زاهد بار اسمه أبو العباد فهو تسلية كل محزون، لأن تضرعه يشفي من سائر العلل، وبدعائه قد تباركت نفسي ونال كل ذي غاية وطره، فالرأي عندي أن نذهب إليه ونخبره بأحوالنا ونترجاه أن يتضرع لأجلنا فلربما يأتينا تضرعه رحمة من الله فتعود هذه الببغاء تتكلم. فاستحسن حسام كلام والدته وذهب بمعيتها إلى أبي العباد ومعهما الببغاء المنحوتة من الخشب.. فلما وصل إليه قبَّل يديه وأخبراه بما حصل لهما.. وأما أبو العباد فكان عارفًا حقيقة أمر هذا الببغاء لأنه اطلع على أسرار ابن الوزير من زوجته التي عشقته، ولذلك التفت إلى حسام وقال له:

– اطمئن بالله ولا تخف لأنك بواسطة تدبير ستفوز على خصمك وتوقعه في الحفرة التي حفرها لك، ولكني أشترط عليك أن تعطيني زوجته فأجابه حسام بالإيجاب.. فحينئذٍ أخذ أبو العباد الببغاء وأبقاه عنده ورجع حسام إلى بيته.. وبعد أن توارى حسام عن نظر أبي العباد أرسل هذا رسولاً إلى زوجة ابن الوزير، وكتب إليها واقع الحال الذي جرى وأرسل له الببغاء لتضعها في بيت زوجها وترسل له الببغاء التي عندها.. وأنهى إليها أنه بواسطة هذه الحيلة تتخلص من جور زوجها وتكون من نصيبه.. فلما وصل الكتاب إلى زوجة الوزير فعلت كما أشار لها أبو العباد، وأرسلت له الببغاء الناطقة ووضعت مكانها الببغاء الجامدة.. ولما رجع إلى أبي العباد رسولاً حاملاً هذه البُشرى السعيدة كاد يطير من فرحه، وفي اليوم التالي دعا حسام وأراه الببغاء وقال له:

ها هو ذا عادت الببغاء تتكلم بواسطة دعائي وتضرُّعي إلى الله، فخذها الآن وأسرع إلى مخاصمة ابن الوزير، ولكن تذكر ما تعهدت به. فأخذ حسام الببغاء وقام بطلب فصل الدعوى بينه وبين ابن الوزير.. فتحاكم معه عند أفاضل الفقهاء فحكموا على ابن الوزير أن يعطي أملاكه وزوجته وكل ما يملك إلى حسام إتمامًا للشرط الذي اشترطه على نفسه، واستنادًا على ما قيل: "ثلاث هزلهن جد وجدهن جد.." وأما حسام فلم يأخذ من الأموال شيئًا وأيضًا الأملاك بل تركها لابن الوزير وأخذ زوجته فقط، ووهبها لأبي العباد الذي تزوجها بعد انقضاء عدتها...، فوقع ابن الوزير بالحفرة التي حفرها لحسام وأضحى سخرية عند أهله وأصحابه.

ومن يحتفر بئرًا ليوقع غيره .. سيوقَع يومًا بالذي هو حافرُ
قضى الله أن البغي يصرع أهله .. وأن على الباغي تدور الدوائرُ

فالآن يا قمر السُّكَّر إنه ينتج من هذه الحكاية فائدة عظيمة، لأن ابن الوزير بإظهار سره لزوجته حلَّت عليه النكبة، فتيقظي إذن وإياك أن تُظهري سرك لأحد فتعودي خاسرة ومن كون كلامي قد أثر فيك فاذهبي إلى حبيبك لا أريد أن أحرمك

من لذة اللقاء بينك وبينه. ولما همَّت قمر السُكَّر بالخروج وجـ دت أن الظـ ـلام قـ د أرخى سدائله فعادت إلى فراشها حزينة كعادتها.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى الببغاء فراح يقص عليها هذه الحكاية.........

* * * *

حكاية

قال الوزير:

إنه كان في ميناء إحدى الجزائر سفينة كبيرة خالية من الناس، لأنها لما دنت من الشاطيء قذفتها الرياح على الصخور فانقلبت وغرق كل من فيها.. ولم يبق فيها سوى شاة نجت من الغرق، وكانت هذه الشاة تنحدر في النهار إلى البر وترعى في الجزيرة.. وعند المساء كانت ترجع إلى السفينة وتبيت فيها، وكان بالقضاء والقدر أنه كان في تلك الجزير اسد ضار.. فيومًا ما اصطاد هذا الأسد صيدًا عظيمًا فأكله هو وأعوانه، ولما شبعوا أخذ يتمشَّى معجبًا بنفسه حتى وصل إلى شاطيء البحر.. ولما رأى السفينة صعد إليها وأخذ يفتش فيها لعلَّه يجد صيدًا فوقع نظره على الشاة التي خافت خوفًا شديدًا حيث لم يكن وقتئذٍ جائعًا لم يفترسها، بل أعطاها الأمان وطيب خاطرها، ومنذ ذلك الحين اتخذ السفينة مقرًا له، وكانت الشاة تحضر أمامه كل يوم بدون استئذان لأنها أخذت الدالَّة عليه، لمَّا أظهر لها من اللطف والأمان.

فيومًا ما ذهب الأسد وأعوانه إلى الصيد وبقيَ من طلوع الشمس حتى غروبها جائلاً في البراري ولم يجد صيدًا.. فاشتد عليه الجوع ولم يجدوا لذلك حيلة، فاتفق أعوانه سرًا على افتراس الشاة، ثم أتوا الأسد وأخبروه بذلك.. فأجابهم قائلاً:

– إنني أرضَى بأن أموت جوعًا ولا أرضى بنقص العهد الذي عاهدته لهذه الشاة.. لأن ذلك مما يشين بأصحاب المقامات.. فأجابه أعوانه:

– إن كلامك حق ومراعاة العهود واجبة غير أن نجاتك من الموت أشد وجوبًا ولا جناح عليك إذا فديت حيويتك بموت أحد رعاياك، فانقاد الأسد لقولهم وصمَّم على افتراس الشاة، ولكن حيث إنها كانت بريئة فلم يشأ قتلها بدون أن يُعزَى إليها

إثمّ.. فاتفق في تلك الساعة أن دخلت عليه الشاة ووقفت بين يديه.. فنظر إليها الأسد غاضبًا وقال لها:

– يا قليلة الأدب.. كيف تتجاسرين أن تدوسي بساطي الملوكي، فقد عبرت الآن موطأ قدمي وتفاقمت بذلك رذيلتك . فأجابته الشاة:

– يا سيدي إن في كلامك هذا عجب لأنه أين الغبار ونحن في وسط البحر. فلما سمع الثعلب الذي كان واقفًا بجانب الأسد جوابها، أخذ هذا يوبِّخها ويحرك حف ائظ الأسد عليها وقال لها:

– أيتها الملعونة إن اعتذارك هذا أقبح من ذنب، لأنه يماثـ ل اعتـ ذار السـ ائس الخائن لمولاه.. فسأله الأسد وما هي حكايته.....؟.

* * * *

حكاية

قال الثعلب:

إن رجلاً غنيًا كانت له امرأة جميلة المنظر وكانت قد هوت السائس الذي كان عند زوجها.. فاعتادت أن تأتي ليلاً وتجلس على الدرج فتبعه السائس الذي كان وقتئذٍ في الأسطبل، ولما دناه منه قرصه في فخذه ظنًا أنه سيدتُهُ المعهودة.. لكنه لما لمسه اشتبه فيه لكثافة بدنه ولطافة بدن زوجته، ولذلك أخذ يتفرس فيه فإذا هو سيدُهُ.. فعند ذلك انطرح على أقدامه، وأخذ يعتذر له قائلاً إنه قد ظنه سيدتُهُ.. فكان اعتذاره هذا أقبح من ذنبه.. فاستوجب من سيده جزاءً صارمًا. فاعتذار هذه الشاة ليس بأقل قباحة من اعتذار السائس، فلا جُرم أنها تستحق القتل، ولا ينافي ذلك ما عهدتها به لأنك لم تعطها الأمان إلا باشتراط الأمانة منها وقد نبذتها.. فلما سمع الأسد كلامه غضب على الشاة فوثب عليها وفسخها شطرين وافترسها هو وأعوانه.

* * * *

فعند ذلك نظر (هوشمنت) الوزير إلى أولاده وقال لهم: -- إن حكايتي تشابه حكاية هذه الشاة.. لأن الملك لما لم يجد سبيلاً لقتلي جعل دعوة البحر وسيلة لذلك. فأجابه بأن الملوك في غالب الأوقات يعفون عن عبيدهم بعد أن يكونوا قد غضبوا عليهم لأن طبعهم يميل إلى الحلم والرأفة إذ أنهما يوطدون أركان دولتهم وعلى كل حال ينبغي الحذر من مخالفتهم، ولو أُمروا بما لا يستطاع، ولذلك يجب على المأمور أن يبذل جهده في طاعة مولاه حتى يتيسر له من ذلك ما يوجب الاعتذار إذا عجز عن إنقاذ أمره، لأنه يجب على الإنسان أن يسعى، وإن لم يصادف نجاحًا حيث قد قيل "عليك السعي وليس عليك النجاح" وقال الشاعر:

على المرء أن يسعى بما فيه نفعه .. وليس عليه أن تتم المطالبُ

فلا يوافقك إذن أن تخالف أمر الملك (بهواج) وإن كانت لا تُستطاع طاعته لأنك إذا اجتهدت في طاعة أمره ولم توفقك الأقدار عليه فيكون لك حجة للاعتذار فقم بنا لنذهب إذن إلى البحر، وهناك نجثو ساجدين لله ونستمد من رحمته الأيدي والمعونة فلا ريب فيه أن يأتينا بالفرج لأنه على كل شيء قدير.

فلما سمع (هوشمنت) كلام أولاده هذا طاب له ووقع لديه موقع القبول فقام لساعته وتهيأ للسفر، فأخذ أولاده معه وسار مسافرًا متكلاً على رحمة الله تعالى وعنايته، وبعد يومين بلغ شاطيء البحر، وفي اليوم الثالث غلب عليه النعاس لشدة ما قاسى من العناء والتعب فنام، ولما استغرق في لُجة النوم رأى في الحلم روحًا من الجنة هبطت إليه من مقر السعادة وهي تضيء كالشمس وقالت له:

– يا (هوشمنت) الوزير .. إن الله قد استجاب دعاءك وأتاك رحمة واسعة وظلّلك بقوته العليَّة.. فاطمئن بالاً ولا تخف، لأن الملك (بهواج) لم يكلفك دعوة البحر حتى تحضره بين يديه.. بل قصد بذلك أن نأتيه بهدايا البحر النفيسة الموجودة تحت الغمر.. فهذه أربع هدايا من قبل الله تعالى أرسلها إليك من كرمه وجوده وهي حصان وثلاث صناديق.. في أولها جواهر كريمة وفي الثاني ملابس فاخرة وفي الثالث ذهب صافي العيار فخُذ ذلك إلى الملك (بهواج) وبلغه تحياتي واعلم أنَّ هذه الهدايا لا نظير لها في الدنيا كلها ولكرم الملك (بهواج) وخصاله الحميدة قد أتحفته بها، وأنا الذي أتيتَ لتدعوه إلى زفاف ابن الملك.. قال هذا وتوارى عنه.. ففي الحال فتح الوزير عينيه فوجد الأربع هدايا بين يديه وقام لساعته، وجثا على ركبتيه وحمد الله تعالى على هذه النعمة الجزيلة، ثم قام راجعًا إلى العاصمة راكبًا جناحي النعامة ولما وصل إليها مَثُلَ بين يدي الملك وأخبر مفصّلاً بما جرى له من أوله إلى آخره، وقدم له الهدايا النفيسة التي أتى بها من قبل البحر وبلّغه سلامه، وقص عليه ما كان عليه من أمره وأمر أولاده وعن الحديث الذي دار بينهم.

فلما سمع الملك كلامه هذا انحط جدًا وتفاقم شروده وكاد يطير من الفرح، فشكر الوزير على أمانته وشهامته ونشاطه في الإقدام على صعاب الأمور.. وقال له:

إنني لم أقصد بهذا الأمر إلا التجربة والامتحان فالله قد ترأف عليك، وأتاك حظًا وافرًا، ووطَّد حبك في قلبي فأنت الآن أعز أصحابي وعليك أعتمد وبك أثق.. وقد صارت رتبتك عندي رفيعة، وصرت موضوع سري وسروري، وأما هذه الأربع هدايا فلك منها واحدة تختارها.

فأجابه الوزير:

– يا مولاي إنني ألتمس من مراحم عظمتك أن تمهلني حتى أستشير أولادي.

فأمهله الملك وأمره بأن يحضر أولاده بين يديه فحضروا، ولما سُئلوا عن رأيهم بهذا الخصوص قام الولد الأكبر وقال لأبيه:

– يا أبتاه.. إن الذهب غزير واسمه مطرب وهو مرغوب من كل الأمم في كل مكان وبه تشتري الملابس الثمينة والجواهر الفاخرة والخيول العظيمة وقد جاد الشاعر بمدحه حيث قال:

وقائلة ما الجوَّاد قلت لهما الغنِيّ .. وما الدين والدنيا فقلت الدراهمُ

وأما الحصان فما هو إلا ذو روح، فإن مات فُقِدَ من اليد ومثله اللباس إنه يبلَى، والجواهر فإنها تضيع، وأما الذهب فلا يعتق ولا يضيع،. ثم قام الولد الثاني وقال له:

– يا أبتاه.. إن الأجدر بك أن تأخذ الجواهر، لأنك وزير ملك عظيم، وما دمت تحت ظل جناحه فلا تحتاج إلى الذهب وكل قطعة من هذه الجواهر تساوي الذهب كله، لأنه لا يوجد مثله في خزائن الملوك.

ثم قام الولد الثالث وقال:

– يا أبتاه.. إن أخذ الحصان هو الرأي السديد، لأنه وعليه تقاتل الرجال في منازل الأبطال، فيخوض المنايا ويحرك في قلب صاحبه الشجاعة والحماسة ويحفظ العروض ويكابد المشقة عن صاحبه وينقذه من الأخطار، ويفديه بحياته وقصارى الكلام أنه من آلات الجهاد وفوائده جمَّة لا تُحصَى.

ثم قام الولد الرابع وقال:

– يا أبتاه.. إن الحصان وآلات الجهاد وجمع المال واقتناء الجواهر مختص بالجنود وأصحاب الطمع، وبالنساء والشبان الذين يرغبون في الزينة ولا يفرح بذلك إلا كل متغفل.. وأما العاقل فلا يرغب فيها عن الخُلَع الثمينة الفاخرة، فالأجدر بالوزراء القائمين بخدمة الملوك أن يقتنوا الخُلَع الفاخرة حتى يلبسوها بحضرة مواليهم، فهذا ما يليق بك قبل كل شيء.

فلما سمع الملك (بهواج) هذا الكلام من هؤلاء الغلمان تيقن من اختلاف آرائهم وفطنتهم وحكمتهم، وحسنت لديه معارفهم وقال:

– حقًا إن هؤلاء الأولاد مع صغر سنهم قد فاقوا جميع العقلاء والحكماء بعقلهم وحكمتهم، لذلك أرى أن كُلاًّ منهم يستحق أن يُعطَى له ما رغب فيه من هذه الهدايا. قال هذا وفي الحال أمر بأن يعطي للولد الأكبر صندوق المال، والثاني صندوق الجواهر، وللثالث الحصان، وللرابع الخُلَع الثمينة، وقلَّدهم في بلاطه المناصب العالية، ورفع منزلة أبيهم وقرَّبهم إليه جميعًا، وبالحقيقة إنهم لم يبلغوا هذه السعادة إلا بالعقل والمشورة، فلا شك إذن في أن العقل أغلى ما يتنافس به وقد قيل:

"العلم نعمةُ السمير والعقل بشير بالخير يشير".. وقال الشاعر:

العقل أحسن مهرعٍ فاهرع إلى .. أبوابه العليا تنل كل العُلا
واعلمْ بأنَّ الشيء يرخص كثْرةً .. والعقل إن كثرت حواصله غَلا

فالآن يا سيدتي قد قصصت عليك هذه الحكاية ليتضح لك عظَم المنفعة الناتجة عن المشورة حتى لا تكتمي على من كان مثلي حكيمًا فهيمًا شيئًا من أمورك، فكلما حدث لك أمر لا تدعي من أن تستشيريني به لتتوصلي بواسطة نصائحي إلى درجة الكمال وتدركي غاية المُنى ولكن على العهد الأكيد بأنني لا أتهامل أبدًا في بذل المقتضَى ولا أبوح قط بسرك بل أدفنه في ضميري إلى الأبد ويصح بي ما قاله الشاعر:

السرُّ عنـ ـدي فـ ـي بيـ ـتٍ لـ ـه غلـ ـقٌ .. ضـاعت مفاتيحُـ ـه والبـ ـاب مختـ ـومُ

فالآن ناشدتك الله أن لا عدت تماطلين بل قومي لساعتك واذهبي إلى حبيبك الذي أفنى عمره بانتظارك. ففرحت قمر السُّكَّر وقامت لساعتها لتذهب إلى حبيبها، فرأت أنه قد أصبح الصباح وشعاع الشمس قد لاح، فنور الكون كما تنور وجه (هوشمن) الوزير فحال ذلك بينها وبين مرامها، وأوقفت موصلة خلَّها إلـ ـى الليلـ ـة التاليـ ـة، وقضت ذلك النهار متقلبة على نار الهوى ولشدة ما كابدته من الشوق كاد قلبها يمل من الهوى، لما استحوذ عليه من (إلياس) تقطيعًا، وبقيت كل ذلك من النهار تنـ ـاجي قلبها بهذه الأبيات:

يا قلب مالـ ـك عـ ـن هـ ـواك عـ ـدولُ ·· ملولاً ولسـ ـت إلـ ـى الملـ ـول تميـ ـلُ
هـ ـم ودَّعـ ـوك وأودعـ ـوك صـ ـبابةً ·· كـ ـادت لحسـ ـرتها القلـ ـوب تسـ ـيلُ
كملت عليـ ـك اليـ ـوم بيِّنـ ـة النَّـ ـوَى ·· والشـ ـاهدان مـ ـدامع ونحـ ـولُ

ولم تزل على هذه الحالة حتى انقضى النهار وادلهمَّ الليل فتزيَّنَتْ بأفخر الملابس والحلي، وأتت قفص الببغاء وقالت له:

– أيها الحكيم العاقل إنني ليلة أمس قضيت الليل كله باستماع كلامـ ـك، وبقيـ ـت على هذه الحالة حتى لج الصباح ولم أنل مبتغاي، وحيث قد عجزت ودنـ ـوت مـ ـن الهلاك فأريد في هذه الليلة أن أذهب إلى حبيبي لأتمتع بوصاله.

فأجابها الببغاء:

– يا سيدتي حقًا لقد ندمت ندمًا شديدًا لإطالتي الحديث في الليلة البارحة لأن ذلك منعك عن نوال مبتغاك وقد رثيت لحالك جدًا لفوات هذه الفرصة من يـ ـدك، فـ ـلا تقيمي هنا دقيقة واحدة لأن هذا الوقت ليس للتفكير واستماع الحكايات، وإلا فيُقضَى عليك أن تؤجلي رغدك للغد، وليس هذا بأمر يُحمَد لأنه قيل: "الحزم من حفظ ما في يده ولم يؤجل شغل يومه إلى غده.. وقال الشاعر:

لا أوخِّرُ شـ ـغل اليـ ـوم عـ ـن كسـ ـلٍ .. إلى غـ ـدٍ إنَّ يـ ـوم العـ ـاجزين غـ ـدُ

فاذهبي في هذه الساعة إلى حبيبك واقضي هذه الليلة بمواصلته، ولكن قبل أن تقدمي على عمل لكِ منِّي وصية يجب أن تحفظيها ما دمت حية.. وهي أنه يجب عليك أن تتفرسي في حبيبك وتصغي إلى كل ما يقوله وتحفظيه في قلبك، حتى إذا غمض، معانٍ أُفسرها لك، لأن الإنسان يعرف من كلامه حسبه ونسبه وفسقه وصلاحه وحبه وبغضه وقد قيل: "إن اللسان ترجمان الجنان" وحيث إنك فهيمة حكيمة فيمكنك أن تعرفي طوية حبيبك من لسانه، وتعرفي حسبه من كلامه فإن ألفيتة حميد المزايا فتكوني قد نلت مرادك، وإلا فلا يليق بك أن تؤاخيه لأنك الخسيس، لا يليق بوصالك إذ أنك من أشرف أهل المدينة.

فعند ذلك قالت له قمر السُّكَّر: إن كلامك هذا منضد بالذهب ومزوَّد بالدر إلا أن فيه إيهامًا، فبين لي كيف أن المرء يعرف من لسانه. فأجابها الببغاء:

– يا سيدتي إن الحكماء يتخذون لكل كلمة ألف معنى.. لأن في بعض الأوقات يكون الكلام مبهمًا ويدل ظاهره على معانٍ غامضة وربما في حال واحدة دلَّ على معانٍ كثيرة فيريد القائل معنىً ويؤلِّه السامع بمعنى آخر فالحكيم يفسر الكلام بما يريد المتكلم والجاهل يؤلمه بخلاف المقصود فيظن القبيح حسنًا والحسن قبيحًا، وفي بعض الأحيان يظهر العاقل من كلام الإنسان.. إما صلاحه وإما فجوره كما جرى ذلك لمَّا عجز ملك الروم عن فصل دعوى القروي، فأحال ذلك إلى ابنته (مهر شاه) ففصلت هذه الدعوى بكل سهولة وعرفت طوية المتهمين من مجرد كلامهم بعد أن تلبسوا بالنقاوة والورع.

فسألته قمر السُّكَّر:

وما هي حكاية ملك الروم وابنته (مهر شاه)..؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إن رجلاً قرويًا وجد دُرة ثمينة حينما كان يفلح الأرض فأخذها فرحًا متهللاً وذهب إلى المدينة ليعرضها على المجوهرين ليقوِّموها، فلم يمكنهم تحديد ثمنها وقيمتها لأنها كانت نادرة الوجود، فعند ذلك أصبح القروي في حيرة عظيمة، ولم يعد يعرف كيف يتصرف بهذه الجوهرة فأتى إليه يومًا ما أحد أصحابه، وكان حكيمًا عاقلاً فاستشاره بهذا الأمر فأجابه صاحبه:

– يا أخي إن شئت أن تبيع هذه الجوهرة فأي تاجر يمكنه دفع قيمتها فإذن لا عدت تعرضها على المجوهرين، ولا تخبر أحدًا عنها حتى لا يشيع هذا الخبر.. ويشتهر بين الناس لأنه ربما يبلغ مسامع السلطان، فيأخذها منك رغمًا، وربما لا يقنع بذلك بل يتهمك بسرقتها من خزينته فيصادرك ويعاقبك أشد العقاب، فإن شئت أن تقبل نصيحتي وتكون من الفائزين فخذ هذه الجوهرة هدية لسلطان الروم، وحيث إنه على جانب عظيم من اللطف والكرم فلا ريب أنه يمنُّ عليك بأنعام وافرة، ويكون مسرورًا منك ويظلِّلك بحمايته فلما سمع القروي كلام صاحبه هذا وقع لديه موقع الاستحسان، وقبل نصيحته، فلساعته قام يتأهَّب للسفر على أن يقدم هذه الجوهرة هدية لسلطان الروم، فسار مسافرًا، وبينما كان يومًا من الأيام سائرًا في الطريق عرض له ثلاثة سُيَّاح فرافقوه وسرُّوا به سرورًا عظيمًا، لأنه قد قيل "الرفيق ثم الطريق" فصار يبدي لهم البشاشة متمسكًا بما قاله الشاعر:

إذا رافقتَ بالأسفار قومًا ·· فكن بهمُ كذي الرحم الشفوقِ
بشوش الوجه ذا عفوٍ وصفحٍ ·· غضيض الطرف عن عيب الصديقِ
فإن تأخذ بعثرتهم يقلُّ ·· وتبقى في الطريق بلا رفيقِ

ولهذا السبب أطلعهم على سره وأخبرهم عن الجوهرة التي معه.. فأخذوا منذ ذلك الحين يتشاورون مع بعضهم في كيفية اختلاس الجوهرة منه وساروا ينتهزون فرصة لذلك.

وبينما كانوا سائرين في الطريق أفضوا إلى محل نزهة رائقة وكان القروي قد أضناه التعب، فلما جلس يستريح غلب عليه النعاس فنام، فانتظره السياح حتى اشتد عليه النوم. وبعد ذلك قام أحدهم وكان ذا خفة لا توصف وأخرج الجوهرة من جيبه فأخفوها معهم ورقدوا بجانبه، ثم بعد حين انتبه من نومه فمد يده إلى جيبه، وتفقَّد الجوهرة فلم يجدها فطار عقله وتأكد أن السياح قد سرقوها منه، حينما كان نائمًا لكنه سكن روعَهُ ولم يتظاهر بالاندهاش وفكَّر في نفسه قائلاً:

– إن سألت الآن السُياح عن هذه الجوهرة فلا ريب أنهم ينكرونها وإن خاصمتهم وأنا دونهم في القوة، فمن المحتمل أن يقتلوني، فالأحسن أن أسر الأمر في قلبي وأتظاهر بالطمأنينة. فعوَّل على هذا الرأي وبقيَ كعادته يرافقهم ويسامرهم بكل بشاشة إلى أن وصلوا إلى القسطنطينية مقر تخت سلطان الروم.. فذهب القروي إلى قصر الملك وقدَّم له عرضًا يلتمس فيه مقابلته، فأجيب التماسه فدخل أمام الملك وأخبره بما وقع له أولاً وآخرًا.

فصدَّق الملك كلامه وأمر بإحضار السياح بين يديه فأحضروهم ولدى سؤالهم عما قرَّره القروي أنكره.

فكرر الملك عليهم السؤال فأنكروا أيضًا، فغضب عليهم وأمر بحبسهم.. وبعد ذلك اختلى في حجرته وغاص في بحر التفكر وقال في نفسه:

– إن عاملت هؤلاء السياح بصرامة لمجرد دعوى هذا الرجل، فربما تظهر فيما بعد براءتهم فأكون حينئذٍ ظالمًا وأرتكب إثمًا فظيعًا، وإن صرفت النظر عن شكوى هذا الرجل فأكون قد تهاملت في إنصاف العباد وأصير من ثم مجرمًا أمام الله تعالى.

وبينما كان على هذه الحالة دخلت عليه ابنته المدعوة (مهر شاه) وكانت على جانب عظيم من الجمال والحكمة وسألته عن سبب تفكره.. فأجلسها بين يديه ولما كان يعهد فيها من الفطنة أخبرها بما كان، واستشارها بذلك فأطرقت (مهر شاه) برهة ثم نظرت إلى أبيها وقالت:

– يا أبتاه.. حيث إن هذه الدعوى قد شغلت بالك وصرت لأجلها في حيرة عظيمة، ولا طاقة لك لفض المشاكل فأحلها لي وأنا بحوله تعالى وتعطفات أنظارك أحل هذه المشاكل باللطافة والحِيَل. فأجاب أبوها طلبها وأحال لها هذه الدعوى، فقامت لفورها ودخلت حجرتها وأمرت بإحضار السياح أمامها ففعلوا.. ولما مثلوا بين يديها استقبلتهم بكل بشاشة وقالت لهم:

– إن أبي قد أخطأ بإيداعهم السجن قبل أن يستقصي حقيقة الدعوى التي أقيمت عليكم، وكان قاصدًا أيضًا أن يعذبكم عذابًا شديدًا لو لم أسمع وأقنعه ببراءتكم، وذلك لأنه لا يتصور أناس مثلكم زاهدين في الدنيا يقدمون على مثل هذه الجريرة، لأنني أعرف جيدًا طباع السياح وعوائدهم، وقد عاشرتهم كثيرًا فرأيت فيهم من النوايا الحميدة ما يسر الخاطر، وقد رأيت كثيرًا من الناس، ولم يطب لي سوى مجالسة السياح، فلهذا أرغب في أن تأتوا إليَّ كل يوم لأنني أسعد جدًا بمجالستكم وسوف أستخبر منكم عمَّا رأيتموه في سياحتكم، ولذلك أبيح لكم الدخول إلى مجلسي متى شئتم وإذا عارضكم أحد من الخدم فأعاقبه عقابًا شديدًا. ثم أهدتهم بعض التحف وطيبت خاطرهم وصرفتهم فذهبوا من عندها شاكرين.

وفي اليوم التالي أتوا إليها فاستقبلتهم بكل بشاشة فانصرفوا مفعمين فرحًا وسرورًا، ومثل ذلك كان في اليوم الثالث والرابع حتى صاروا يأتون لزيارتها كل يوم وكان يدور حديثهم عن الصنائع والفنون وعلى كل شيء.

فأتوا إليها يومًا ما حسب عادتهم فاستقبلتهم بالترحاب وأجلستهم بين يديها وقالت لهم:

– أيها السياح إنني أحمد الله الذي يسَّر لي أصحابًا مثلكم ذوي فضل وورع، فقد فاح طيب فضلكم في القسطنطينية فعطرها، واكتسبت من معاشرتكم فوائـد جمـة، ولكن بقى لي أن أطلب منكم حلَّ مُشكلٍ واحدٍ أستصعبه جدًا وهو أنني سمعت يومًا ما حكاية أطربتني جدًا غير أن فيها إشكالاً لا أقدر على تأويله، فعرضته على جميع عقلاء القسطنطينية فأعياهم حله. فقالوا لها:

– تكرَّمي أيتها الملكة وقص علينا هذه الحكاية فربما يتأتَّى لنا حلٌ للإشكال الذي فيها.

* * * *

حكاية

قالت (مهر شاه) ابنة سلطان الروم:

زعموا أنه كان في قديم الزمان في مدينة دمشق الشام تاجر ذو غنيً وافٍ رٍ.. كان له ابنة جميلة المنظر اسمها (دلفروز) عُمرها اثنتا عشرة سنة، وكانت متنزهة عن نظير بأوصافها الحميدة وجمالها الفائق... فيومًا مـا ضـ جرت مـن الإقامـة فقصدت التنزه في بساتين المدينة فدعت إليها جواريها الحسان وسارت معهم، وكان ذلك في فصل الربيع والأشجار إذ ذاك مكللة بالزهور فلم تزل (دلفروز) سائرة مع جواريها حتى أفضت إلى بستان عظيم فيه من جميع أصناف الزهـور والريـاحين فدخلته، وجلست تحت شجرة تستريح، وبينما كانت تسرح نظرها لترى بدائع هـذا البستان رأت بغتة وردة عالية كالسرو وممتازة على جميع الورود، وكان لها منظر مبهج يدهش الأبصار فابتهجت (دلفروز) من هذا النظر وأمرت جواريها بأن يقطفن لها وردة من هذه الشجرة.. فقامت الجواري لتقطفنها.. فلم يتمكن من ذلك.. فأجهدن نفسهن حتى تجرَّحن وسال دمهن ولم يحصلن على نتيجة لأن الشجرة كانت عاليـة جدًا وذات أشواك قاسية فازداد تشوق (دلفروز) لنوال بغيتها.

وفيما هي في لهو ومرح إذ شاهدت لِصًا يسرق بعض الثمار... ثـم رأت ذئبًـا يدنو نحوها، ولكنه لم يصبها بشيء إذْ اقترب منها ثم ابتعد عنها وكأنه لم يرها، ثم بعد لحظات شاهدت البستاني الذي تعوَّدت أن تقابله دائمًا هنا في هـذا المكـان... وهو يقول لها معاتبًا مؤنبًا: "إنَّ اشتراطي عليك الحضور لهذا البستان أمر مكروه.. بل فعلت ذلك هازلاً فحاشاي أن أدنو منك أو أن أمس جسـدك الطـاهر لأن مـن شيمتي الأمانة فلا أتعدَّى على عرض غيري لأصون عرضي، لأنـي إذا قطفـت وردة من بستان غيري فيُقلع من بستاني شجرة، فأهلاً بك يا سيدتي استريحي قليلاً من التعب وبعده تعودين إلى زوجك". فعند ذلك جلست (دلفروز) على موج بهـي

المنظر ليستريح نظرها، وكانت المياه تسيل أمامها والبستاني يقطف لها من جميع أنواع الزهور، وبعد أن استراحت سارت نوبيتها والبستاني بمعيتها حتى أفضت إلى البيت فسلمها إلى زوجها فأخبرته بما جرى لها أولاً وآخرًا فهنأها على نجاتها، وقضى معها تلك الليلة بالفرح والسرور.

فعند ذلك نظرت (مهر شاه) إلى السياح وقالت لهم:

– إن وجه الإشكال في هذه الحكاية معرفة من هو أجدر بالثناء من الأربعة المارُّ ذكرهم.. وهم زوج (دلفروز) والذئب واللص والبستاني.. ومن الأجدر منهم بأن يوصف بالمروءة والشهامة. فأريد أن أعرف رأي كل منكم بهذا الشأن.

فقام السائح الأول وقال:

– يا سيدتي لقد خطر ببالي في البدء أن الذئب ربما كان قد شاخ وسقطت أسنانه، ولهذا لم يفترس الفتاة وأما الآن فأقول: "إن إعراضه عن هذه الفريسة كيف ما كان الأمر هو من الحماقة، وكثيرًا ما اتصف هذا الجنس بالغباوة فلا يحسب له إذن أجر بتركه هذه الابنة.

فقام السائح الثاني وقال:

– دعوا ذكر هذا الحيوان لأنه دون فهم وإدراك.. ولو فُرض أنه لم يقدر على افتراس الفتاة حسب شيخوخته فحماقته مشهورة عند الجميع وأما الأشد حماقة وجهلاً فهو ذاك السارق العديم الفتنة الذي تيسرت له الغنيمة فتركها مع أن الوقت كان ليلاً والعالم مستغرق في ثياب النوم، فلذلك هو أشد حماقة من الجميع.

ثم قام الثالث وقال:

– اصرفوا النظر عن حماقة الذئب والسارق، لأنه يوجد من هو أشد حماقة منه.. وهو البستاني الذي قد تفاحش جهله حيث أتته بديعة حسن من تلقاء نفسها وطلبت منه الوصال فأعرض عنها، حالة كونه كان في بستان بهي المنظر يضوِّع المدينة من الروائح العطرة، فكيف تركها هذا المجنون الأحمق الذي قد تفاقمت

حماقته. وقصارى الكلام إن هؤلاء السياح أخذوا يذمون تارةً الذئب وتارةً اللص والبستاني ويقذفونهم بجميع أنواع الشتائم وكانوا تارةً يذمون زوج (دلفروز) ويصفونه بالحماقة وعدم الغيرة.

فلما سمعت (مهر شاه) حديثهم وحكمهم وكانت قد كلفتهم أن يقولوا لها من هو الأجدر بالفضل من هؤلاء أربعة فأخذوا يذمونهم ويوضحون من هو الأشد حماقة منهم.. تأكدت أنهم السارقون الذين سرقوا الجوهرة من القروي واندرأت من قلبها كل شبهة، حتى علمت طويتهم كالشاهد العيان، فعند ذلك أخبرت أباها بما كان من أمرهم فأمر بإحضارهم بين يديه وأخذ يستنطقهم كثيرًا فلم يقروا بل بقوا مُصرين ومتظاهرين بالبراءة.. فعند ذلك أمر بأن يُقادوا إلى السجن وأن يغلّوهم بالقيود ففعلوا وضبطوا كل ما كان معهم من قليل وكثير فوجدوا الجوهرة المحكي عنها بين أمتعتهم فأتوا بها إلى الملك فأخذها وجازى القروي جزاءً عظيمًا، وتأكد صدق ما قرره له، وأمر بصلب السياح على أبواب المدينة عبرة لسائر اللصوص والسارقين.

* * * *

فبعد أن قص الببغاء هذه الحكاية على قمر السُّكَّر... نظر إليها وقال:

– إنه يا سيدتي ينتج من هذه الحكاية فائدة عظيمة لأنه اتضح جليًا أن اللبيب يعرف بواطن الناس من كلامهم، وكما أنه لابد لكل إنسان من معرفة صديقه، ولكل عاشق من معرفة معشوقه، فأوصيك إذن أن تلاحظي كلام الأمير حبيبك حتى تعرفي حسبه ونسبه، وتطلعي على نواياه لتعرفي هل صداقته متينة ومحبته قلبية أم لا. فإن أصغيتِ لكلامه ووزنته بمعيار الحكمة والامتحان علمت لا محالة ما انطوى عليه سره، فإن كانت محبته قلبية لك وإلا فاعرضي عنه.. والآن قد نصحتك كثيرًا ولم يعد يسعني أن أكلمك بشيء لكون الوقت قد ناهز أن يمر، فاذهبي إذن ونادي حبيبك لكونه لم يزل بانتظارك واقضي معه الليلة بالصفا والانشراح.

فلما سمعت قمر السُّكَّر هذا الكلام كادت أن تطير من الفرح فقامت لساعتها قاصدة حبيبها.. لكنها لما فتحت الباب رأت أنه قد أصبح الصباح.. فرجعت خائبة ودخلت حجرتها باكية حيث إن نور الصباح أظهر كل ما في المدينة، كما ظهرت سرقة السياح المارُّ ذكرهم.. فاقتدى إذ ذاك أن تؤجل رغدها إلى الغد وقضت ذلك النهارة تارةً راقدة وتارةً باكية وكان يخال لها لشدة حزنها أن الليل والنهار أجيال لا تنقضي:

إن الليالي للأنام مناهلٌ .. تطوَى وتنشر بينها الأعمارُ
فقصارهن مع الهموم طويلةٌ .. وطوالهن مع السرور قصارُ

لقد أخذت الدالة عليك كما يتخذها البنون على أمهاتهم وقد سببت لك مشقة عظيمة وأعدمتك الراحك وكلفتك أمرًا عسيرًا وهو أن تسهر الليالي برمتها لترشدني لنصائحك إلى سواء السبيل، وحيث إنني قليلة الدراية قصدتك أيضًا هذه الليلة قبل أن أذهب إلى حبيبي لأسمع منك النصائح اللازمة فقد قلت لي في الليلة البارحة: "إن الإنسان يعرف باطنه من مجرد كلامه" وحيث الآن أريد الذهاب إلى حبيبي الأمير فأرغب في الإطلاع على سره وسريرته، لأعرف ما إذا كان محبًا مخلصًا أم متظاهرًا فقط بالمحبة.. لكنني أخشى من أن يغمض على كلامه، حيث للآن ما عاشرت أحدًا من الناس فيصعب عليَّ في بداية دخولي حومة أن تخفى عليّ حقيقة الرجل وأذوق حلوه ومره، فأرجو أن تعلمني ما يجب أن أفعله وما يجب أن أحترس وأحترز عليه منه. فلما سمع الببغاء هذا الكلام فرح فرحًا عظيمًا وقال لها:

– اعلمي أن لكل إنسان ظاهرًا وباطنًا وقد يكون الظاهر خلاف الباطن وبالعكس.. ولذلك ترين بعض الناس يتظاهرون بالمحبة وتكون العداوة مستترة في قلوبهم ومنهم من يكون دنيئًا خامل الأجداد ومتى حشد شيئًا من المال يتظاهر بالفطنة والشرف، فيخال لمن لا يدري حقائق الأمور أنه ذو حسب ونسب، ولذلك قد بذل الحكماء جهدهم ليميزوا الحقير من الشريف، وقد أجمعوا على طريقة واحدة

وهي آلات الطرب، فإن المرء يُعرف أمره من سماعه نغمات الطرب فاصغي إذن لكلامي واعلمي بموجبه فتصادفي حظًا وافرًا، وهو أنه عندما تقابلين حبيبك اطلبي أن يحضر إليك من يعزف بآلات الطرب، فإن ازداد فرحه عند سـ ماعها فيكـ ون شريف النسب لائقًا بحبك وإلا فيكون أصله دنيئًا ومن ثم لا يليق أن تتخذيه خِـ لاًّ، ولا يكون أهلاً لوصالك، بل يجب عند ذلك أن تعرضي، عنه وترجعي حـ الاً إلـ ى بيتك وهذه واسطة مختبرة من العلماء الأولين والمتأخرين، وبها علم حكماء مديـ نة أصفهان مزايا الأمير الذي كان في المهد، وأنه أهل للصولجان المـ وكي وممتـ از على سائر الأطفال الذين كانوا معه بالعقل والفطنة، فبـ ايعوا المـ لك وقـ دموا لـ ه الخضوع والطاعة.. فقالت له قمر السُكَّر:

– قص عليَّ هذه الواقعة لأنها مطابقة لما نحن في صدده وتشبه واقعة حـ الي. فلعلي أرى فيها مثالاً أسير عليه.

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

قد روت أئمة النقل أنه كان في قديم الزمان في مدينة "أصفهان" من أعمال فارس ملك بلغ من العمر مائة وعشرين ومات ولم يترك ولدًا يخلفه على كرسي السلطنة سوى حفيد عمره خمسة أشهر.. فارتبك الوزراء ورجال الدولة بهذا الأمر، حيث إن ولي العهد كان طفلاً فاجتمع الوزراء ورجال الدولة والعلماء للمفاوضة بهذا الشأن، ومبايعة ملك يقوم عليهم ويسوس أحوالهم، فقال بعضهم إن حفيد الملك المتوفي طفل لا يسعنا أن نبايعه الآن، ولا يمكننا أن ننتظره حتى يبلغ، لأنه لا يصل إلى سن الرشد إلا بعد مدة طويلة فمن يقوم على الرعاية في بحر هذه المدة، فالأجدر بنا إذن أن ندعه الآن ونبايع ملكًا أجنبيًا.

فقام آخرون واعترضوا على هذا الرأي قائلين:

- إذا بايعنا ملكًا أجنبيًا فربما لا يكون أهلاً للقيام بأعباء الدولة، ويخشى منه ظلم الرعية، وإذا قويت شوكته فلا يلبس أن يحتقر رجال الدولة ويلحق ببلادنا الخراب والدمار، وربما تتوصل معه الخيانة أن يدفعنا إلى عدونا ويلحق بنا العار والفضيحة، ومع ذلك فالرأي الأوفق اتباعه هو ما يقترحه عقلاء المملكة وحكماؤها فلنرَ آراءهم بهذا الشأن المهم.

هذا وكان حاضرًا وقتئذٍ أربعمائة من الحكماء والعقلاء فبعد أن تذاكروا كثيرًا بهذا الأمر قرَّ رأيهم على رفض كل ملك أجنبي، وأنه يجب امتحان حفيد الملك المتوفَّى، وذلك بأن يحضروا عددًا من الأطفال ويضعوه بينهم وأن يعزف أمامهم بآلات الطرب، فإن طرب الطفل فرحًا عند سماعه النغمات فيكون ذا حكمة عظيمة وأهلاً للملك وإلاَّ فلا.

فلما سمع الوزراء هذا الكلام طاب لهم فرتبوا مجلسًا عظيمًا، ووضعوا الطفل في مهده وجمعوا معه أطفالاً شتى وأخذوا يعزفون أمامه بآلات الطرب، ولما كان الطفل يسمع الأنغام كان يطير فرحًا ويرقص طربًا وبهجة ويشير ببعض حركات تدل على الفطنة والفراسة.. وأما بقية الأطفال فكانوا مبهوتين كأجسام بلا روح، فاستمروا على هذه الحالة أيامًا كثيرة، وكان حفيد الملك لما يسمع أنغام الطرب يستيقظ من نومه ويبتسم ضاحكًا.. فلما نظر الوزراء ورجال الدولة والعقلاء هذه الأشارات من هذا الطفل تيقنوا أنه سيكون على جانب عظيم من العقل والدراية، وأنه سيكون سعيدًا يعز صاحبه ويذل عدوه، فتفاقم حينئذٍ سرورهم وأجلسوه على سرير أجداده ونادوا باسمه في سائر أقطار المملكة، ودعوا له بطول البقاء.

فلما بلغ هذا الغلام سن الرشاد تسلَّم زمام المملكة فسار مع رعاياه سيرة حميدة، وكان يعاملهم بالإحسان ويواصلهم بالمعروف، فامتدت سطوته في سائر الأقطار وبعُدَ صيته وعمَّر أطراف المملكة وأباد عدوه، وباتت رعاياه على أحسن حال وأتم منوال.

فلما أنهى الببغاء هذه الحكاية نظر إلى قمر السُكَّر وقال لها:

- يا سيدتي إنه يلزمك أن تكوني ذات معرفة، وأن تراقبي حبيبك ليظهر لك ما في باطنه، وحيث إن صوت الطرب هو معيار الحكمة فعليك به. فقالت قمر السُكَّر:

- هل بمجرد سماع آلات الطرب التي أسهبت المقال عنها يفرح المرء فرحًا عظيمًا، ومن فرحه يعرف باطنقام كيف الحال؟ فأجابها الببغاء:

يا سيدتي إن نغمات الطرب تجعل في قلب الإنسان تأثيرًا وتهيج في فؤاده الفرح فتصيبه هزة تعدمه التأني، فيعرف باطنه لأن التأني واسطة التمويه في الكلام ومتى انتفى التمويه تبقى الحقيقة على حسب كيانها الطبيعي، فحينئذٍ يعرف الخسيس من النفيس والجيد من الرديء.. ثم إن النغم والألحان تجعل الإنسان يبوح بأسراره،

لأنه يحصل منه لسماعها فرح يهيج قريحته ويسلب منه الفاكرة، ويدور برأسه كما يدور الخمر بشاربه، فلا يعود يفتكر بكتم ما يجب كتمه بل يبوح بأسراره، ويكشف الخبايا من زوايا قلبه، وتأثير الطرب في قلب الإنسان عظيم، مفاعيله لا توصف لأنه يحيى ويميت والدليل على ذلك ما أصاب جنيد البغدادي عليه رحمه الهادي.
فسألته قمر السُكَّر .

وكيف كان ذلك.. .. ..؟.

حكاية

قال الببغاء:

إن جنيد البغدادي عليه رحمة الهادي حضر يومًا ما مجلس العشاق.. ف دارت بينهم الأفراح وأخذوا يعزفون بآلات الطرب، فاستولى على جنيد فرح لا يوصد ف أخرجه عن دائرة الصواب، وأصبح كالمجنون من زيادة سروره وتأثر معه جمي ع الحاضرين، ولعبت الأفراح في رؤوسهم فقام أحد هؤلاء العاشقين وصرخ صراخاً عظيمًا ناتجًا عن الفرح والغرام فلما سمع جُنيد البغدادي صراخهم انتب ه لس اعته ورجع إلى الصواب والتفت نحو الصارخ وأمره بالسكوت ثم وضع خرقت ه عل ى رأسه مقدار ساعة، وبعد ذلك رفعوا الخرقة عن رأسه فوجدوه ق د احت رق بن ار العشق وطار في العلا وغاب عن الأنظار.

فعند ذلك استأنف الببغاء كلامه قائلاً: يا قمر السُّكَّر إن أمثال ه ذه الحكاي ات كثيرة وأعرف منها شيئًا كثيرًا، ولكن فيما قلت لا يغني اللبيب فحسبك أن تحفظ ي ما قلته لك. فأجابته قمر السُّكَّر:

قد اقتبست من كلامك فوائد جمة ولكن حيث تكرمت بقص الأخبار المفيدة وق د أخبرتني عن تأثير صوت الطرب في قلوب الناس فأرجوك أن تخبرني مفصلاً عن صناعة العزف وعن أصلها ومبداها وأين كان ظهورها فقال الببغاء:

إن هذا الفن بحر لا قرار له ولذته لا تحاكيها لذة فهل تعرفين حكاي ة الحك يم (شاذبرداز) مع القرد لتحيطي علمًا بأصل هذا الفن ومبداه:

فأجابته قمر السُّكَّر:

إنني لم أسمع قط هذه الحكاية فتكرم بالإفادة..

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

قد أخبرني أحد حكماء الهند أنه كان في قديم الزمان حكيم يُدعى (شاذيرداز) فذهب هذا الحكيم ذات مرة للتنزه، وأخذ يسوح في البراري، وبينما كان يتنقل من جبل إلى آخر ومن ظل شجرة إلى ظل أخرى نظر بغتةً قردًا على شجرة عالية يقمص من غصن إلى آخر.. فأصاب بطنه غصن مملوء من الشوك فخرقه ومزقه تمزيقًا وبقيت مصارينه مشتبكة بين غصنين... وبعد مدة من الزمن جفت تلك المصارين ويبست وكانت كلما هبت الرياح وصدمتها سمع منها صوتًا ونغمةً فيومًا ما إذْ كان هذا الفيلسوف سائرًا في تلك المخلات حسب عادته نظر هذه المصارين عند هبوب الريح، ولما سمع صداها أخذه العجب فرفعها من الشجرة وربطها بين شجرتين.. ولم يكن يضرب عليها بأصابعه كان يسمع لها صوت مطرب أكثر من الأول... فعند ذلك أخذ الفيلسوف يصلح فيها حتى أتى بها غاية الإتقان فوضع قسمًا من هذه المصارين مربوطة على لوح ولما كان يضرب عليها كان يسمع لها أصوات مختلفة، وهذا مبدأ اختراع هذا الفن كما رواه المؤرخون.. ولكن قد اختلفت الروايات في ذلك فزعم بعضهم أنه يوجد في بلاد الهند طير اسمه ققنوس له منقار فيه تقويات كثيرة.. ولما كان يصرخ هذا الطير كان يسمع له من كل ثقب صوت مطرب، ومن منقاره اتخذ حكماء الهند نتيجة عظيمة أوصلتهم إلى اختراع فن العزف بآلات الطرب وقد روى المؤرخون روايات جمة عن ذلك لا يسعنا إيرادها ولا يمكنك أن تحيطي بمثلها إلا بعد أيام كثيرة.. وفي مقالاته لك لا غناية عنها، فلا يوافقك الآن أن تقضي هذه الليلة لسماع الأخبار فقومي واذهبي إلى حبيبك ولا تدعي هذه الفرصة تمر لأنه يخشى غياب زوجك فيحول بينك وبين مرامك ويصيبك ما أصاب الهرة التي قتل ابنها جميع الفأر فندمت على ذلك ندامة شديدة لم تجدها نفعًا.

فسألته قمر السُكَّر: وكيف كان ذلك؟.

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في إحدى المحلات طيور وحيوانات كثيرة وفيه أشجار لا تُحصى فاتفق أنه أتى يومًا ما أسدٌ كاسر إلى ذاك المحل وتوطن فيه، وكان معه عدد وافر من الحيوانات الضارية التي كانت خاضعة له، فمضت أيام كثيرة على هذا المنوال حتى شاخ الأسد وضعفت قواه ونظره، حتى لم يعد يمكنه أن يرى بعينيه شيئًا.. وكلَّتْ أسنانه عن المضغ وبلغ منتهى درجة العجز فإنه كان ينام بعد الأكل، ولما كان يستحوذ عليه النعاس كانت شفتاه ترتخيان وتسقطان على الأرض وتنفتح شفتاه، وكانت حينئذٍ الفأر تخرج من أوجارها وتأتي بكل سرعة وتخطف اللحم من بين أسنانه وتتغذى بها، فكان الأسد يتعذب من ذلك عذابًا أليمًا لأنها تعدمه الراحة وتحرمه لذة الوسن إذ أنه كان يستيقظ في كل برهة فيرى الفأرة محدقةً به وآخذة في تعذيبه ولا يتمكن من قتل واحدة منها، حيث إنها لما كانت تشعر بيقظته تفر هاربة.. ولما كان ينام كانت تثبت عليه بكل جسارة... فيومًا ما دخل وزير الذئب فشكا له الأسد من أذيَّة الفأر... فأجابه الذئب يا سيدي إن حالتك هذه تشابه حالة خليفة البغدادي.

فسأله الأسد:

وما هي حكايته......؟

* * * *

حكاية

قال الذئب:

إنه كان في مدينة بغداد أحد الخلفاء العباسيين الذين اشتهروا بالبسالة والاقتدار.. فجلس يومًا ما على سدته ودعا رجلاً من أهل بغداد كان حكيمًا عارفًا بكل العلوم والفنون ولزيادة بره وفضله كان كلامه كالقول المُنزّل.. لأنه لم يكن يتكلم إلا بكلام روحاني بإلهام ربَّاني وكان وقتئذٍ فصل الصيف فحامت الذباب بكثرة حتى انزعج الخليفة وعجز عن طرده عن وجهه ويديه، فعند ذلك نظر إلى العالم المارّ ذكره وقال له:

أيها الأستاذ الخبير لأي سبب خلق الله هذه الأوهام التي ليس منها إلا الأذى.. فلا غرو أن الله خلقها لسبب لأن بحر حكمته لا قرار له.

فأطرق العالم برهة ثم نظر إلى الخليفة وقال: يا أمير المؤمنين اعلم أن الله تعالى لم يخلق شيئًا بدون سبب، وإنما خلق هذه الذباب الحقيرة ليُعجز الجبابرة ذوي القوة والبسالة الذين يحاربون الجنود الغفيرة ويفتحون الفتوحات فسلط الله عليهم هذه الأوهام الدنيئة لكي يعرفوا سلطته واقتداره، لأنه رأى أنه لابد لكل ذي قوة أن يعتز بقوته وهذا أيها الخليفة موضوع تأمل عظيم في أحوال هذه الدنيا الفانية.. وما الإنسان إلا ظلّ عابرٍ وما الدنيا إلا دار لا قرار لها، وكما قال الشاعر:

تأمـل فـي الوجـود بعـين فكـر .. تـ . . ـرى الـ . . دنيا كالخيـ . . ـال
كـذلك مـن عليهـا سـوف يفنـي .. ويبقـى وجـه ربـك ذو الجـلال

فلما سمع الخليفة كلام هذا العالم الفاضل انتبه وارتدع عن غيه.

فالآن أيها الأسد الذي لا تقدر أن تحتمل أذى هذه الأوهام الحقيرة، اعلم أن الله تعالى قد سلَّطها عليك لتعرف قدرته لئلا تغتر بقدرتك وتعتز بسطوتك، ولكن لكل داء دواء فمداواة هذه العلة ليس بأمر عسير ويكون بالتدبير والحيلة، لأن الله تعالى

خلق المخلوقات وعيَّن لكل منها عملاً فمنها من يقدر على العمل ومنها ما يعجز عنه، ولابد لكل مخلوق من مساعد وإن كان المساعد في بعض الأحيان أقوى من المساعد، وعليه... فدفع هذا الضرر لا يكون بيدنا بل بيد غيرنا، فإنه يوجد عندك أيها الأسد خادمة نصوحة ملازمة خدمتك من قديم الزمان وهي الهرة المسماة (شابك بست).. كانت لاقي لديك فأنّى أن أحضرها أمامك لتقوم بخدمتك وتمنع عنك الفأر.. فلما سمع الأسد كلام وزيره استحسنه وأمر بأن تكون هذه الهرة ملازمة خدمته فأحضرها الذئب بين يديه وأوصاها أن تقوم بخدمته بكل همة ونشاط فتعهدت له بذلك، وتقدّمت أمام الأسد وسجدت بين يديه وقالت: يا سيد الوحوش إنني أشكر كرمك حيث قد نظرت إلى رفيقتك هذه بعين الرحمة وأوليتها نعمة عظيمة، إذْ قد عينتها لمحافظة رأسك الملوكي، وذلك فضلاً عما غمرتني به من سابق الإحسان لأنني ملازمة خدمتك من زمن طويل وأحببتك حبًا شديدًا، ولكن قد ظهر لي من مدة أن حبك لي قد فتر.. مع أنني فيما مضى كنت مجتنبة الخيانة ومقيمة في خدمتك حق القيام.. وأنا من أنسبائك، قرابتنا قديمة جدًا. فأجابها الأسد:

- إنني منذ ما خلقت لم أسمع قط بهذه القرابة فإن كنت تعرفين مبدأها فأخبريني بها.. فقالت الهرة:

- اعلم يا سيدي أن حضرة سيدنا نوح عليه السلام لما دخل السفينة بأمر الله تعالى أدخل معه فيها من كل أجناس الطيور والوحوش والحيوانات ذكرًا وأنثى، وبعد أن مكثت أيامًا كثيرة في السفينة صارت الفيران تخرج عليها ليلاً ونهارًا وتؤذيها وهي لم تتمكن من ردعها.. فشكت أمرها إلى نوح فرقَّ لها.. وألهم بأن يمسك أنف الأسد الذي كان في السفينة ويعصره، ولما فعل ذلك خرج من كل ثقب من أنف الأسد هرة واحدة، وغارت حينئذٍ على الفئران واستأصلت شأفتها وأراحت جميع الحيوانات من شرها فمن ثم يكون الأسد جدنا، فاقتفاءً بآثار هذه السنانير وإيفاءً لواجبات الأمانة قد تعهدت أن أنقذك من شر الفيران، وإذا بدا مني تهاون في الخدمة فافعل بي ما تشاء.

ومنذ تلك الساعة قامت الهرة مواظبة على خدمة الأسد ولما كانت الفيران تخرج من أوجارها كانت تثب عليها وتهزمها.. لكنها لم تقتل منها فأرة واحدة، بل كانت تمنعها عن أذية الأسد... فمضت أيامٌ كثيرة على هذا المنوال وارتاح الأسد من أذية الفأر ونجا من شرها.. فأحب الهرة حبًا شديدًا ورفع منزلتها، فيومًا ما أحضرت بين يديه ابنها الأكبر وقالت له:

– إن عبدك هذا هو ابني البكر وهو بكل شيء خبير ومتصف بالأمانة والنشاط، وهو جدير بأن يخدمك طول حياته لأنه يدري ما غمرت به أمه من المعروف والإحسان، وحيث قد جد عليَّ بعض الأشغال توجبني أن أستقيل من الخدمة فألتمس منك أن ترخص لي بالذهاب لقضاء أشغالي وينوب عني في خدمتك ابني هذا، وبعد مدة وجيزة أعود إلى خدمتك. فأذنها الأسد، وحيث كان قد عنَّ لها في ذاك النهار غرض في إحدى الجهات تركت الأسد، وأقامت ابنها مقامها وأوصته بأن يفعل ما كانت تفعله، وبألا يتهاون في خدمته، وسافرت.

فقام ابنها في تلك الليلة محافظًا على الأسد لكنه إذ كان في نضارة شبابه غلب عليه الجهل والقساوة، فلم يحذ حذو والدته بل إنه لما كان الفأر يخرج من أوجاره كان يثب عليه بكل سرعة ويفترسه أو يقتله، وحيث كان الفأر معتادًا على الهرة التي لم تكن تؤذيه، لم يكن في باديء الأمر يخاف من هذه السنور، بل كان يدنو منه بكل طمأنينة ولم يكن السنور يشفق عليه فقتل بجوره كل الفأر الذي كان في ذلك المحل حتى لم يبق منه فأرة واحدة، وكان يفتخر بعمله هذا ويظنه خيرًا. ثم بعد ذلك رجعت أمه من غيبتها.. فأخذ يخبرها مفصلاً عما كان يفعله حال غيابها ويقول لها معتزًا بنفسه أنه قتل جانبًا عظيمًا من الفأر فاغتمت أمه من ذلك وباتت تترقب خروج الفأر من أوجاره فلم تر فأرة واحدة، فغضبت غضبًا شديدًا وأخذت توبخ ابنها وتقول له.. كم نصحتك أيها الأحمق بأن تروض طباعك، وكم أوصيتك بأن لا تؤذي الفأر وأن لا تقتل منه فأرة واحدة فكيف تجاسرت ونبذت وصيتي وألحقت بي الضرر، لأنني لم أنل هذه النعمة في شيخوختي إلا بتكبد مشقة عظيمة، وما فعلته

بحماقتك سيزيل قدري لأنني لم أنل حظوة أمام الأسد الذي ليس من جنسي إلا بسبب الفأر الذي لم أكن أوذيه شفقةً عليه، بل غيرة على نفسي ومصلحتي وقد أفنيت ما كان موجبًا لتقلدي خدمة الأسد فلا غرو أن يصرف عني هذه الوظيفة.

فمضت أيامٌ والأسد لا يعرف أن الفأر استُئصل من ذاك المكان، غير أنه بعد مدة طويلة قد لاحظ أنه لم يبق للفأر أثر.. فعند ذلك دعا الذئب وزيره وقال له:

– إنه لم يبق للفأر أثر في هذا المكان، ولذلك صرنا في غنى عن هذه الهرة التي استأجرناها لتحفظنا من أذيتى ومن ثم لا أرى وجوبًا لبقائها في هذه الخدمة لأن المناصب والوظائف لا تولَّى إلا عند الاقتضاء، فالأجدر بنا أن نعزلها عن هذه الخدمة (الوظيفة) لأنه لا يليق بعظمتي الملوكية أن أقرب مني هذه الهرة الدنيئة التي هي من جنس السفهاء الذين يسفكون الدماء، وكيف أجاوب الحق سبحانه يوم الحشر العظيم عن ذلك فاصرفها إذن من هنا، وقل لها بأن تطلب رزقها في مكان آخر. فامتثل الذئب لأمر الأسد وصرف الهرة عن وظيفتها فحزنت حزنًا شديدًا، وعادت إلى حالة الذل والهوان وكانت يومًا ما تقذف ابنها بالشتائم مما بدا من جهله وقساوته، وندمت أشد الندامة على غيبتها وتوكيلها ابنها عنها ولكن لا ينفع الندم إذا ذلت القدم.

فعند ذلك نظر الببغاء إلى قمر السُكَّر وقال لها:

– اعلمي يا سيدتي أنني قصصت عليك هذه الحكاية حتى تتنبهي، ولا تُقبلي على عمل يوجب الندامة كما هو جارٍ منك الآن.. لأنك من مدة طويلة تستعدين للذهاب إلى حبيبك وللآن لم تذهبي، فهذا فعل يوجب الندامة ومتى فات وقت الصفاء فلا تجدي الندامة نفعًا.. ألم تسمعي ما قال الشاعر:

ألم تعلما أن الندامة نفعُها .. قليلٌ إذا ما الشيء ولَّى وأدبر

فقومي الآن واذهبي إلى حبيبك واقضي هذه الليلة بالصفاء معه.. فعند ذلك قامت قمر السُكَّر فرحةً قاصدة حبيبها.. لكنها لما فتحت الباب رأت أنه قد أصبح الصباح وأشرقت الشمس على البطاح، فأنارت الدنيا وكشفت كل الغوامض فحينئذٍ رجعت قمر السُكَّر إلى حجرتها كئيبة حزينة نادمة على ما فرط منها وقضت ذاك النهار بالبكاء والنحيب، لأن ذكر حبيبها كان يحرك شوقها إليه وسكرها من خمرة العشق، وكانت تؤثر الموت على هذه المصيبة لكون حسن حبيبها لم يغب عنها برهة وجيزة ليغيب عنها الحزن وتذكرت قول الشاعر:

أأخشى ضلالاً في هواك عن الهدى ولي من سنا هذي المحاسن هادي

فليتك إذا حلَّت قتلي في الهوى مننتَ وما حلَّت طيب رقادي

فبقيت على هذه الحالة حتى وفد المساء فحينئذٍ تزيَّنَتْ بالحُلل الفاخرة والحلي الثمينة، وأتت قفص الببغاء وعلامة الغضب تلوح على وجهها وقالت له بكل حنق:

– أيها الببغاء الكاذب.. قد أطلعتك على أسراري واستشرتك في أمري طاعة لأمر زوجي، وطلبت منك دواءً شافيًا لدائي، فأخذت عهدة ذلك على عاتقي وتعهدت به أمام الله، لكنك لم تفِ بوعدك بل صرت تسعى بأن تحول بيني وبين مرامي.. فسلكت طريق الغش والخداع وتظاهرت بالمحبة والاستقامة وأكمنت لي ما في قلبك من البغض والضغينة وقصدت إهلاكي بألم العشق فأشغلتني بسماع حكايات لا فائدة منها، وحرمتني النوم والراحة، فالله العظيم العالم بالغيب والعارف في باطنك من الشر والبغضاء يجازيك على هذه الخيانة بالسعير جزاءً الخائنين الخادعين، فلماذا أكمنت الشر لمن واصلتك بالإحسان وكيف نسيت نعمتي، وما أبديته معك من الجميل، فأنت متروم إهلاكي، وحيث قد نكثت العهود فوالله العظيم القهار الجبار المنتقم من النجار والأشرار لأقلتنك شر قتلة وكمثل الببغاء المنافقة التي حزوت حزوها فموتاً تموت.

فعند ذلك خاف الببغاء خوفًا شديدًا وبقي متحيرًا مرتجفًا من الرُّعب، لأنه يخشى هذه المرأة القاسية، ولم يكن يدري ما العمل لأنه إن تكلم خشيَ من ازدياد غضبها، وإن سكت هلك لا محالة ففكر في وجه الحيلة ليدفع عن نفسه ثم نظر إلى قمر السُّكَّر بعين اللطف والبشاشة وقال لها:

– يا سيدتي أي ضرر لحقك مني حتى غضبت عليَّ وقصدتِ إهلاكي مع أنني لم أفتر قط عن نصحك ومساعدتك، وقد بذلت لذلك الجهد المستطاع وكلفت نفسي ما لا تطيقه من العناء والتعب، وقد حُرِّم عليَّ النوم لأنني قضيت الليالي برمتها ساهرًا متفكرًا في أمرك، والله يعلم حبي لك، وإنما أسهبت لك المقال لأُعلِّمك فوائد لابد من معرفتها حتى تكتسبي الكمال في كل شيء، واجتهدت في آخر الأمر بكتم سرك حتى لا يطلع أحد عليه.. ومع ذلك فالله عليم بذات الصدور فإن كان في قلبي شر فليمتني في هذه الساعة. فكيف توهَّمت أني سعيت في هلاكك وكيف يليق بكِ أن تتفوَّهي بمثل هذا الكلام، وأما أنا فإني أدرك لذلك لأن الهوى قد خيَّم على قلبك والله الذي يجازي كُلاًّ بحسب أفعاله.. يجازيني على أمانتي ويظهر لك فيما بعد خلوصي حبي ووِدادي. وقالت قمر السُّكَّر:

– أيها الببغاء ما الفائدة من كلام طائر أحمق نظيرك لا يعرف شيئًا ولم يبرز قط إلى العالم فكيف أذعن لأقوالك وأسير حسب مشورتك فأجابها الببغاء:

– يا سيدتي العظيمة.. لماذا تتكلمين بمثل هذا الكلام وقد اتضح لكِ مرارًا ما أنا عليه من الحكمة والعقل.. غير أنك توهمت أنني من جنس الطيور فأكون مثلهم مثلهم عديم الإدراك ولكن يجب على العاقل أن لا ينظر إلى المتكلم بل إلى ما تكلم به لأنه قيل " لا تنظر إلى من قال بل انظر إلى ما قاله "فعليه يجب على الإنسان العاقل إذا كان المتكلم حقيرًا أو عظيمًا.. صغيرًا أو كبيرًا .. من جنس البشر أو خلافهم. بل يجب عليه أن ينظر إلى كلامه ويسيِّره بمعيار الامتحان لأنه كثيرًا ما يوجد بين الفقراء من يكون أعقل من الغني.. وكثيرًا من الحيوانات من يكون أفهم

من الإنسان، ومن نظر إلى المتكلم ولم ينظر إلى كلامه فلا تكون عاقبته سليمة ومن صرف النظر عمن قال ونظر إلى ما قال فذاك هو سعيد الجدير فصدرفت بالفوز والإقبال ويشابه ابنة ذاك الغني الخرساني التي سمعت نصيحة الثعلب وعملت بموجبها فصرفت النظر عن دناءة شأنه، واستصوبت كلامه وهذه حكاية مشهورة عن العقلاء.

فقالت قمر السُكَّر ... وكان قد سكن غضبها:

وما هي هذه الحكاية.........؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في قديم الزمان عند أحد ملوك خراسان وزير فاضل اسمه (بر ممالك)، وكان هذا الوزير من ذوي العقول الفريدة خبيرًا بأحوال المملكة ومحبًا للرعية، فرزقه الله ولدًا قبيح المنظر شنيع الصورة ومن كان ينظره مرة واحدة كان يتجنب أن يراه مرة ثانية، وكما أن يوسف ابن الكريم عليه السلام كان خاتمة الجَمال كان هذا الغلام نموذج الشناعة وقُبح المنظر.. وفضلاً عن ذلك فإنه كان غليظ الطباع جبارًا عنيدًا، لا يقدر على مصاحبته أحد من البشر.. ولكن حيث إنه كان وحيد أبيه كان أبوه يحبه حبًا شديدًا، ولم يكن يشمئز من صورته الكئيبة، وقد قيل "كل فتاة بأبيها معجبة" وعليه فلم يكن أبوه يستحي منه أمام الناس، بل كان يفتخر به حتى ذهب الراوون إلى أنَّه ما من أب أحب ابنه كما أحب هذا الوزير ولده.

ولما بلغ هذا الولد سن الرجال أخذ أبوه يهتم بتزويجه، وشرع من ثَمَّ يبحث له عن ابنة بديعة الجمال حميدة الخصال، فوفق الله مسعاه وأتاه مبتغاه، فعثر على بكر جميلة المنظر، وكانت ابنة أحد أعيان المملكة الممتازين بالشرف والوجاهة والثروة والغنى، فعقد الزواج وأقام زفافًا حافلاً وأهَّل ابنه لهذه الفتاة الجميلة، وبقدر ما كان ابن الوزير قبيح المنظر كانت هذه الفتاة جميلة الصورة حاوية من الرقة واللطافة ما يكِلُّ عنه الوصف.. ولما كانت تتزين بالحُلي والملابس كان يزداد بهاؤها، فتعجِّل نور البدور، ولما كان زوجها يتسربل بالملابس الفاخرة كان يزداد قبحُ منظرِهِ فصح فيهما ما قاله الشاعر:

خضبت أناملَها فخضب شيبَه .. ليرد بالتمويه عصر شبابِهِ
فازداد قبحًا حين زاد جمالُها .. شتان بين خضابها وخضابِهِ

ولم تقض هذه الزوجة مع زوجها إلا أيامًا قليلة حتى ضجرت مـ ـن مصـ ـاحبته، وكانت في غالب الأوقات تبكي وتنوح على مصيبتها وسوء حظها، فضعف جسمها وعِيلَ صبرُها ولم يعد لها طاقة على هذه الشناعة.. ففي ليلة ما إذ كانـ ـت راقـ ـدة بجانب زوجها علف عليها الحزن والكمد فقامت عند انتصاف الليل وتركته راقـ ـدًا، ووقفت في كُشكٍ يطل على الصحراء وجلست هناك متفكرة ببلواها وعاقبة أمرهـ ـا، وكلما كانت تفتكر بقباحة وجه زوجها كانت الدموع تهطل من عينيها.

وفي خلال ذلك سمعت صوتًا من الصحراء، وكانت تشعر باقترابه منها رويـ ـدًا رويدًا حتى وصل إلى تحت الكُشك.. فنظرت المرأة فرأت شابًا جميـ ـل الصـ ـورة وعلامة الشجاعة تلوح على وجهه، فشغفت بحبه ونادته بلسان الألـ ـم وشـ ـكت لـ ـه أمرها وسوء حظها وما تقاسيه من شناعة زوجها وقبح منظره وغلاظـ ـة أخلاقـ ـه، وكانت تكلمه بكلام فصيح لتحرك رأفته، وترجَّتْهُ بأن ينقذها مـ ـن هـ ـذه المصـ ـيبة العظيمة.

فلما سمع هذا الشاب كلامها رقَّ لها ووعدها بأن ينقذها من مصيبتها، وكان هذا الشاب اسمه (مُغني). فعند ذلك تبدل حزنها فرحًا، وقامت لساعتها وأتت مخـ ـدعها وأخذت من الذهب والجواهر الثمينة ما كان خفيف الحمل جدًا وتزيَّنَتْ بأفخر الحلي والملابس، وخرجت من بيتها لتوافي هذا الشاب الذي حكان ينتظرها تحت الكُشك.. ولما وصلت إليه أخذ يتفرَّس فيها فإذا هي جميلة المنظر وعليها من الحلي الفـ ـاخرة والملابس الثمينة ما يكِلُّ عنه الوصف، وعند ذلك فرح فرحًا عظيمًا وأخذها بيـ ـدها وسار بها حتى قطع مسافة طويلة، فأفضى إلى نهر عظيم لم يكن له قنطرة ليعبروا عليه فعند ذلك تحيرا في أمرهما فقال (مُغني) للمرأة:

– إنني تعلَّمت السباحة من صغري.. فانزعي عنك ثيابك وكل مـ ـا معـ ـك مـ ـن الحلي والجواهر وضعيها في سرة، وأنا أعبر بها النهر فأضعها على الشاطيء، ثم أرجع إليك وأعبر بك .. فأذعنت له المرأة لسذاجتها وأعطته كل ما كـ ـان معهـ ـا..

وأما (مُغني) فأخذ ذلك كله وعبر به النهر سابحًا، ولما بلغ الشاطيء الآخر وقف هناك متفكرًا ثم قال في نفسه:

– إن الله يسر لي كنزًا عظيمًا ولا شك أنني إذا اصطحبت هذه المرأة ربما تفعل بي مثلما فعلت مع زوجها الذي أسعدها بكل هذه الجواهر.. إذ أنني أعرف أن المرأة إذا هي خانت زوجها فإنها على استعداد أن تخون كل من تعيش معه.. ولذا أيها الرجل فالأولَى بك أن تفرَّ هاربًا بهذا الكنز الثمين.

وانتظرت المرأة أن يعود إليها الرجل ولكنه لم يعد.. ووقفت تنادي وتنادي وتجري كالمجنونة، وقد عرفت أنها كانت ضحية نَصْب واحتيال، وأن الرجل قد فضَّل الجواهر عنها.

وظلت عدة ساعات وأيامًا تسير بين المزارع والحقول وهي تبكي وتولول ولكن دون جدوى.

وفيما هي غارقة في أحزانها إذْ ظهر إمامها ثعلب فخافت منه، ولكنه لما رأى حالتها وقد أحس بما هي فيه راح يطمئنها قائلاً:

– لا تخافي أيتها المرأة.. لأنه يكفي العذاب الذي أنت فيه، ويكفي التعاسة التي تعيشينها إذْ أن دماء الخيانة والغرور تجري في عروق المرأة منذ الأذل، وحيث قد خالفتِ أمر الله تعالى وملتِ إلى الحرام، فقد أوصلك إلى هذه الدرجة من الشقاء تأديبًا لك، فاندمي على ما فرط منك وتوبي إلى الله تعالى، وارجعي في هذه الساعة إلى زوجك وإن كنت تخشين انتقامه فأنا أعلمك حيلة تتخلصين بها..

فسألته المرأة:

– وما هي هذه الحيلة؟

فأجابها الثعلب:

لا تتأسفي الآن على ما فاتك إذ قد سبق السيف العزل، ولكن... إن زوجك وأقاربك إذا لم يجدوك فلا ريب أنهم يفشون عليك ويفحصون أحوالك، ليعلموا سبب

فرارك فلكي تنجَيْن من القصاص تظاهري بالجنون عندما يجدونك فيخافون عليك خوفًا شديدًا، ويشرعون في مداواتك فتقدّمي حينئذٍ نحو الصحة رويدًا.. وإذا سلكت على هذا المنوال تبقَى أحوالك مستترة وتتخلصين من القصاص.

فلما سمعت المرأة هذا الكلام حسن لديها، فشكرت الثعلب وعملت حسب وصيته، ورجعت إلى بيتها متظاهرة بالجنون ونجت من كل أذية، فدعا زوجها بالأطباء الماهرين لمعالجتها، فصارت كل يوم تتقدّم نحو الصحة حتى رجعت حالتها الأولى.

فالآن يا قمر السُكَّر لو أن هذه المرأة لم تذعن لنصيحة الثعلب لما كانت نجت من الهلاك، لأن هلاكها كان أمرًا محتومًا لو يعلم زوجها بحقيقة أمرها، فينتج من هذه الحكاية ما للنصيحة من النفع والفوائد، ولنصائحي أيضًا فوائد جمة سوف تظهر لك.. قال هذا وسكت خشية من ضجر قمر السُكَّر من إطالة الحديث.. وأما قمر السُكَّر فتأثرت من قول الثعلب لتلك المرأة: (فأنت أيضًا أعرضت عن زوجك وطمعت بغيره.. وملتِ إلى الحرام) فهيَّج هذا الكلام الضغينة في قلب قمر السُكَّر وأضرم جذوة غضبها على الببغاء فنظرت إليه بعين الغضب وقالت له:

– أيها الطائر الخائن الذي دأبه المكر والخداع، إن كلامك يباين أفعالك لأن قولك يدل على صفو الوداد، وأفعالك تؤول إلى إلحاق الضرر بي وعدم نوال بغيتي، فلِمَ هذه الخيانة مع ولية نعمتك.. وإذا أكمنت البُغض فلِمَ تظهر المحبة، وإذا كنت لا تريد أن أذهب إلى حبيبي فلماذا تُظهر أنك تبغي ذلك من صميم الفؤاد.. فبذلك قد أصبحت آلة لعذابي، لأن محاولتك قد رمتني في حيرة عظيمة، إذ أنني لو لم أطلعك على أسراري لما كنت توصلت إلى هذه الحالة الشقية، وحيث قد تحقق لي بغضك وخيانتك فصرت في غنى عنك ولا عدت أريد منذ اليوم أن أذهب إلى حبيبي، ولا أسمع نصائحك لأنها سبب عذابي، فورب الكعبة لأصنعن بك وأفعلن.

فلما سمع الببغاء هذا الوعيد خاف خوفًا شديدًا، ولم يعارض قمر السُّكَّر في كلامها خشية من ازدياد غضبها فانصرفت قمر السُّكَّر من عنده، ولزيادة كدرها لم تذهب إلى حبيبها في تلك الليلة بل ذهبت إلى مخدعها، واستقلت على فراشها وقلبها يتمزق من الغضب، ولهذا لم تذق لذة الرقاد بل كانت كل ساعة تنهض من فراشها كالمجنونة وتتمشى في حجرتها حتى الصباح، وعند ذلك ضعف غضبها وصارت تفكر في مداواة دائها والتخلص من هذه الحالة الشقية.. وحيث لم يكن لها معين سوى الببغاء ندمت على ما فرط منها بحقه، وقالت في نفسها:

– حقًا ليس لي عون بعد الله إلا الببغاء فيجب أن أعفو عنه، لأنه لم يسد عني أن أعاديه إذ ليس لي منجد سواه. ويجب أن أذهب إليه عند المساء وأعتذر له عما فرط مني بحقه.. وينبغي من الآن فصاعدًا أن أراعيه بالإحسان وأعامله بالمعروف، لأنني إن عاديته وأعرضت عن مسامرته فمَن يكون لي صديقًا ومسامرًا، فيجب من الآن أن أتركه على هواه، وأن لا أعاتبه على ما يفعل، لأنه يظهر أن قلبه لا يخلو من الحب لي، بدليل سهره الليالي ليسكبني بعض فوائد أجهلها، وإذا كان للآن لم يدرك بي الوتر فربما يكون ذلك لسبب لا أدركه، فلا يسوغ لي إذن أن أتهمه بالعداوة لأنني لم أرَ منه قط ما يدل على ذلك. قالت هذا وصممت على أن تأتي الببغاء مساءً وتعتذر له.

هذا ما كان من أمر قمر السُّكَّر .. وأما ما كان من أمر الببغاء فإنه لما رأى سيدته قد غضبت عليه خاف على نفسه وأيقن بالهلاك، لكنه طمع برحمة الله تعالى وتوكل عليه وطلب منه النجاة وقال في نفسه:

– إنَّ جنس بني آدم خادع مكار لا عهد له ولا وفاء، فإنه كثيرًا ما يجور على أصحابه ولا سيما إذا كان صديقه ضعيفًا، ومكائد النساء كثيرة قلما ينجو منها أحد، لأن فطرتهن مجبولة على القساوة وصح فيهن قول القائل:

وتَوَقَّ من شرِّ النساء خيانةً ·· فجميعهن مكائدٌ لك تُنصَبُ

لا تـ .أمن الأنثـ .ى زمانـ .ك كلّـ .ـه .. أبـ دًا ولـ و حلفـ ـت يمينـًا تكـ ـذبُ"

تغـ .ري بلـ .ين حـ .ديثها وكلامهـ .ا .. وإذا سطت فهـ ي الثقيـل الأشـ طبُ

وبما أن الله تعالى على كل شيء قدير فربما ينزع البغض من قلب هذه المـ رأة لأنه قدير على أن يغير قلب الإنسان من حالة إلى أخرى فندع إذن المقادير تجري، إذْ لابد من تغيُّر الأحوال.

دع المقـ ـادير تجـ ـري فـ ـي أعنتهـ ـا .. ولا تبيـ .ـتن إلا خـ .ـالي البـ .ـالِ

ما بـ ين غمضـ ـة عـ ين وانتباهتهـ ـا .. يغيـ ـر الله مـ ـن حـ ـالٍ إلـ ـى حـ ـالِ

فالمنتظر الآن ما يكون من قمر السُّكَّر التي ما برحت قط أعاملهـ ـا بـ ـالمعروف وأسهر الليالي لأجلها، وحيث إنها عاقلة فلا أخشى منها، لأنه قيل: "عدوٌ عاقلٌ خيرٌ من صاحبٍ جاهل" فلا ريب بأن تتذكر ما أبديته معها من المعروف وقلبي مطئمن من نحوها، لأن قلبها لا يخلو من شعائر الرأفة.

فلما أتى المساء قامت قمر السُّكَّر وأتت قفص الببغاء لتصالحه وتعتذر له عمـ ـا فرط منها من سوء المعاملة، فحيته بكل بشاشة ووقفت تستبشـ ـر الببغـ ـاء وتسـ كن روعه، لأنه تيقن بأن قمر السُّكَّر رضيت عنه فطابت نفسه وأخذ يفكر فـ ـي وجـ ـه الحيلة ليبقيها عنده تلك الليلة، فنظر إليها مبتسمًا وقال لها:

يا سيدتي العاقلة الحكيمة لماذا غضبتِ عليَّ، وقد نَعَتِّيني بالشـ ـتائم واتَّهمتيـ ـي بالمكر والخداع مع أنني والله معتصم بالاستقامة وأحبك حبًا وافرًا، وما أكمنت قـ ـط شرًا لمن كان يبغضني، فكيف أفعل ذلك مع التي هي من أعز أصحابي وأظهـ ـرت لي الأيادي البيضاء وعاملتني باللطف والإحسان، والله تعالى يعلم قدر حبـ ـي لـ ـك لأنني كنت أسهر الليالي لأرشدك لطريق الاستقامة، ولأدرك بـ ـك متبغـ ـاك بكـ ـل سهولة وحفظت أسرارك في طي الخفايا. أفهذا هو جزائي منك؟ وأما أنا فلا ألومك لغلبة الهوى عليك، لأنه غشيَ بصرك وختم على قلبك، ومع ذلك فإذا كنت تريدين

أن أنصحك فأنا مستعد لذلك وإلا فمالي وللنصيحة. قال هذا وسكت لير ى بمـ ـاذا تجيبه قمر السُّكَّر.

فلما سمعت قمر السُّكَّر هذا الكلام خجلت جدًا من الببغاء وقالت له:

– إن خلوص حبك لي هو معلوم عندي وما فرط مني لم يكن عن بغـ ـض، بـ ـل لفرط الهوى الذي جعلني أغيب عن الصواب، ولذلك كنت تارةً أتحسر على نفسي، فأرجو صرف النظر عما بدا مني ولا تحرمني نصائحك واجتهد حسب عادتك بأن تبلغني مرادي، ولكن إذا غلب عليَّ ألم العشق وقادني إلى سوء الظن فيك فيكفي أن تحلف لي يمينًا بأنك مجتنب الخيانة حتى يرتاح ضميري نحوك، وليس ذلك لعـ ـدم ثقتي بك بل لأن الطبع البشري ضعيف جدًا، ومتى غلب عليَّ العشق فلا محال أنه يوقع في قلبي الشبهة. فأجابها الببغاء:

– يا سيدتي إن الإنسان الصادق يُعرف من كلامه، وكلامه يدل على ما في قلبه من المحبة والبغض، ومن ثَمَّ فلا حاجة لليمين، وحيث قد قضيت معك أيامًا طويلـ ـة فلابد من أن تكوني قد اختبرتِ أحوالي وتأكَّد لك صدق كلامي لأن شيمتي الصدق فهو الذي يزيد الأصحاب ويورث صاحبه الإهابة ولله در من قال:

الصـ ـدق يـ ـورث قائليـ ـه مهابـ ـةً .. سِرْ نحـ ـوَه نعـ ـم الطريـ ـق طريقُـ ـهُ
واحفظ بـ ـه عهـ ـد الصـ ـحاب فإنـ ـه .. من قل منه الصـ ـدق قـ ـل صـ ـديقُهُ

فكوني إذن يا سيدتي بطمأنينة فكر، وإن بقيت غير مطمئنة فأحلف لـ ـك يمينـً ـا فوالله العظيم القهار الجبار ورسوله سيد المرسلين إنني ما سعيت قط بما يضـ ـرك.. وما أكمنت لك بُغضًا بل ما فَتُرْتُ قط عن مساعدتك، وإن لم أسع في تبليغك مرادك فتكون عاقبتي كعاقبة من تقلد السيد منصور. فقالت له قمر السُّكَّر:

وما هي حكايته........؟.

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان قي قديم الزمان في بلاد السودان تاجر اسمه (السيد منصور) وكان على جانب عظيم من الفطنة والغِنَى، ولزيادة حظه كان له زوجة بديعة الجمال حميدة الخصال اسمها (صالحة) وبالحقيقة إن الاسم كان مطابقًا للمُسمى حتى أنه كان يضرب بها المثل في بلدتها بالحسن والجمال والعفة والفضائل.

فيومًا من الأيام عزم (السيد منصور) على السفر إلى بلاد الناس، وأخذ إذْ ذاك يتأهَّب ولما جمع كل ما يلزمه ودَّع زوجته وسافر، فبقيت (صالحة) حزينة لفراق زوجها ومضتْ أيامٌ وشهورٌ وهي تترقب رجوع زوجها بكل شوق وتأسف، وكان بالقضاء والقدر أنه كان في تلك المدينة شاب فاسق اسمه (فرعي) كان يتردد على العواهر ويتوق يومًا ما إلى الفاحشة، وكان يدخل بيوت الناس بكل شجاعة رافعًا قناع الحياء، فيومًا ما نظر صالحة زوجة السيد منصور ففتن بها.. وهام بحبها. لما كانت عليه من الجمال وصار منذ تلك الساعة يحاول التقرب منها وكان عشقه يزداد يومًا بعد يوم.. ولما لم يجد حيلة للتوصل إليها أخذ يطوف في البراري ولزيادة عشقه غاب عن الصواب ونحل جسمه وضعفت قواه، لكنه في آخر الأمر سمع بخبر عجوز خادعة ماكرة فاتها (فرعي) وأخبرها عن حاله وتشوقه إلى مواصلة تلك المرأة وطلب منها أن تسعى له في نوال غايته وأن يعطيها كل ما تريده.. وحيث إن العجوز كان دأبها مساعدة العشاق تعهدت له بنوال بغيته ففرح (فرعي) جدًا فرحًا عظيمًا لأنه تيقن بلوغ المراد بواسطة هذه العجوز المحتالة فشكرها على ذلك وانصرف.

فقامت العجوز لساعتها وذهبت إلى بيت السيد منصور فاستقبلتها زوجته (صالحة) بكل ترحاب، حيث قد ظنتها ضيفاً، وقد أخذت تحدثها بكل لطافة فأخذت

العجوز تبذر الكلام الفاسد لتغري صالحة على العشق، وتبين لها ما أصاب فرعي بسبب هيامه بها، وأنه أصبح كالخيال من فرط الوجد والغرام، وكانت تصفه بجميع الصفات الحميدة حتى تستميل صالحة إليه.. فلما سمعت صالحة كلام العجوز بمكرها وخداعها وأنها أتت إليها لتقودها إلى الشر والفاحشة، وحيث إنها كانت معتصمة بالصون والعفاف اشمئزت من هذا الكلام واتقدت في فؤادها جذوة الغضب.. فنظرت إلى العجوز وقالت لها:

– خزاك الله أيتها المكارة الخادعة، أفٍّ عليك من ممازقة محتالة تحارب النقاوة والطهارة، كيف تجاسرت يا وقحة أن تُقبلي على مثل هذا الكلام وتسعي في هتك ستري وحرمتي فبريت أنا من يمين الله إن تركتك تخرجين من بيتي سالمة لأنك جديرة أن تُقتلي.. وتطرح جُثتك للوحوش حتى لا تُرحمي لا من عدوك ولا من صديقك.. لأن التي مثلك لا تستحق الرحمة بل اللعنة والقصاص جزاءً لخداعك لتكوني بذلك عبرة لمن يعتبر. فلما رأت العجوز غضب هذه المرأة وسمعت كلامها خافت خوفًا شديدًا. وفي الحال أسرعت هاربة لتنجو من الانتقام، وأتت (فرعي) وأخبرته عن قساوة هذه المرأة وعمَّا قاسته منها من الخوف والرعب وقالت له:

– والله العظيم إنني في مدة حياتي نظرت من النساء الوفا وربوات، ولم أعجز عن خداع واحدة منهن، وأما هذه المرأة فلم أر مثلها وما رأيت قط مثل صلابتها وشراسة طبعها، لأنها وثبت عليَّ أكثر من مرة لتقتلني ولو لم أحسن التدبير لهلكت لا محالة، لأن مكايدها لا توصف وطبعها ينفر من أدنى كلمة تنافي الطهارة، ومن ثم لا عدتَ تطمع بوصالها، لأن دون بغيتك خرط القتاد إذ أنني جربت أخلاق النساء، ولم أر مثل هذه المرأة فكأنها خالية من الشهوة النفسانية لأنها لم تتأثر قط من كلامي الذي من شأنه أن يقتاد الصخور إلى كلام العشق، فاتركها إذن.. واطلب غيرها إذ ما من شيء أكثر من الغواني الحسان في هذه المدينة. قالت هذا وسكتت.

فلما سمع (فرعي) كلام العجوز التي كان قد ألقى اتكاله عليها اعتراه حزنٌ جسيم كاد يقود إلى القبر، ولما يئِسَ من نوال المرغوب عزم على ترك دياره

والسفر إلى بلاد بعيدة.. لينجو من الهلاك عشقًا وهيامًا لأنه قيل إن دواء العشق ترك الديار والتغرب إلى بلاد الناس لأنه يعرض له في سفره ما ينسيه معشوقة.. وحيث إن (فرعي) لم يتمكن من الاصطبار عزم على السفر لينسى معشوقته، فأخذ من ثم يتأهّب للسفر، ولما أتم استعداده سار مسافرًا إلى أن وصل إلى بلدة عظيمة فوجد فيها صومعة يسكنها زاهد عابد قد انقطع لله تعالى، وكان هذا الزاهد تقيًّا ورعًا مواظبًا على الصلاة في تلك الصومعة التي كان قد بنى فيها معبدًا لله تعالى وكان قانعًا بالفقر وراغبًا عن احتشاد الأموال الزائلة، فتقدّم (فرعي) إليه وقبّل يديه وطلب بركته واستمد دعاءه وتقيَّد بخدمته وبقي عنده نحو سنة كاملة لا يتهامل مطلقًا بخدمته، حتى اندهش الزاهد من ذلك وخجل منه خجلاً عظيمًا، لأنه كان عاجزًا عن مكافأته فدعاه يومًا ما إليه وقال له:

– أيها الفتى النجيب إنني قد أُعجبت من الخدمة التي أبديتها لي في كل هذه السنة، وصرت مخجولاً منك لأنني فقير الحال لا أملك شيئًا أُكافئُك به، وفضلاً عن ذلك لا يليق بك أن تخدم رجلاً مثلي هو أدنى الخلائق لأن خدمتي تلحق بك الذل والعار، ولكن حيث إن الله تعالى قد خص كل خليقة بموهبة، فكما أنه حرمني من الذهب والفضة فقد أعطاني مواهب تجلِبُ عند الاقتضاء أعظم المنافع، وهي أنني أعرف اسمًا شريفًا فجزاءً لخدمتك أُعلِّمكَ إياه وبواسطته تنال بكل سهولة كل ما ترغب فيه، بشرط أن تجتنب المحرمات وتبتعد عن كل معصية، فإذا أخليت قلبك من كل دنس نلت كل ما تشاء، فتعهد له (فرعي) بأن يفعل حسبما أمره به ومن ثم علَّمه الزاهد الاسم الشريف فحفظه (فرعي) ورجع إلى بلده وبعد وصوله أتت على ذكره زوجة السيد منصور فهاج قلبه واستفاق غرامه فلفظ الاسم الشريف الذي تعلمه من الزاهد وطلب أن تتغير هيئته ويسير مثل السيد منصور ففي الحال تغيرت صورته، وصار مثله حتى أنه لم ينظر أحدٌ إلا وقد ظنه منصور.. فلما رأى ذلك قام ذات مرة عند بلوج الصبح وأتى بيت السيد منصور وقرع الباب فأدخلوه بكل ترحاب وفرحوا فرحًا عظيمًا بقدومه ظانين أنه سيدهم.. أما صالحة فلما علمت

بقدومه قامت لملاقاته وسلمت عليه وقبّلت يديه وهنَّأته برجوعه، وسألته عن أحواله لكنها لما رأته آتيًا وحده ولا شيء معه سألته قائلة:

– أين الخدم الذين كانوا معك، والأشياء التي أتيت بها من بلاد الناس.. فأجابها (فرعي):

إنني أتيت بأشياء كثيرة ثمينة ولكن لما وصلنا إلى المحل الفلاني عرض لنا اللصوص، فوثبوا علينا وقتلوا كل من كانوا معي من الخدم، وغنموا كل ما جئت به من نفائس الأمتعة، ولم أنج من بين أيديهم إلا بالقوة الربَّانية ففررت هاربًا، ولطمعهم بما غنموا لم ينهالوا في أثري ليقتلوني وبعونه تعالى نجوتُ من الهلاك ووصلت إلى بيتي بالسلامة. فأجابته صالحة:

– الحمد لله تعالى الذي أنقذك من التهلكة، وما غنمه منك اللصوص فإني غير مأسوفة عليه، لأنه يكفيني سلامتك ووجودك بتمام الصحة والعافية، لأنك أنت عوني وملاذي وتعذيتي وسلواني. وأنشدت شعرًا:

لا أستعين بأنصارٍ ولا عددٍ ... ولا بجاهٍ ولا مالٍ ولا ولدِ
بل أنت أنت الرجا يا خير معتمدي ... لولاك ما خُلقت روحي ولا جسدي

ومع ذلك فإن المال خلق لقضاء حاجات الإنسان، ومتى فُقد من يد مالكه فيرجع إليه بطريقة أخرى... وأما إذا لا سمح الله فُقدت الحياة فلا تعود ترجع إليك قط، والله الذي على كل شيء قدير يعوّض الخسارة أضعافًا لأنه هو الكريم المنان، ولذلك يجب عليك ألا تحزن على ذلك لأنك وإن تكن قد فقدت مالاً وافرًا فإنك تملك أيضًا مالاً لا يُحصى. ومن ثم أخذت تعزِّيه وتسلِّيه لأنها لم تشتبه فيه قط.

أما وجود (فرعي) في الدار فكان كوجود الغريب فيها.. لا كوجود صاحبها، لأنه لم يكن يعرف محلاتها فنظرت صالحة ذلك، وفي الحال وقعت الشُبهة في قلبها، وقالت في نفسها:

– إن هيئته هيئة زوجي وكلامه كلامه، ولكن بين أوصافهما تفاوت، وقد اشتبهت به من جولاته في الدار كالغريب، إذ أنني لاحظت عليه كأنه لم يدخل قط هذه الدار وكيف كان الأمر، فيجب أن أصبر بعض أيام ولا أعطيه الدلالة لأسبر حقيقة أمره، فإن طلب مني حقه فأدفع عن نفسي بحيلة] أحتال بها حتى لا تمس طهارتي لئلا أكون مفضوحة ومذمومة بين النساء.. ولما ظل المساء أكل معها وشرب بكل سرور، وبعد ذلك ذهب بها إلى خباءته وطلب منها ما يطلبه الرجل من امرأته.. فأبتْ صالحة واعتذرت له بعذر النساء.. وفي اليوم الثاني طلب منها ذلك فاحتجت أيضًا بعذر ودفعته عن نفسها، وكذا كان في اليوم الثالث والرابع حتى مضى عشرة أيام على هذا المنوال ولم يعرفها.. ولكن بعد ذلك لم يعد يُمكنها أن تحتج بالعذر المنوّه عنه لأن مدته معلومة، ولم تجد حيلة لمنع (فرعي) عنها إلا بتظاهرها بالمرض.. فعند ذلك تمارضت ورقدت في الفراش وتظاهرت بالإضامة وبهذه الحيلة دفعت (فرعي) عنها غير أنها أخيرًا اعتراها مرض حقيقي فأضناها وأضعف جسمها فحزن (فرعي) لذلك حزنًا مفرطًا ومن شدة عشقه جلس فوق رأسها، ولم يكن يفارقها لحظة واحدة، وكان يقضي ليلة ونهاره جالسًا على فراشها ناظرًا إليها باكيًا نائحًا، وكان يتظاهر بالمحبة والحنية الزوجية، لم يكن ذلك منه إلا من فرط العشق والهيام، وما زال على تلك الحالة حتى وفد يومًا ما (السيد منصور) زوج صالحة.. وعند وصوله دخل دار حرمه فرأى زوجته راقدة في فراشها وفوق رأسها رجل يشابهه جدًا فنظر إلى زوجته مندهشًا متحيرًا، وتحركت في قلبه نار الغيرة والغضب فوثب على (فرعي) الشقي وقبض على لحيته وضربه ضربًا شديدًا وقال له:

– لماذا دخلت أيها الفاسق على حرمي.. وماذا تصنع هنا.. فأجابه فرعي:

– أخرج من هنا أيها الملعون.. فلماذا تدخل بيتي وتنظر إلى حرمي المخدرة.

فقبض على عنق (السيد منصور) وضربه واشتد عند ذلك الخصام بينهما فتضاربا ضربًا شديدًا، وكان كل منهما يقول للآخر: أخرج من بيتي... لماذا تدخل

على زوجتي.. فتباعد صوتهما وصراخهما وبقيت صالحة حائرة مندهشة لا تدري ما العمل فاجتمع عليها جمعٌ غفير وحاولوا منع الضرب والمشاجرة فـ أعيوا وازداد المتخاصمان غضبًا، وكان كل منهما يهجم على الآخر حتى يكاد يقتلـ ـه، فأرسـ ـلت الحكومة بعضًا من شرطتها فألقوا القبض عليهما، واقتادوهما إلى المحاكمة، وبعـ ـد أن قرر كل منهما دعواه وقف القاضي متحيرًا مندهشًا وعاجزًا عـ ـن فصـ ـل هـ ـذه الدعوى لتشابه المتداعين تشابهًا كليًا، فبرز من بين الحاضرين رجل عاقـ ـل وقـ ـال للقاضي:

– دع هذه الدعوى فأنا أتعهد بفصلها بعون الله تعالى. فاستحسن القاضي رأيـ ـه ليتخلص من المشقة وارتضى المتخاصمان بتحكيمه عليهما، فعند ذلك طلـ ـب هـ ـذا الرجل إحضار (صالحة) بين يديه.. فلما أتت نظر إلى المتداعين وقال لهما:

– إن كُلاًّ منكما يدّعي هذه المرأة زوجة لها وتشابهكما بالصورة قد أوقع إشكالاً عظيمًا في معرفة الحقيقة، فلا يخلو الأمر من أن يكون أحدكما منافقـ ـًا، قـ ـد تقلـ ـد صورة الآخر بواسطة السحر، ولكن حيث إن كل إنسان لا ينسى ليلة زفافـ ـه ومـ ـا فعله فيها فأريد أن يقرر كل منكما ما فعله في تلك الليلة. فدعا أولاً السيد منصـ ـور واختلى به مع بعض العقلاء وسأله عن ذلك، فقرر السيد منصور كل ما حدث ليلة زواجه وكيفية دخوله على زوجته فتقيد إقراره في قرطاس وصرفوه.. ثـ ـم دعـ ـوا (فرعي) فقرر لهم أيضًا فقيدوا إقراره وصرفوه ثم دعوا (صالحة) وسألوها فقررت طبق ما قرره السيد منصور بدون زيادة ولا نقصان، فتأكد الحاضرون حينئذٍ مـ ـن صحة دعوى السيد منصور وبطلان دعوى فرعي فحُكم من ثم المحكـ ـم بـ ـالمرأة للأول ومنع الثاني من الدعوى بها.. وبعد أن تيقنوا حيلته ليسـ ـلب زوجـ ـة غيـ ـره عاقبوه أشد العقاب فعاد من الخاسرين وهلك من غلبة العشق عليه.

"فعش خاليًا فالحب راحته عنِّي .. وأوله سقم وآخره قتل"

فعند ذلك استتلى الببغاء كلامه قائلاً:

فالآن اعلمي يا قمر السُّكَّر إن كنت لا أجتهد لإبلاغك مرادك فأطلب من الله أن تكون عاقبتي مثل عاقبة هذا الرجل ويعاقبني الله بما تعاقَبَ به، ولكن حذاري مـ ن المماطلة فقومي في هذه الساعة واذهبي إلى حبيبك إذْ قـ د حـ ان وقـ ت الصـ فاء والانشراح. فلما سمعت قمر السُّكَّر كلام الببغاء فرحت فرحًا عظيمًا وقامت لساعتها قاصدة حبيبها، لكنها لما فتحت الباب رأت الشمس قـ د طلعـ ت فأنـ ارت العـ الم، وأظهرت كل مستتر في المدينة كما ظهرت حيلة (فرعي) ومراوغتـ ـه، فرجعـ ت حزينة كئيبة وقضت ذاك النهار متقلبة متحيرة منتظرة بفروغ صبرٍ انقضاء ذلـ ك النهار.

ولما وفد المساء تزيَّنَتْ وأتت قفص الببغاء وشكت له الشوق والهيام وقالت له:

– لقد أفنيت عمري بالمحال، ولم أنل مبتغاي لأنني لهوت بالحكايات عن السعي في نوال ما أرغب، ولم تُجْدِني هذه الحكايات نفعًا، بل آلت إليَّ الشقاء والتعاسـ ـة، فبالله عليك ترأف لحالي وعِدْني بأنك تجتهد في أن تبلغني مـ رادي ليرتـ ـاح بـ ـالي ويطمئن قلبي، لأن الوعد يسلي فؤاد الولهان الحزين ولو كان مقرونًا بالمماطلة.

فنظر إليها الببغاء بعين الرحمة والرأفة وقال لها:

– يا سيدتي قد حرم النوم على عيني لأنني أسهر الليالي لأنصحك، وأعلمك مـ ـا يجب أن تصنعيه في طريق العشق، ولذلك لم أفتُرْ دقيقة واحدة عن التفكر بأحوالك، وأردد في أفكاري ما يجب أن أنصحك به، وإنني والله لحزين مما أصابك، ولكـ ن أصغي إلى نصيحتي ولا ريب أنك ستنالين مرغوبك كما نال ابن ملك بابل ما كان يتمناه بسعي خالص ومخلص فسألته قمر السُّكَّر:

وكيف كان ذلك..........؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

زعموا أنه كان في قديم الزمان في مدينة بابل الشهيرة ملك عظيم عادل، وكان له ولدان على غايةٍ من النجابة والطاقة، اسم الكبير منهما (همايون بخت) والصغير (فرخ بخت) وكانا يحبان بعضهما حبًا شديدًا، فحل القضاء المقدر على والدهما الملك بعد أن عاش طويلاً، وبحسب أصول الوراثة خلفه في الملك ابنه الأكبر الذي كان حكيمًا عاقلاً عارفًا بأحوال المملكة، ولم يزل (همايون بخت) يحب أخاه من صميم الفؤاد ويحسن الرعاية نحوه ويواصله باللطف والمعروف، ولكي يظهر فرط حبه له أقامه وليًا مستقلاً على مملكة قريبة من مملكة قريبة من مملكة بابل، لتسهل له مشاهدته في كل حين.. فأضحى (فرخ بخت) ممنونًا من أخيه وكان يعتبره بمنزلة أبيه، لأنه كان أخاه الأكبر، وكان كل منهما يبدي للآخر حسن الالتفات والمجاملة.

ولكن لما رأى أعداؤهم هذه المحبة بينهما وسهرهما على سياسة المملكة وتشييد أركانها تحركت حفائظهم عليها واتقدت نار الحسد في أفئدتهم، ولكنهم لما كانوا يرون زيادة الألفة بينهما كانوا قد يأسوا من إلقاء الفتنة بينهما.. لكنهم لم يفتُروا عن السعايا بينهما، مجتهدين في الوشاية لينالوا ما كانوا يتمنونه من وقوع العداوة بين هذين الأخين، ولم يزالوا ينقلون لهمايون كلامًا مخترعًا ينسبونه لأخيه، ويوشون به إليه حتى أوغروا صدره وحركوا حفائظه عليه، ففتر حبه نحو أخيه وعدل عن معاملته باللطف والمعروف كما كان يفعل سابقًا، لأنه لوشاية المفسدين اشتبه بأخيه ولم يكن يظهر له إلا الاشمئزاز، ولم ينظر إليه إلا بعين العنفوان ولذلك خاف (فرخ بخت) خوفًا شديدًا من أخيه، وأصبح لا يأمن من انتقامه، وكان يزداد خوفه يومًا بعد يوم، فقام يومًا ما وترك مملكته وفرَّ هاربًا ليأمن من غضب أخيه وسار سائحًا

في البراري والقفار خوفًا من سطوة أخيه عليه، وبينما كان سائحًا في أحد الأيام عرض له سائح مُسِنّ لكنه جميل الصورة.. فلما وقع نظره على (فرخ بخت) أخذ يضحك ويرقص طربًا ويصرخ صراخًا عظيمًا ويشير بعلامات الفرح والابتهاج، حتى خال لفرخ بخت أنه كاد يطير من الفرح، وأن سكان السماء والأرض سمعوا صراخه، وكان هذا السائح ينشد أشعارًا مطربة ويتهلَّلُ.. فلما نظر (فرخ بخت) حركات هذا السائح ورقصه وطربه اندهش وتحيَّر وبهت متفكرًا بذلك.. ثم تقدّم إليه وحيَّاه بالسلام وقال له:

– يا صاحب السعادة والعزة.. ما هو سبب فرحك وطربك وليس في هذا المكان ما يوجب كل هذا الابتهاج إذْ ليس فيه غيرنا، فما الذي أضحكك وحملك على هذا الفرح والصراخ.. فأية سعادة قد نلتها حتى استحوذ عليك هذا الفرح العظيم.. لأنني أرى عليك لوائح فرح لا يوصف ولقد أدهشتني بذلك وأضحيت بحيرة عظيمة فبالله عليك قص عليَّ الخبر ولا تكتم عليَّ شيئًا، لأنه لا يخلو هذا الأمر من سر عجيب.. فنظر إليه السائح بعين الفرح كأنه يبشره بسعادة عظيمة وقال له:

– يا سيدي الميمون.. إنك والله قد ملكت جوهرة عظيمة ذات قيمة لا تقدر، لكنها غير منظورة ولم يملكها أحد قبلك حتى ولا اسكندر ذو القرنين.. ولا يملكها أحد بعدك إلى نهاية الدوران، ولهذا أصبحت في فرح عظيم لأنني بكهانتي وفطنتي بمعرفة كل الأمور حتى بالغوامض أيضًا قد اطلعت على طويَّتك وعرفت ما في باطنك وما يحدث لك في الزمان والمستقبل.. ولذلك أبشرك بأن مطلعك يكون سعيدًا وتنال حظًا وافرًا وتقضي حياتك كلها محفوفًا بالسعد والإقبال، فهذا الذي أبشرك به سوف يتضح لك جليًا، وهذا جوابي لك فاحفظه، ولا تنسني حتى تذكرني يوم سعادتك. فلما سمع (فرخ بخت) كلامه فرح فرحًا عظيمًا، فتقدّم إليه بكل وقار وقبَّل يديه وسار ماشيًا معه في الطريق يتحدثان بما قل وجل بأحوال الدنيا وما فيها ولم يمشيا إلا قليلاً حتى صادفا في طريقهما شابًا جميل المنظر، طويل القامة، على

وجهه علامة الحكمة والفطنة والشجاعة والبسالة، فانطرح على أقدام فرخ بخت وقبّل الأرض بين يديه ودعا له بالعز والتوفيق وقال له:

– ألا تقبلني في خدمتك لأنني خادمٌ نصوحٌ فتجدني من خدمتي حظًا وافرًا لأن اسمي (مبارك قال).. ولا ريب أن يطابق الاسم المسمَّى لأنني ذو حكمة عظيمة وفطنة ودراية وطالعي سعيد وما صادفت قط يومًا من هو مثلي، ولاشك أن من كان مثلي يليق بخدمتك الملوكية فاجعلني إذن لك خادمًا فعسَى أن تأتيك خدمتي بمنافع جزيلة. وأما (فرخ بخت) فظنه من خدم أبيه القدماء فقبله خادمًا، وسار معه مسافرًا حتى أفضيا إلى نهر عظيم، فجلسا على الشاطي ليستريحا لأن التعب قد أضناهما.

وكانا في حاجة إلى الراحة ثم قام (مبارك قال) وأخذ يتمشى على جوانب الشاطيء، وبقيَ فرخ بخت وحده ناظرًا في الماء يمنةً وشمالاً فرأى بغتةً ثعبانًا كبيرًا وفي فمه ضفدعة وهي تصرخ وتحاول التخلص من فمه، فلما نظرها (فرخ بخت) على هذه الحالة رقَّ لها ورثى لحالها، لأنه كان مجبولاً على الرحمة والرأفة فقام لساعته ووثب على الثعبان لينقذ الضفدعة منه.. فلما رأى الثعبان (فرخ بخت) هاجمًا عليه خاف منه، ولشدة خوفه ترك الضفدعة من فمه ففرت هاربة ونزلت في الماء، وأما الثعبان فوقف مبهوتًا وأخذ ينظر إلى فرخ بخت بعين التذلل كأنه يشتكي من فقدان رزقه ويقول لسان حاله:

– إنك لحقيق قد صنعت فعلاً مبرورًا وأنقذت هذه الضفدعة من الهلاك لكنك قد ظلمتني وحرمتني فريستي فأرجو أن تنظر إليَّ بعين الرحمة لأنني جائع.. ولم أجد ما آكله سوى هذه الضفدعة. فعند ذلك رقَّ (فرخ بخت) لهذا الثعبان ولم يرد أن يحرمه من الرحمة، لأنه تيقن أنه جائع جوعًا عظيمًا، وحيث لم يكن معه زاد ليطعمه منه أخذ سكينًا وقطع من لحم جسده قدر جثة الضفدعة.. ورماها للثعبان ليقتات منها فأخذها الثعبان بكل فرح، وأتى بها إلى بيته واقتسمها مع زوجته التي كانت تتضوَّر جوعًا وقص عليها ما حدث له، وأخبرها عن كرم (فرخ بخت)

ومروءته وشفقته الوافرة، فتعجَّبت زوجته من ذلك كل التعجَّب وقالت له:

– عجبًا.. هل يوجد في بني آدم كذا أناس ذو نخوة ومروءة..؟ وهل يتصفون بكرم الأخلاق وحسن المزايا مع أن خيانة ابن آدم مشهورة...؟ ومنذ ما خُلقتُ إلى الآن أسمع أن ابن آدم عديم الوفاء لا عهد له ولا زمام.. بل إنه متصف بالخيانة ولا يعرف من الأمانة إلا اسمها...!. فأجابها زوجها:

– نعم إن أكثر بني آدم لا عهد لهم، ولكن يوجد بينهم من هو متصف بالمروءة والشفقة، وفيهم من يرعى الأمانة ويحسن إلى الخلائق ويجود بنفسه عند الاقتضاء، وكفى على ذلك دليلاً ما صار من أمر العُقابِ مع كليم الله موسى عليه السلام. فسألته زوجته:

– وكيف كان ذلك.........؟.

* * * *

حكاية

قال الثعبان:

إن طائر حمام طار يومًا ما في الجو وأتى إلى موسى كليم الله وهو يرتعب خوفًا وقال له:

– الأمان يا نبي الله الأمان.. فإنَّ ظالمًا عاسفًا قد طغى عليَّ.. وها هو الآن متبع آثاري ويريد إهلاكي فأرجوك أن تخلصني من يده وتنقذني من الهلاك. فلما سمع موسى عليه السلام كلام هذا الحمام رقَّ له ورحمه وأخفاه تحت ذيل ثوبه وفي الحال أتى وراءه عُقابٌ كبير... وقال لموسى:

– يا كليم الله إنني الآن في حالة يرثَى لها لأنه قد استولى عليّ الجوع ولا أملك مضغة فإذا حميت عني فريستي فتكون قد ظلمتني ظلمًا فاحشًا.

فأجابه موسى:

– أيها العُقاب.. هل ترغب في قتل هذا الحمام أم نفقتك ونفقة عيالك.. إذا كنت تريد الأول فلا أسمح لك به لأنه طلب مني الأمان فآمنته على نفسه، وإن كنت لا ترغب سوى الرزق لتأتي عيالك بنفقتهم فلا أحرمك منه، لأنني كما رحمت الحمام رحمتك أيضًا لكنك مُخيَّرٌ في العمل.

فأجابه العقاب:

– يا سيدي.. إنني أجِدُّ في طلب الرزق فقط، وأريد نفقتي ونفقة عيالي من أي وجهٍ كان. فلما سمع موسى هذا الكلام نظر إلى أعضائه الطاهرة وأخذ سكينًا ماضيًا وقطع من لحمه مقدار جثة الحمام، وأراد أن يعطيه للعُقاب فعند ذلك نظر هذا إليه وقال له:

– يا نبي الله.. إنني أنا ميخائيل والمتقمص بصورة هذا الحمام هو جبريل، وقد آتيناك هذا النهار متلبسين لكي نمتحن كرمك وسخاءك ونزيعه في سائر الأقطار.

قال هذا وتواريا عنه.. فهذه الحكاية أيتها الحبيبة تؤيد ما قلته عن كرم ابن آدم وإحسانه، وهي مشهورة عند الخاص والعام.

فلما سمعت زوجة الثعبان هذا الكلام تعجَّبت من هذه الرحمة التي اتصف بها موسى الكليم، ونظرت إلى زوجها وقالت له:

– حيث إنَّ ذاك الشاب الشريف قد اتصف بمروءة كهذه عظيمة ورق لك، فيجب عليك أنت أيضًا أن تكون ذا مروءة وشهامة، فاذهب الآن وتقيَّد بخدمته فتعيشَ بكل رغد وهناء وذلك من أهم الواجبات لتفي ما عاملك به من المعروف، لأن على كل مخلوق أن يجازي الجميل بالجميل:

أطلق لسـ انك بالثنـ اء علـ ى الـ ذي أولاك حسـ .ن رغائـ .ب وغرائـ .بِ
وأشكره شكرَ الـ رَّوض حيَّـ اهُ الحيـ ا كي ما تقـ وم لـ ـه بـ بعض الواجـ بِ

هذا وكان كل من الثعبان والضفدعة المارُّ ذكرهما من طائفة من طوائف الجن بينهما عداوة عظيمة، وكان كل منهما يسعى في إهلاك الآخر... وأما مروءة ذاك الأمير الباسل أي (فرخ بخت) وشهامته فقد انقلبت تلك العداوة صداقة متينة وتوطدت المحبة والألفة بينهما، فأتى الثعبان إلى الضفدعة واتفقا بأن يذهبا إلى (فرخ بخت) ويتقيَّدا بخدمته فقرَّر قرارهما على ذلك وتقمَّصا بصورة الإنسان وتسمَّى الثعبان (خالصًا) والضفدعة (مخلصًا) وقاما لساعتهما وسارا إلى (فرخ بخت).. ولما وصلا إليه تقدّما بين يديه وسلَّما عليه وترجَّياه أن يقبلها في خدمته، فظنهما (فرخ بخت) من خدم أبيه القدماء، ولذلك قبلهما في خدمته.. فقام الأربعة أشخاص المار ذكرهم وهم فرخ بخت و(مبارك قال) وخالص ومخلص وعزموا على السفر وساروا حتى أفضوا إلى الديار المصرية، وكان بالقضاء والقدر أن ملك مصر جلس في ذاك النهار للصفا والانشراح، وجلس معه الوزراء ورجال الدولة

وأعيان المملكة وأحضر جميع أرباب المعارف والصنائع والفنون والملاعب، وأخذ كل منهم يعمل على شاكلته ففرح الملك من ذلك فرحًا عظيمًا.

ولما كان فرخ بخت وأتباعه من جملة المتفرجين وكان جالسًا في إحدى زوايا المحل أمام وجة الملك متفرجًا ومبتهجًا مما كانوا يفعلونه من الأشياء الغريبة.. فوقع عليه بغتة نظر الملك وإذ وجده جميل الصورة أخذ يمعن فيه النظر، فرأى عليه سمة الذكاء والفطنة والشجاعة والبسالة ورأى من حركاته ما يدل على شرف أصله، فدعاه إليه وأخذ يلاطفه بالكلام، وسأله عن بلاده وعن سبب حضوره إلى ذلك المحل.. فأخذ من ثمَّ فرخ بخت يقص عليه ما جرى له أولاً وآخرًا ويخبره عن سبب سياحته وقدومه الديار المصرية، وذلك بعبارات لطيفة تحرّك شعائر الرحمة والتحنن.. فلما سمع ملك مصر حكايته رقَّ لحاله، وحيث كان يلحظ أدبه وحركاته وكلامه بكل دقة تأكَّد صدق ما قاله وسُر منه سرورًا عظيمًا وأحبه حبًّا مفرطًا، وأقامه واليًا على بيته وجعله من خاص أصحابه وأعوانه، وعيَّن له راتبًا وافرًا وكان في غالب الأوقات يدعوه الملك لمجالسته ويفاوضه في كل ما يحدث في المملكة، وكان كل يوم يظهر حكمة عجيبة ولذلك اعتبره الملك، ورفع منزلته، وقرَّبه إليه، وكان يبالغ في اعتباره يومًا بعد يوم.

فيومًا ما ذهب ملك مصر للتقصف وجلس على شاطيء البحر فوقع خاتمه بغتةً من يده، وغرق في الماء، وكان هذا الخاتم نفيس القيمة جدًا وعزيزًا عند الملك، ولذلك حزن حزنًا شديدًا، وأمر أن يحضروا بين يديه غوَّاصين ليخرجوا الخاتم من الماء، فامتثلوا لأمره، وفي الحال أحضروا ثمانين غوَّاصًا وقضوا كل ذاك النهار وهم يغوصون في الماء ويفتِّشون على الخاتم فلم يجدوه.. فازداد الملك ومن كان معه حزنًا وكدرًا.. ولما يئِسَ الملك من وجود الخاتم رجع إلى بلاطه ولم يكن أحد يتجاسر أن يتكلم معه لشدة حزنه وكدره.. وبعد ذلك أتى (فرخ بخت) وأتباعه وأخبرهم عن فقد الخاتم النفيس وعن تكدر الملك بسبب ذلك، فلما سمع مخلص هذا الخبر قال له:

– يا سيدي هذا ليس بأمر عسير.. فأنا اتعهد بإخراج الخاتم من الماء فاذهب إلى الملك وأخبره بذلك، واطلب منه مهلة وجيزة، ولا غرو أنك تنال بذلك مجدًا عظيمًا ويزيد حب الملك نحوك، وتصير من أعز المقربين إليه. فلما سمع (فرخ بخت) كلام (مخلص) سُر سرورًا وافرًا، وقام لساعته وأتى إلى الملك وحكى له بعض عبارات مضحكة وضحك وتسلَّى لأن فرخ بخت كان يومًا ما يجلو هموم الملك بعباراته اللطيفة فعند ذلك قال له:

– يا سيدي لا تحزن على فقد الخاتم، لأنني أتعهد بإخراجه من الماء وتقديمه لديك، ولكن أرجوك أن تعطيني الفرصة لأفعل ما عنَّ لي في هذه الساعة.

ففرح الملك من هذا الكلام وأمهله، فانصرف حينئذٍ فرخ بخت وأتى إلى مخلص وأخبره بما كان من أمر الملك وأمره بأن يبذل كل جهد للتفتيش عن الخاتم.. فذهب فرخ بخت ومعه مخلص ليدلَّه على المكان الذي وقع فيه الخاتم.. فلما أفضيا إلى ذلك المحل خرج مخلص من صورته ودخل في صورة ضفدعة، وانحدر إلى البحر وغاص في المياه حتى بلغ البحر، وبعد أن فتش برهة من الزمان وجد الخاتم فخرج به فرحًا مسرورًا وأعطاه إلى سيده فرخ بخت.. فعند ذلك انْسَرَّ فرخ بخت وقام لساعته، وأتى مجلس الملك وقدم له الخاتم.. فلما رآه الملك كاد يطير من الفرح والابتهاج لوجدان هذا الخاتم النفيس الذي كان عزيزًا لديه فأنعم على فرخ بخت بإنعامات وافرة لهذه الخدمة، ورفع من منزلته وبالغ في تكريمه، وازداد فرط حبه نحوه وبقوا على هذه الحالة أيامًا طويلة عائشين بأرغد عيش، حتى داهمت الملك مصيبة عظيمة فتفتت أكباده تحسرًا، وهو أنه كان له ابنة جميلة المنظر بديعة الخصال حسنة الخَلق والخُلق وكان يحبها حبًا مفرطًا لا يوصف لِمَا تحلَّت به من المزايا الحميدة والأخلاق الفريدة، ولأنها كانت وحيدة أبيها ووريثة عهده وموضوع فرحه وسروره.

فكان بالقضاء والقدر أنها ذهبت يومًا للتقصُّف والانشراح فأتت أحد البساتين، وجلست فيه فلدغتها أفعَى ونفثت في شريانها سُمًّا قاتلاً، وفي الحال وقعت الابنة

مغشيةً عليها لشدة الوجع والألم.. فلما بلغ هذا الأمر مسامع الملك أبيها طار عقله من الدهشة، وتكدر وحزن حزنًا مفرطًا وود لو مات قبل أن تدركه هذه المصيبة.. فأحضروا الابنة إلى البلاط الملوكي وأدخلوها حجرتها، وكان لم يزل باقيًا فيها نسمة حياة.. فدعوا حينئذٍ أحق الأطباء فكلَّت مساعيهم عن معالجة هذه الابنة التي كانت تسير رويدًا رويدًا نحو الخطر حتى يئس الجميع من شفائها.. فتفاقم حزن أبيها وكدره وأخذ يبكي وينوح ويلطم وجهه ويخزق ثيابه ويندب ابنته العزيزة ويرثيها، حتى كاد الجلمود يتفتت من بكائه، ولذلك اعترى الحزن جميع الرعايا حتى لم يعد يُسمع في المدينة إلا البكاء والنواح.

فبلغ هذا الخبر مسمع خالص، وفي الحال دعا إليه فرخ بخت وقال له:

– أحضرني معك أمام الملك، وأنا أداوي هذه الابنة وأتعهد بأن أشفيها بحوله تعالى. فلما سمع فرخ بخت كلام خالص انْسَرَّ جدًا وأتى به حالاً إلى بلاط الملك وقال له:

– يا سيدي آتيك اليوم وبمعيتي خادمي هذا.. فإن راق لديك اسمح لي أن أعالج وجع ابنتك أنا ورفيقي هذا، فلعل الله يأتيك بالشفاء بواسطتنا.

فأجابه الملك:

– ادخل أنت وهذا الرجل إلى دار الحريم، وداويا ابنتي وإذا شفيتها خذ العهد الأكيد بأن أزوجك إياها، وتكون ولِيَّ عهدي. فذهب فرخ بخت للحال فرحًا وبمعيته رفيقه خالص... ولما نظر الابنة أشار إلى خالص بأن يمعن النظر فيها ويعالجها.. فأخذ خالص يحدق نظره فيها حتى عثر على محل اللدغة.. فأخذ يمص بفمه السم ويستخرجه.. فخرج جميعه ولم يَبْقَ منه أثرٌ.. فارتاحت حينئذٍ نوعًا، وبعد ذلك أخذ مرهمًا ودهن به الجرح... وبعد ساعات شفيت الابنة شفاءً تامًا.. ففرح الملك فرحًا عظيمًا ورأى أن يكافيء فرخ بخت بوعده له، ومن ثَمَّ بعد أن نالت الابنة تمام الشفاء زوَّجها أبوها بفرخ بخت، وأقام لها زفافًا حافلاً دعا إليه جميع أرباب الدولة

وأعيان المملكة.. فشاركوه في فرحه وهَنِئُوا بما منَّ عليه به الإله المنان وبعد أيام دعا الملك فرخ بخت له وقال له:

– يا بني.. إنني قد طعنتُ في السن وصرت عاجزًا عن سياسة المملكة، فأريد من ثمَّ أن أغتنم وقتًا للراحة في نهاية عمري، وأتنازل لك عن المُلك وأبايعك للسلطنة. قال هذا وفي الحال أمر بإحضار الوزراء ورجال الدولة واستشارهم فيما عنَّ له، فأشاروا عليه جميعهم بأن يفعل ما أُلهم به وأن يبايع فرخ بخت للمُلك لأن به اللياقة والأهلية.. فأجلسوا فرخ بخت على سرير السلطنة، وبايعوه بالمُلك ودعوا له بالعز والتوفيق.. وحيث إن الله تعالى قد قسم لفرخ بخت منذ الأزل هذه السعادة فبقضائه تعالى وعنايته الإلهية قد تخلص من جور أخيه، ونال أعظم سعادة بدون تعب ومشقة.

وإذا العناية لاحظتك عيونها .. نم فالمخاوف كلهن أمانُ
واصطد بها العنقاء فهي حبائلٌ .. واقتد بها الجوزاء فهي عنانُ

وأما فرخ بخت فإنه بعد إتمام المبالغة خرَّ ساجدًا أمام الملك، وأخذ يشكره على ما أولاه من النعم الجزيلة قائلاً: إن لساني عاجزٌ عن شكر أفضالك العميمة أيها المولى العظيم، ولا أقدر أن أكافيء هذه المنَن التي طوَّقتَ جيدي بها إلا بالتوسل لعزته تعالى بأن يجزل ثوابك في الدنيا والآخرة، وإني لأشكرنك شكرًا يومًا ما على سوابغ أنعامك، وهذا فرض عليَّ لا يكل لساني عن تأديته ما دمت حيًا، ولديس الموت بنازع من فؤادي ولساني مطايا الحمد والثناء، لأنني إن متُّ فرفات عظامي تنوب عني بذلك. وأنشد:

فلأشكرنك ما حييت وإن أمُتْ .. فلتشكرنك أعظامي في قبرها

فعند ذلك أجلسه الملك بين يديه وأخذ يوصيه بأن يحسن السلوك نحو الرعايا وقال له:

– يا بني.. الزم خوف الله، ولا تَحِدْ عن محجة الاستقامة ليوفقك الله في أعمالك ويهديك طريق الرشد والصواب وإياك إياك والحرام، لأنه يدنس قلب الإنسان ومحاشاته تُعد من فضائل الأبطال كما قال الشاعر:

ليس الشجاع الذي يحمي فريسته .. عند القتال ونار الحرب تشتعلُ
لكنَّ من كفَّ طرفًا أو ثنى قدمًا .. عن الحرام فذاك الفارس البطلُ

وتذكر أيها العزيز المحبوب بأن الدولة ظلٌ زائل والنعمة ضيف راحل، فلا تثق بهما ولا يغرنك ما نلته من العظمة لئلا يستولي عليك الكِبْر والعجرفة، لأنها آفة لدى العلاء تنزع حبه من القلوب وتجعله ممقوتًا كما قيل:

ومعتقد أن الرياسة في الكِبْرِ .. وخشيت فيها أن يضيق المذهبُ
يجر ذيل المجد يطلب رفعة .. طولاً وعرضًا شرقها والمغربُ

والزم العدل والإنصاف بين الرعية لتأتيهم بالخير الجزيل، وتكتسب حبهم ووِدادهم إياك، إياك والظلم لأنه ليس من شيم الملوك، بل من شيم العبيد، فهو ينزع عنك حالة الشرف والكمال ويقلع حبك من قلوب الرعايا، فالعدل يكسبك رفعة ومجدًا ويسكب عليك أنعام الخالق، ويؤيدك في ملكه وسلطانك:

عن العدل لا تعدل وكُن متيقظًا .. وحكمك بين الناس فليك بالقسطِ
وبالرفق عاملهم واحسن إليهمُ .. ولا تبدلن وجه الرضا منك بالسخطِ
وحل بدر الحق جيد نظامهم .. وراقب إله الخلق في الحل والربطِ

والآن فقد أقمتك بإلهام الله تعالى سلطانًا على أرض مصر وقد أودعتك هذه المملكة وأهلها، فمن الواجب عليك حفظ الوديعة من كل ضارٍ وغائلة.. كما هو من مقتضيات الأمانة، فاسهر على ترقية الرعايا وراحتهم، لأنه بذلك تبلغ ذرى المجد والكرامة، واخفض لهم الجناح وواصل كبيرهم وصد غيرهم بالإحسان، واسمع للصغير سماعك للكبير، ولا تحابي وجه أحد لأن الله ولاَّك على عباده لتكون بينهم منصفًا عادلاً.. فإذا سلكت بمقتضى وصاياي فتنال من الله أنعامًا وفيرة، وتكتسب

حب الرعايا ووِدادهم ويبقى ذكرك مخلدًا في أرض مصر كلها، حتى إذا جاءك القضاء المقدر تنال من الله جزاءً عظيمًا وتخلف لرعاياك ذكرًا جميلاً لأنه لابد أن تترك هذه المملكة يومًا ما، لأنه قد تقدَّمك من الملوك والسلاطين من امتدت سطوتهم في كل الأرض، وقد طُووا في حضن التراب ولم يبق لهم سوى آثار أعمالهم وحق من قال:

إذا كنت في أمر فكن فيه محسنًا .. فعما قليل أنت ماض وتاركهُ
فكم أفنت الأيام أصحاب دولةٍ .. وقد ملكوا أضعاف ما أنت مالكهُ

ولما بلغ رفاق (فرخ بخت) وهم (مبارك قال) وخالص ومخلص ما صار من أمر سيدهم تفاقم فرحهم وسرورهم... فأتوا إليه ليهنئوه بما حازه من السعادة..... وحيث إن (مبارك قال) كان أكبرهم سنًا وأقدمهم في خدمة فرخ بخت تقدّم أولاً وقبّل الأرض بين يديه ودعا له بسوابغ العز والنعمة وقال:

– يا مولاي إنه قد تم كل ما كان مكتوبًا ومقدرًا منذ الأزل وبحول الله تعالى وبقدرته الربَّانية قد بلغت أعلى درجة من السعادة والشرف بهمة ذاك السائح الذي صادفته في الصحراء، وأنا أقول لك إن المُلك يخرج من يدك ما دمت حيًا.. بل تبقى حياتك كلها ملكًا على أرض مصر، لأن الله أحبك منذ الأزل وخولك نعمة وافرة.. وأما أنا فأرجوك أن تترك سبيل هذين الخادمين النصوحين . وهما خالص ومخلص . وتأذنهما بالانصراف إلى وطنهما لينظرا أهلهما وأولادهما وخلاَّنهما لأنهما بشوق وافر لمشاهدتهم فأطلق سبيلهما، ومتى طلقتهما فإنهما يحضران بين يديك على جناح السرعة. فأجابه (فرخ بخت):

لماذا تتكلم يا صاحِ بمثل هذا الكلام المستغرب لأن خالصًا ومخلصًا من أعز أصحابي وقد رافقاني في حال نكبتي ومشقتي، فكيف يليق بهما أن يتركاني حال سعادتي وعظمتي وإذن لا أطيق لوعة فراقهما، لأنهما سبب نعمتي ودولتي فلا أسمح لهما بأن يبتعدا عني. فلما سمع (مبارك قال) كلامه وفهم إصراره على إبقاء

خالص ومخلص عنده، علم أنهما لم يخبراه عن أصلهما فلا يدعهما أن ينطلقا عنه، فلهذا نظر إليه وقال:

يا مولاي لا خفاك أنك كنت هاربًا من وجه أخيك وسائحًا في البراري، التقيت في إحدى الصحاري بسائح عليه ثمة الوقار وعلامة الابتهاج؛ فهذا السائح هو جمال الدين الحمداني المرشد الربَّاني الذي كان لك عوناً وغوثًا من عند رب العالمين، فسقاك كأس السعد والشجاعة وبدعائه بلغت ذُرى المجد والكرامة، وذلك بعناية الله المتعال الذي أعد لك هذه السعادة منذ الأزل.. وأما أنا فقد رافقتك أيامًا كثيرة وخدمتك خدمة نصوحة، لكنك للآن لم تعرف من أنا ولا أرى من ثم أن أخفي عليك ذلك... فأنا صورة طالعك وسعدك أرافقك إلى الأبد ولا أفترق عنك لحظة واحدة، غير أنني منذ اليوم لن أعود أظهر لك لأن سعدك قد تم ونلت كل ما ترغب فيه.. وأما خالص ومخلص فهما يخبرانك عن أصلهما. قال هذا وتوارى عنه ولم يعد ينظره.

فتعجَّب فرخ بخت وأخذته الحيرة والاندهاش ساعة من الزمن.. ثم دعا خالصًا ومخلصًا وسألهما عن أصلهما .. فأجابه خالص:

يا نور العالم.. إننا نحن عبيدك من طائفة الجن وكان بيننا بغض وعداوة من شأنها أن تفنيَ الفريقين لأن كُلاًّ منا كان يسعى في إهلاك الآخر.. غير أن لطفك قد بدَّل هذه العداوة صداقة متينة، ولكي نكافئك على ذلك قد تقمصنا بصورة بني آدم وتقيَّدنا بخدمتك لندرك بك ذُرى العظمة والسعادة... وحيث قد أضحيت الآن في غِنى عنا ومن مدة طويلة لم نشاهد أهلنا، فنرجوك أن تسمح لنا بالذهاب إليهم، ومتى طلبتنا نحضر بين يديك على جناح السرعة.

فلما سمع فرخ بخت هذا الكلام أخذه العجب والانذهال وبقيَ ساعة مبهوتًا مندهشًا لا يعلم إذا كان ذلك في اليقظة أو أضغاث أحلام.. فجثا على ركبتيه وصلَّى لله تعالى وشكره على ما أولاه من النعم، وطلب منه التأييد والمعونة في سياسة

المملكة ثم شكر خالصًا ومخلصًا على ما أبدياه معه من الجميل والمعروف وأذنهما بالذهاب إلى وطنهما، فودعاه والدموع تهطل من عيونهما، وبقيَ فرخ بخت مدة حياته كلها متذكرًا هذين الصديقين ومتعجًّبا من خلوصهما، وقضى حياته كلها راتعًا بالعز والنعيم، وساهرًا على سعادة الرعية حتى أصبح معبودًا منهم لأوصافه الحميدة ومزاياه الفريدة.

* * * *

فالآن يا قمر السُكَّر اعلمي أن صداقتي تشابه صداقة خالص ومخلص، لأنني أسعى لسعادتك كما كانا يسعيان في سعادة فرخ بخت، وكما أن هذا الأمير قد نال بواسطتهما أعظم سعادة فستنالين أنت أيضًا بواسطتي أوفر حظ وأجزل نعمة، فقومي الآن واذهبي إلى حبيبك ولا تتأخري ساعة واحدة لئلا تفوتك الفرصة.. ففرحت قمر السُكَّر وقامت لساعتها قاصدة حبيبها... لكنها لما فتحت الباب رأت أنه قد طلع الصباح وأشرقت الشمس فأنارت الدنيا، فرجعت حينئذٍ خائبة إلى مخدعها وقضت ذاك النهار متعذبة لآلام العشق والهيام حتى وفد المساء... فعند ذلك تزيَّنَتْ بأفخر الملابس، ولما ادلهمَّ الليل أتت قفص الببغاء وقالت له:

– لقد صرت كالميت من غلبة العشق عليَّ لأنها آلت بي إلى الهلاك ولا أدري ما العمل.. فأريد من ثمَّ دواءً لوجعي. فأجابها الببغاء:

– إن العشق موهبة عظيمة.. فلا تحسبيه بليَّة أذى ضرر أتاك أو أتى غيرك منه أعظم نعمة إذا استوفى شروط نظامه التي منها مراعاة العاشق والحب المجرد عن الغايات وكتم السر. فقالت له قمر السُكَّر:

يا مؤنسي في مشقتي وتعزيتي في محنتي.. إن قلبي قد انتعش من دُرر كلامك وحفظت جميع نصائحك والله يعلم امتناني منك وأنت تعلم يقينًا محافظتي على أسراري، لأن العاقل من كتم سرَّه وما أفشاء السر إلا ضرر جسيم، لأنه إذا اطلع

أحد على أسرارنا، فهل يكون من أمرنا غير الخيبة وقطع الرجاء من نوال الوصال... فأجابها الببغاء:

– يا سيدتي لقد أصبت فيما نطقت.. غير أن كثيرًا من الناس خوفًا من ظهور أسرارهم لا يدخلون في طريق العشق، ولهذا يجب على العاشق أن يكون شجاعًا لا يخاف الأهوال، لأن الجبان الذي يخاف بلايا العشق ولا يلج طريقه ولذلك قالوا "لا يُخشى على التاجر الجبان من الخسارة" فإذا كنت تخافين على أسرارك فيتأسس الخوف في قلبك ومن ثم لا تنالين مرادك... فيجب والحالة هذه أن تتسلحي بالشجاعة ولا تخافي من ظهور أسرارك، لأنه إذا وقف أحد عليها فيمكنك أن تدفعي ذلك بحيلة لطيفة لأنه قيل "لكل داء دواء" والحكمة تجلب الدواء لكل الأوجاع ويستدل على صحة ما قُلته من حكاية امرأة تُدعى (ظريفة)، وهي زوجة السيد (سيَّار) التي ذبحت طاووس الملك فعلم بها أخوها ووشى بها إلى الملك فأراد قتلها، غير أنها تخلصت بحذاقتها من الموت وأهلكت الواشي.. فسألته قمر السُّكَّر:

– وكيف كان ذلك...........؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في مدينة طوس تاجر اسمه السيد (سيَّار) منحه الله أوفر غنى وأجـ زل نعمة ولم يرزقه ولدًا فحزن لذلك حزنًا شديدًا، وكان كلما صادف أحدًا من أصحابه يطلب منه دواءً لوجعه.

فيومًا أتى إلى بيته طبيب حاذق من أطباء اليونان فأقره في بيته وأخبـ ره عـ ن واقع حاله وطلب منه دواءً لعقم زوجته فصنع الطبيب دواءً وقال له:

– يجب أن يجبل هذا الدواء بمرارة الطاووس ويطعمه لزوجته في وقته. وفـ ي اليوم التالي دعاهم الطبيب وسافر، ولكن لم يكن في تلك المدينة سـ وى طـ اووس واحد عند الملك وكان الملك يحبه بهذا المقدار، حتى أنه لم يكن يسمح أن يغيب عن نظره ساعة واحدة... ولما لم يجد السيد (سيَّار) طاووسًا في تلك المدينة ونواحيها ا وكانت زوجته ظريفة طائقة لأخذ الدواء المحكي عنـ ه اتفـ ق معهـ ا علـ ى غَـ بٍّ المفاوضة بينهما، وعلى أخذ طاووس الملك بأي وجه كان وصار.. ومن ثمَّ يترقبان فرصة لذلك.. ففي ذات ليلة أتى الطاووس إلى البستان بجانب بيت السيد (سيَّار).؟. فلما رأته ظريفة انحدرت إلى البستان وقبضت على الطاووس وأتت به إلى بيتها ا بدون أن ينظرها أحد، وفي الحال ذبحته وجلبت الدواء بمرارتـ ه، ودفنـ ت جثـ ة الطاووس في الأرض، وبعد ذلك أكلت الدواء وأتت خِباء زوجها فرحة متهللة.. هذا وكان لـ . (ظريفة) شقيق اسمه عنترة، فلشدة فرحها أخبرته عما فعل إذ لم تتمالـ ك من نفسها كتم السر.

هذا ما كان من أمر هذه المرأة، وأما ما كان من أمر الملك فإنـ ه أمَـ رَ حشَـ مه بإحضار الطاووس بين يديه فاقتادوه ولم يجدوه.. ولما أخبروا الملك بـ ذلك حـ زن حزنًا شديدًا وأمر بأن يفتشوا على الطاووس وأن يرسلوا لكل جهة مناديًـ ا ينـ ادي

عليه، ووعد ألف دينار من يأتيه بخيرٍ عنه سواء كان حيًا أو ميتاً؛ فسمع عنترة أخو (ظريفة) هذا الخبر المتواتر إذْ كان مرةً ما في المدينة، فتحركت فيه عاطفة الطمع ورغب عن أخته بالألف دينار، فقام لساعته وذهب إلى بلاط الملك وطلب التشرف بمقابلته ليعرض لديه أنه وقف على خبر الطاووس.. فلما أخبروا الملك بذلك أمر بإحضاره حالاً بين يديه.. فدخل عنترة إليه وأخبره أن أخته قتلت الطاووس لتصنع من مرارته دواءً للحَبَل.. فلما سمع الملك هذا الكلام استشاط غضبًا على (ظريفة) وزوجها السيد (سيَّار) وأمر بأن تُقتل جزاءً على فعلها.. فلما بلغ الوزراء هذا الخبر تقدّموا إلى الملك وقالوا له:

- إنه لا يليق بعظمتك وعدالتك أن تعجّل بقتل النفس التي خلقها الله على صورته وإذا قتلت هذه المرأة قبل أن تتحقق ذنبها بالفحص المرقق فتكون قد خالفت الشرع الشريف، ولا يليق أن تصدق حالاً كلام هذا الرجل لأنه ربما يكون قد تكلم بذلك لغرضٍ ما، فالأجدر بنا إذن أن تحضره بين أيدينا وتستنطقه مُدققًا، فإن كان قوله صحيحًا فتجازي المرأة بما تريد وإلا فتعاقب هذا الرجل حسبما يستوجب جرمه.

فاستحسن الملك هذا الرأي وسكن غضبه قليلاً فدعا عنترة وقال له:

- أيها الفتى قد قررت لي أن أختك (ظريفة) ذبحت الطاووس، فإن كان ذلك صحيحًا فإني أعطيك ألف دينار كما وعدت به وإلا فسأقتلك شر قتلة عوضًا عن أختك. فأجابه عنترة:

- يا مولاي أختي بنفسها أخبرتني بذلك فإن لم تعتقد بكلامي هذا عيِّن رجلين تعتمد عليهما حتى يذهبا معي وأنا أخفيهما في محل ما، وأخاطب أختي بهذه الواقعة وأجعلهما يسمعان إقرارها من فمها. فعيَّن له الملك معتمَدَيْن من ذوي الأمانة وأمرهما أن يتبعاه إلى المحل الذي يشاء، فأخذهما (عنترة) وانصرف من عند الملك

ووضع كُلاً منهما في صندوق وحملهما إلى اثنين من الحمَّالين وأتى بهما إلى بيت أخته وقال لها:

– يا أختي الحبيبة.. قد عنَّ لي أن أسافر إلى بلدة بعيدة فخذي هذين الصندوقين اللذين فيهما أشياء ثمينة واحترسي عليهما غاية الاحتراس حتى أعود من سفري، ثمَّ جلس يتكلم معها وينتقل من حديث إلى آخر حتى عرض بذكر الطاووس..

فقال لها عنترة:

– يا أختي العزيزة إذا ولدت ولدًا ذكرًا فلا غرو أن جميع أهل المدينة يفرحون بذلك، غير أنني تعجَّبت كيف أنك ذهبت في نصف الليل وكيف أمكنك أن تمسكي الطاووس .. فهل أمسكتيه بيدك أم أمسكه لك أحد.. لما قصصت عليَّ الخبر كان فكري مشغولاً فأعيدي عليَّ ذكر هذه الواقعة التي أدهشتني. فأخذت (ظريفة) تخبره بما فعلت وكيف أنها ذبحت الطاووس وأكلت مرارته.. إلا أنها عند ذلك ارتابت بسؤال أخيها هذا لا سيما لما نظرته مُصغيًا إليها بما لا يزيد عليه وخافت مكيدةً أضمرها عليها.. ولهذا استدركت كلامها قائلة:

وحيث كان الصباح قريبًا استيقظت من نومي متهللة وكنت منذ أيام أشعر بالحَبَل فهذه الرؤيا تدل على أنني سألد ولدًا جميل الصورة، لأنني رأيت في المنام طاووس الملك مزينًا... ولا شك أن هذا يدل على خير العاقبة كما أفاد المعبرون.

وقال لها عنترة:

– إنك قبْلاً قُلتِ لي إن هذا الخبر كان واقعيًا، فهل كان في اليقظة أم كان في المنام؟ فأجابته (ظريفة) قائلة:

– يا أخي.. أنت تعلم أنني غير قادرة على ذبح عصفور فكيف يمكنني أن أذبح طاووسًا ولا سيما طاووس الملك، فإنني لا أذبحه ولو كانت مرارته تحييني إلى الأبد.. وأما أنت مع انشغال أفكارك فلم تفهم ما حكيته لك، وظننت أنه كان في اليقظة مع أنه لو سمعك أحد تتكلم بهذا الكلام لسخر منك لأنه ضرب من المحال.

فلما سمع (عنترة) هذا الكلام طار عقله وارتعدت فرائصه من الخوف.. أما معتمدا الملك فخرجا عند ذلك من الصندوقين وقبضا على (عنترة) واقتاداه إلى مجلس الملك وقرَّرا له كل ما سمعاه من (ظريفة) وأخبراه بأنها رأت في المنام الطاووس مذبوحًا وليست هي التي ذبحته.. فعند ذلك تأكد الملك أن ما عزاه عنترة إلى أخته هو محض افتراء ونميمة، وإنما فعل ذلك طمعًا بالمال، فغضب عليه الملك وأمر بقتله وأنعم على (ظريفة) بإنعامات كثيرة.

فالآن يا قمر السُّكَّر... ينتج من هذه الحكاية أن ذوي الفطانة يتخلصون من أعظم البلايا بالحيل المتظرفة لأن (ظريفة) لو لم تسلك هذه الحيلة لهلكت لا محالة، وأنت تعلمين من هذه الحكاية فوائد الاحتيال، واعلمي بها عند اللزوم لأنه قيل "ريق العشق كلها آداب" ولكن حذارِ من أن تظهري بعض حركات يستدل منها أنك عاشقة بل أحرصي على نفسك وسرك لأنه متى شاع سرك فتكاثر عند الأحاديث فتقاطر عليك العشاق ولا تعودين حينئذٍ مخيَّرةً في قبول من تريدين، ويصيبك عند ذلك ما أصاب ابنة الزاهد التي أعرضت عن الشبان الثلاثة الذين طلبوها، ولخجلها منهم زهدت في الدنيا وانقطعت عن العالم، فسألته قمر السُّكَّر:

وكيف كانت هذه الحكاية...؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في إحدى مُدن خراسان زاهد منقطع عن الدنيا وكان له زوجة وولد وابنة اسمها (جميلة).. فيومًا ما عزم على الذهاب إلى الحج فجمع زوجته وابنته وقبل أن يودعها قال لهما:

– إن ابنتنا والحمد لله قد بلغت درجة الرشد والكمال وسارت أهلاً للزيجة، فإذا طلبها حال غيابي شاب يليق بها فزوِّجاها ولا تنتظرا، لأنه يُحتمل أن لا أعود من سفري. قال هذا وودَّع أهل بيته وسار مسافرًا مع القافلة، وبينما كان يومًا ما سائرًا في الطريق صادف شاب يُدعى (نجيب)، فرافقه وبقيَ سائرًا معه مدة طويلة لم ينظر فيها من أطواره وطباعه إلا كل ما يسُر الخاطر. فبقي معه حتى وصل إلى مكة المكرمة فحج معه وزوَّجه ابنته.

وبعد أن سافر الزاهد إلى الحج سافر ابنه إلى بلدة قريبة لجلب البضائع فصادف في سفره شابًا جميل الصورة سهل الطباع اسمه (ظريف) وبعد أن صاحبه مدةً زوَّجه أخته جميلة المارُّ ذكرها.

وأما زوجة الزاهد التي كانت باقية في البيت، فقد عثرت أيضًا على شاب جميل الصورة اسمه (نظيف) فزوَّجته ابنتها وتوقف زفاف الابنة لرجوع أبيها من الحج وأخيها من سفره، ولم تمض بعد ذلك إلا أيام قليلة حتى رجعا من سفرهما ومع كل منهما الصِّهر الذي عثر عليه، فاجتمع في ذلك اليوم في بيت الزاهد ثلاثة أصهار، فعند ذلك تكدر الزاهد وأهل بيته ولم يجدوا حيلة يتخلصون بها من هذا المشكل، ولما نظر الأصهار بعضهم بعضًا تحيروا من هذا الأمر، وصار كل منهم يدعي الابنة زوجةً له.. فقام نجيب وقال:

- إن هذه الابنة قد زوَّجني إياها أبوها الذي هو وليها وعِلَّة وجودها فـ بإنني إذن أولَى منكم.

ثمَّ قام ظريف وقال:

- أنا أولى منكما لأن أخاها زوَّجني إياها بإذن أبيها الذي وكَّله بذلك.

فاعترضه نظيف وقال:

- إن كلامكما جزافٌ لا معنى له، ودعواكما باطلة لأن أباها قـ د وكَّ ل أمهـ ا بتزويجها فزالت من ثمَّ سلطته عليها، وهي (أي أمها) قد زوَّجتني إياها، ولا شـ ك بأن سلطتها أقوى من سلطة الأخ، فلا تطمعا بها إذن لأنها زوجتي قسمها لي الحق سبحانه منذ الأزل. فعند ذلك اشتدَّ الخصام بينهم وبقيَ الزاهد وأهل بيته في حيـ رة عظيمة، فشاع هذا الخبر في المدينة وتناقلته الناس فحزنت جميلة من ذلـ ك حزنـً ا مفرطًا أوصلها إلى درجة الموت، فاعتراها مرضٌ عضال من تأثير الحزن وبقيـ ت على هذه الحالة خمسة عشر يومًا وفي ليلة ما اشتدت عليها سكرات الموت فقضت نحبها وانتقلت من دار الفناء فحنَّطها أبوهـ ا وأمهـ ا بالبكـ اء والنحيـ ب ودفنوهـ ا بالإكرام... وأما طُلابها فقد اعتراهم حزن شديد، ولما ظل المساء اتفقوا بأن يـ أتوا إلى قبر الابنة ليزوروها.

وبينما كانوا سائرين في الطريق قال نجيب لرفيقه:

- إنني قد هِمْتُ بحب هذه الابنة قبل أن أراها.. ولما نظرتُها نظرة واحدة اشتد الهيام في قلبي ولما قصدت الاقتران بها خطفها الموت من بين يديَّ، وعدت خائبًا، فإن لم يتيسر ليَ أن أراها فأموت كمدًا وتأسفًا ولا ريب أن الله يريني وجههـ ا وإن تكن قد ماتت، لأنه على كل شيء قدير وهو يعلم أن ليس لي طاقة الصبر والتحسر إلى منتهى الحياة.

فأجابه رفيقه:

- إذا كنت تريد أن تراها فاذهب حالاً وافتح قبرها وهذا خير لك من أن تبقـ ى

إلى يوم القيامة متحسرًا متأسفًا... وإذا فعلت ذلك فلا غرو أن تكون أهلاً لها إذْ أن هذه علامة الحب والوداد.

فعند ذلك قام نجيب وأتى قبر الابنة وأخرجها من الرمس ووضعها بـ ين يديـ ـه، وأخذ يبكي عليها، وفي أثناء ذلك حضر إليه رفيقاه وصارا ينظران تارةً إليه وتارةً إلى وجه الابنة وحيث كان ظريف طبيبًا حاذقًا عرف عند تفرسه الابنة أنه لم يزل فيها أثر حياة، فنظر إلى رفيقيه متحيرًا وقال لهما:

– إنه قد ظهر لي أن هذه الابنة لم يزل فيها أثر حياة وإنما هي كالميت لجمـ ـود الدم في جسمها، وهذا ناتج عن فيضانه في عروقها فيجـ ـب الآن أن نسـ ـرع فـ ـي مداواتها لئلا تموت، والدواء كذلك هو أن نضرب ضربًا شديدًا على كـ ـل جسـ ـدها حتى يخرج الدم الفاسد، فعند ذلك تزول البرودة التي استحوذت عليها وتتجدد فيهـ ـا الحرارة فتشفَى.. غير أن في ذلك صعوبة عظيمة لأنه مَنْ ذلك الذي يسـ ـتطيع أن يضرب هذا الجسم اللطيف ويؤلمه بالضرب الشديد وهـ ـو لا يكـ ـاد يطيـ ـق مـ ـس الورد...؟!.

فأجابه نظيف:

– أنا أقبل على هذا العمل لأن ويلاً أهون من ويلَيْن، ومن كون الموت شر بلية فيجب أن تؤثر الضرب عليه فأمهل قليلاً حتى أباشر ذلك.

قال هذا وقام لفوره وعلَّق الابنة على شجرة وطفق يضربها ضربًا شديدًا حتـ ـى سال الدم من جسدها، فعند ذلك تحركت وأشارت بأشارات الحياة، فحينئذٍ قام ظريف وقصدها في محل الاقتضاء فرجعت روحها إليها بحول الله تعالى غير أن شـ ـفاءها جدَّد النزاع بين طُلابها المشار إليهم، وقام كل منهم يدَّعيها لنفسه ويريد استخلاصها من الآخر، فقام نجيب وقال:

– أنا أولى منكما بهذه الابنة. لأنه لم يفتكر أحد بزيارة قبرها سواي فأنا الـ ـذي أخرجتها من اللحد، ولولاي لما نظرتاها أبدًا وقبل حضورنا إلى هذا المحل اعترافًا

بأني أولى منكما بقولكما لي إذن جئت قبرها فتكون أهلاً لها..

فانتصب حينئذٍ ظريف كالأفعوان وقال:

– إنه لحقيقي أنك جئت قبرها وتفقدتها ولكن أية فائدة جنيتها من ذلك، لأنك وجدتها ميتة وأنا الذي عرفت بأنه لم يزلْ فيها أثر حياة وشفيتها بحول الله تعالى، وحيث قد كنت سبب حياتها فلا ريب بأنني أولَى بها منكما ثمَّ قام نظيف وقال:

– إنه لحقيقي أن نجيب افتقد الابنة وأخرجها من لحدها وأن ظريفًا مرَّضها ووصف لها الدواء الشافي، ولكن مَنْ الذي أجرى العمل سوايَ.. ألست أنا الذي علَّقتها على الشجرة وضربتُها ضربًا أليمًا حتى شفيتْ، ولولا ذلك أيُّ نفعٍ كان من إخراجها من اللحد ومن معرفة آبائها، فكفَى النزاع لأنني أولَى منكما بهذه الابنة. قال هذا واشتدَّ بينهم الخصام حتى أفضَى بهم الأمر إلى أن تهيأوا للمبارزة والطَّعن.. وعند ذلك أصبحت جميلة بينهم كالحَمَل بين الذئاب.. ولما رأت ذاتها عاجزة عن ردعٍ هؤلاء العُشاق بكت وناحت وقالت لهم:

– يا معشر.. إنني لما كنت حيَّة ابتليتُ منكم كما ابتُلِيَ أيوب بأوجاعه، لأنكم أذقتموني مُرَّ المذاق وقد أصابني ما لم يصبْ قط مخلوقًا، لأن الإنسان بوفاته ينجو من بلاياه، وأما أنا فلم أتخلص بوفاته من شركم.. بل أحببتموني حتى تعذبوني فأرجوكم الآن أن تردوني إلى أبي وأمي، وبعد ذلك أفعلوا بي ما تريدون، لأنني أود رؤيتهما قبل كل شيء. فحينئذٍ قام نجيب ورفيقاه وأخذوا الابنة وسلَّموها إلى والديها وأخبروهما بما كان من أمرها.

فلما نظرا أن ابنتهما رُدت إلى الحياة خر ساجدًا وشَكَرَا الله تعالى على أنعامه وفَرِحَا فرحًا عظيمًا، وأما الابنة فنظرت إلى والديها وعُشاقها وقالت لهم:

– إن الله تعالى نظر إليَّ بعين الرحمة ومن كرمه منحني حياةً جديدة فيجب عليَّ إذن شُكرًا لهذه النعمة الجزيلة أن أنقطع عن الدنيا وأنعكف على عبادته تعالى.

قالت هذا وفي الحال حلقتْ شَعر رأسها.. ولبست كساء الزهد وذهبت إلى

صومعة صغيرة وأقامت فيها مواظبة على العبادة، فنالت مـ ن الله نعمـ ـة واف ـرة، وقضت حياتها بالبر والورع.

* * * *

فلما أفضَى الببغاء إلى هذا المقام نظر إلى قمر السُكَّر وقال:

– هل ترغبين أنت يا سيدتي أن تقتفي آثار هذه الابنة؟ فإذا كنت تـ ـرغبين فـ ـي الانقطاع عن هذه الدنيا ولذاتها الفانية فهذه مَحْمَدَة يُندب إليها.. ولكن لا يُطلب منك ذلك، بل إنما المطلوب الآن أن لا تتأخري في الذهاب إلـ ـى حبيبـ ـك فقـ ـومي إذن واذهبي إليه على جناح السرعة لأنه يُخشَى غضبه من هذه المماطلة، ولا يمكنـ ـك أنت أيضًا أن تطيقي ما تقاسينَه من الهجر والفراق لأن عاقبتهما وخيمـ ـة... فلمـ ـا سمعت قمر السُكَّر هذا الكلام قامت لساعتها فرحة... لكنها لما فتحت البـ ـاب رأت الصباح قد طلع وأشرقت الشمس كما أشرق وجه جميلة المارّ ذكرها، فتأخرت إلى الليلة التالية ورجعت إلى حجرتها حزينة باكية.. وبقيت على هذه الحال حتى وفـ ـد المساء عليها فتزيَّنَتْ وتبرقشتْ وأتت قفص الببغاء وقالت له:

– طوباك أيها الببغاء لأنك خالٍ من العُشاق، ولولا ذلك لكنت عرفت مـ ـا فـ ـي باطني من الحسرة والتأسف اللذين أدرجاني درجات الموت.

فأجابها الببغاء:

– يا سيدتي كيف تقولين إنني جاهلة أمور العشق وحقيقتي فحاشاي ذلـ ـك.. لأن الذي لا يدري أمور العشق فليس في الدنيا على شيء وهو أشـ ـبه بالحمـ ـار.. أمـ ـا سمعت حكاية إمام جامع (با يزيد) قدس الله سرَّه وما توقع له لما كان على المنبـ ـر يعظ المواعظ النفيسة.

فسألته قمر السُكَّر:

وكيف كان ذلك....؟.

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إن إمام جامع با يزيد صعد يومًا المنبر وخطب في جماعة من المسلمين فسرتهم فصاحته وأعجبتهم بلاغته، وفي أثناء خطابه أتى مهرجٌ ودنا من المنبر وقال له:

– أيها الخطيب الفصيح المرشد إلى السعادة إن كلامك ينير الناس كما أن الثريا تنير المسافرين، وقد دنوت منك لأرجوك في أمرهم وهو أن حماري فُقد مني.. ولا أدري إلى أين ذَهَبَ.. فإذا كنت تعرف من أخذه فأرجوك أن تأمره بأن يردُّه لي.
فأجابه الإمام ببشاشة:

اصبر قليلاً تجده. ثمَّ أخذ يتلو على الحاضرين خطابًا نفيسًا وفي أثناء الكلام نظر إليهم وقال:

يا أمة محمد.. هل منكم من هو خالٍ من العشق.. فإذا وجد منكم أحد كذلك فليقم واقفًا حتى أراه.. فحينئذٍ قام شيخٌ طاعن في السن ونظر إلى الإمام بكل خشوع وقال:

– أيها الإمام الأعظم إن عبدك هذا منذ خلق حتى بلغ درجة الشيخوخة لم يعشق أحدًا، ولا يدري ماهية العشق وحقيقته فأرجوك أن تخبرني ماهو.. فعند ذلك نظر الإمام إلى المهرج وقال له: أيها الرجل هذا حمارك فخذه واذهب به على المربط.

* * * *

فعند ذلك نظر الببغاء إلى قمر السُكَّر وقال لها:

– إنه ينتج من هذه الحكاية فائدة عظيمة، وهي أن الذي يجهل العشق وأحواله ليس في الدنيا على شيء لأن العشق يُهذب الأخلاق ويُعلم الصبر الذي هو دأب

الرجال ويحملهم على العزائم التي هي منازل الأبطال، ولا يخلو من هموم العشـ ق إلا من قلَّ عقله لأن من قل عقله قلت همومه وقد قال الشاعر:

إذا قل عق ل الم رء قلَّ تْ همومـ ـه .. ومن لم يكن ذا مقلـ ـة كيـ ف يـ راه

هذا وقد ظننتني خاليًا من العشق، وهذا وهم منك لأنـ ي أدرى بـ ـه مـ ن كـ ل الخلائق، ولكن ما لنا ولذلك فخذي مني نصيحة واحدة بها تدركين غاية الوتر وهي يجب أن يكون قلبك مضطرمًا بنار العشق، ولكن حذار من الطمع لأن على العاشق أن يتصف بالقناعة، وإذا استحوذ عليه ألم عظيم من هجر حبيبه وصعُب عليه نوال وصاله فلا يجمُل به أن يكون شديد الحرص على ذلك وأن يجِد في طلـ ـب الـ ـدواء لجاجةً، وعليه فلا تكوني لجوجة، حتى إذا نلت وصال حبيبك ولم تعجبك خصـ ـاله يمكنك أن تعرضي عنه بسهولة وتسعي بالرجوع إلى بيتك.. فإياك إذن والحـ ـرص لأن الحريص محروم ولله در من قال:

إياك والحرص إن الحـ ـرص متعبـ ـةٌ وإن فعلت فراع القصد فـ ـي الطلـ ـبِ

قد يرزق المرء لـ ـم تتعـ ـب رواحلـ ـهُ ويحرم المرء ذو الأتعـ ـاب والسـ ـفرِ

فعليه إن الحرص مذموم وعاقبته البوار لأن التاجر (صدري) لم يقـ ـع فـ ـي يـ ـد الأسد من طمعه الذي كان سبب هلاكه. فسألت قمر السُكَّر:

وكيف كانت تلك الحكاية....؟.

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في إحدى مدن "كحروان" تاجر اسمه (صدري).. وبعد أن كان على غِنىً عظيمٍ حكمت عليه الأقدار الربَّانية بالإملاق، وأضحى في حضن الفقر والفاقة حتى عجز عن أود معاشه اليومي وكاد يموت جوعًا هو وعياله.. فيومًا ما قصد السفر إلى بلاد الناس ليجدَّ في طلب الرزق لأن في الحركة بركة فسار مسافرًا حتى أفضى إلى غابة شاسعة يسكنها أسد كاسر من مدة طويلة، ولم يكن أحد يتجاسر أن يمر في ذلك المحل لأن كثيرًا ما فتك الأسد بالمسافرين فاتفق بالقضاء والقدر أنه كان وقتئذٍ عند الأسد الثور والإبل اللذان كانا من أخص وزرائه، وكان الأسد يحبهما حبًا شديدًا وكان دأبهما أن يرشد الأسد إلى الحق والرحمة، فلما أقبل (صدري) على الأسد نظر إليه هذا ساخطًا فارتجف (صدري) خوفًا ورعبًا لأنه أيقن بالهلاك ووقف مبهوتًا متحيرًا لا يتجاسر أن يتقدّم إلى الأمام أو أن يرجع إلى الوراء لأنه إن تقدّم قتله الأسد وإن رجع هاربًا فيتبعه ويقطعه إربًا إربًا.. وأما الثور والأسد، فلما وقع نظرهما على هذا المسكين ترأفا عليه واعتصما بالحيلة لإنقاذه فتقدّم إلى الأسد وقال له:

– نسأل الله أيها الملك العظيم أن يحفظ لنا وجودك الشريف من كوارث الدهر وطواريء الأيام ولا ريب أن الله يستجيب دعاءنا ويطيل بقاءك لرحمتك العظيمة التي شملت ليس فقط الحيوانات التي من جنسنا بل ابن آدم أيضًا الذي هو عدونا اللدود وقد اشتهر ذلك في سائر الأقطار حتى إن هذا الرجل الواقف أمامك قد بلغه ما أنت عليه من الرأفة والرحمة نحو البائسين فقصدك بوفور الأمل ليستمد منك الإحسان، وهو الآن واقف هناك لا يتجاسر أن يدخل عليك خوفًا وهيبة.. فإن شئت فمره أن يدخل. فلما سمع الأسد هذا الكلام فرح فرحًا شديدًا وأمر الثور والإبل بأن

يحضرا (صدري) بين يديه فأحضراه فقبّل (صدري) الأرض ودعا للأسد بطول البقاء ولم يعد يتكلم بشيء من الخوف والرعب، فرق له الأسد وأشار إليه بعلامة الإنس وأجلسه بين يديه ودعا خدمه بأن يأتوا بالحلي والجواهر والأموال الوافرة التي كان قد سلبها من القوافل والمسافرين فأتوا بها ووضعوها أمام (صدري) فحينئذٍ أمره الأسد أن يختاروا منها ما يشاء وأن يأخذ ما يريد.. فلما نظر (صدري) لهذا الالتفات زال خوفه وكاد يطير من الفرح، فاقتاده الطمع أن يأخذ من ذلك شيئاً كثيرًا لا يقدر على إفنائه وإن عاش دهرًا.. وبعد ذلك ألبد عجاجته وسار مسافرًا إلى وطنه فوصل إلى بلدته ووفى ما كان عليه من الدين من الأموال التي أتى بها من عند الأسد.. وبقي معه شيء كثير لا يُحصَى فدفنه في إحدى زوايا البيت وبقيت عائشة مع زوجته بأرغد عيش وأتم هناء.

فمضت على هذه الحالة أيام وشهور وأعوام ولم يحدث له ما يقلق باله غير أنه أخيرًا تحركت فيه شهوة الطمع.. ولما تأمل بما ناله من الحظ الوافر ندم أشد الندم لكونه لم يأخذ كل ما كان عند الأسد من الجواهر والأموال وعزم من ثمَّ على الرجوع إلى الأسد ليأخذ كل ما كان باقيًا عنده من الأموال، فقام ساعته وسار مسافرًا قاصدًا المحل المعهود لكنه لم يكن يعرف الحيل الواجب الاعتصام بها عند وقوع المحذور ولم يكن يعلم أن عاقبة الطمع وخيمة، والحاصل أنه بعد أن سار أيامًا طويلة أفضى إلى المكان المعهود وتقدَّم بين يدي الأسد بكل دالة وشجاعة وكان يومئذ عند الأسد من ندمائه الذئب وابن آوى المجبولين على الشر والقساوة، لأن دأب الأول الخبث والثاني المراوغة وكانا يقودان الأسد إلى الشر.. فلما نظر هذا التاجر مقبلاً على الأسد تقدَّما إليه يحركان غضبه عليه وقالا له:

– يا سلطان السباع لماذا تتغاضى عن المحافظة على حقوقك ولا تحمي أطراف المملكة من العدو، لأن ابن آدم الخادع الماكر قد أتى بكل جسارة إلى مقر سلطنتك بدون استئذان وهذه إهانة عظيمة فلا تدع من أن تجازيه بما يستحقه لأنه لا يليق بك أن تتغاضى عن ذلك، ثمَّ إنك إذا تركته على هذه الحالة يتجسس أحوالنا فلا

ريب أنه يخوننا ويوبقنا لأن شيمته المكر والخداع، فإذا تغاضيت عنه فتحمله الدالة على أن يأتي بخيانة عظيمة تفضي بنا إلى الهلاك والبوار، فيجب إذن أن نقتله حتى لا يعود إلى وطنه فائزًا ويرجع فيما بعد يتجسس أحوالنا. ومايزالا يتكلمان بمثل هذا الكلام حتى أوغرا صدر الأسد وحرّكا حفائظه فقام لساعته ووثب على (صدري) وأراد أن يمزقه تمزيقًا.. وأما (صدري) فإنه لما رأى الذئب وابن آوى قد أغريا الأسد على قتله ولم يكن وقتئذٍ الثور والإبل حاضرين حتى يشفعا به خاف خوفًا شديدًا إذ تيقن هلاكه بسبب طمعه ولشدة خوفه هرب من وجه الأسد وصعد على شجرة عالية ينجو بها من الهلاك، ولكن كان ذلك سببًا لازدياد غضب الأسد وأخذ يضرب الشجرة برجله ليوقع التاجر عنها.. وكان لكل ضربة تهتز الأرض التي من حواليها.

وفي أثناء ذلك أتى الثور والإبل المجبولان على الرأفة والرحمة اللذين أنقذا (صدري) من الهلاك ولدى وصولهما توارى الذئب وابن آوى لأن الأولين كانا أقرب منهما عند الأسد.. فلما نظرا ما أصاب (صدري) علما أن رغبته في احتشاد الأموال جعلته أن يعود إلى الأسد وأن الذئب وابن آوى حرّكا حفائظه وتأكّدا حينئذٍ بأن لابد من قتله.. فتحركت فيهما شعائر الرحمة وأخذا من ثمَّ يبذلان الجهد والعناية في إنقاذ (صدري) منكود الحظ فتقدّما إلى الأسد وقبّلا الأرض أمامه ولاطفاه بالكلام ثمَّ سجد الثور بين يديه وقال له:

– يا سلطان السباع ما الذي أهاج غضبك على هذا المسكين الذي لم يأت إلى هنا إلا ليفتقدك ويؤدي الشكر والثناء لعظمتك الملوكية لما أنعمت عليه سابقًا من النعم الوفيرة، لأنه حسن الطوية وخلاص المودة والنية لم ينس جميلك وينكر عميم أفضالك وحيث نحن عبيدك ترأفت علينا وأقمتنا في خدمتك وخوّلتنا الرضا والالتفاف واستجبت التماسنا مرارًا عديدة فنرجوك أن تعفو عن هذا الرجل البريء الذي لم يرتكب إثمًّا يوجب قتله.. بل إنما أتى إلى هنا ليشكرك على أنعامك فكيف تقتل البريء وعفوك قد شمل المذنبين؟ وفاقت رحمتك بالاشتهار على الشمس في

وضح النهار فاكتسبت بذلك رضاء الله تعالى وثناء الخلائق، فالإنسان يستصبح بحمدك والحيوان ينشد شكرك والطير يدعو بطول البقاء لأنك واصلتهم بالمعروف وعاملتهم بالإحسان. ثمَّ قام الإبل وقال:

– وليس هؤلاء يدعون لك بطول البقاء والملائكة أيضًا وما ذلك إلا لما أنت عليه من التحنن وكرم السجايا فأقبل رجائنا إذ نحن عبيدك الذين لم نطلب منك نعمة إلا وقد نلناها وإذ عفوت عنه فالله يعفو عنك في الدنيا وفي الآخرة.

فلما سمع الأسد كلام هذين الخادمين النصوحين سكن غضبه ورجع عن غيه وقال لهما:

– جزاكما الله خيرًا أيها الخلان الحبيبان.. لأنني لولاكما لكنت ارتكبت إثمًا فظيعًا بقتل هذا البريء، فمن ثمَّ أريد منكما أن تعاهداه على نفسه وحياته وتعطياه الأمان من قِبَلي إذ أن الله أتاه نعمة ورحمة في عين لأنه بريء وأوصياه بأن يثابر على الدعا بطول بقائي وتأييد دولتي.

قال هذا وانصرف عنهما راجعًا إلى مقره.

فعند ذلك قام الثور والإبل وأتيا التاجر (صدري) وأنزلاه من الشجرة وهو بحالة يُرثى لها من شدة الخوف فلاطفاه بالكلام وأرسلاه إلى بيته، فانصرف عنهما شاكرًا حامدًا لأنه لولا شفقتهما لمات شر ميتة.

* * * *

فالآن يا قمر السُّكَّر قد اتضح لك من هذه الحكاية أن الطمع وخيم العاقبة، لأن مصائره ذات خطر مبين وكثيرًا ما أورد المؤرخون مثل هذه الحكايات، ولولا خشية الإطالة لكنت أقص عليك شيئًا كثيرًا من ذلك فحذاري إذن أن تطمعي بالوصال، حتى لا تزل قدمك لأن خمر الوصال يسكر الإنسان، ويكثِّف إثارة العقل، ومتى نلت وصال حبيبك فلا تمكثي عنده زمنًا طويلاً بل ساعة واحدة فقط، حتى لا يشبع عاشقك من لذة الوصال فيزول شوقه. ومن آداب العشق أن لا تتكلمي إلا بقدر

اللزوم، ويكون كلامك دالاً على عقلك وحذاقتك، لأنه قيل خير الكلام ما قل ودل ومنه ينتج أنه يجب عليك أن تجتنبي الكلام الفارغ والرياء لأن عاقبتهما وخيمة جدًا، وذلك لئلا يصيبك ما أصاب ((مهعزار)) زوجة عاصم وزير ملك "تبريز" التي كانت ترتكب جميع الفواحش وتتظاهر أمام زوجها بالصون والعفاف لكنها بعد أن قضت سنين عديدة على هذا المنوال كشف سرها وظهرت طويتها ونالت جزاءَ فعالها.

فسألته قمر السُكَّر:

وكيف كانت هذه الحكاية.......؟.

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

زعموا أنه كان في قديم الزمان في مدينة "تبريز" ملك عظيم الشأن وكان له وزير سليم القلب والنية اسمه عاصم وكان هذا الوزير عاقلاً حكيمًا ومستقيمًا فهيمًا.. ولهذا السبب أقامه الملك وكيلاً مطلقًا على مملكته.. فأحسن تدبير مهامها وواصل الرعاية بالمعروف والإحسان، حتى أصبحوا حسدة للحاسدين ودهشة للناظرين.

فيومًا ما أتى تلك المدينة وفدٌ من قبل ملك الهند فاستقبله عاصم بكل ترحاب واستضافه في بيته إذ كان يُضيِّف عنده معتمدي الأجانب وكان لكل يوم يصنع لهم وليمة فاخرة ويجمع أصحاب المعارف والفنون والملاعب، وكان كل منهم يعمل على شاكلته. ففي ذات ليلة صنع وليمة على الوجه المشروح للوفد، دعا إليها كل من تقدّم ذكرهم ومن جملتهم أحد ندماء الملك المدعو (كلفشان) الذي من جملة مزاياه أنه إذا حضر مجلس اللهو وأخذ يضحك يتناثر الورد من فمه بأمر الله تعالى.. وهذا من أهم الأمور وأغربها.. فلما بلغه دعوة الوزير لبَّاها لساعته، لكنه بينما كان سائرًا في الطريق صادف رجلاً قبيح الصورة شنيع المنظر حتى أن من رآه مرة كان يخاف من أن يراه ثانية، وكان يرقص ويضحك متهللاً ويصفق بيديه طربًا فتعجَّب (كلفشان) من ذلك وقال في نفسه:

– عجبًا.. أية سعادة نالها هذا الرجل حتى استحوذ عليه هذا الفرح العظيم. ولم يكن أحد منهما يعرف الآخر فتقدّم إليه (كلفشان) ولم يكن أحد في الطريق غيرهما وسأله عن سبب سروره فأجابه قائلاً:

– كيف لا أكون مسرورًا ولا أرقص فرحًا وطربًا وقد بلغني بهذه الليلة أن الملك أتاه وفدٌ من قِبل ملك الهند، وأن الوزير قد دعا إلى داره أصحاب المعارف

والفنون ومن جملتهم (كلفشان) نديم الملك، ولا ريب أنه يبقى في الوليمة أربعة أو خمسة أيام ويستمر بيته خاليًا ليس فيه إلا زوجته التي بيني وبينها محبة ووداد عظيم من زمن قديم، وللآن لم أغتنم قط هذه الفرصة.. فكيف إذن لا أكون فرحًا مسرورًا.

فلما سمع (كلفشان) كلام هذا الرجل.. وعرف غايته، طار عقله من الحيرة والدهشة حتى أصبح كالجماد وكاد يموت لشدة حزنه... غير أنه حيث كان عاقلاً أسرَّ الأمر في نفسه وانصرف عن هذا الرجل وتركه ريثما بعُد عن نظره ودلف إليه بحيث لا يراه قاصدًا الرجوع إلى بيته ليحمي امرأته عن ارتكاب الفحشاء إلا وقد وفد عليه حشم الوزير وألحوا عليه بالذهاب إليه حالاً، فأطاعهم خشية من الوزير وأتى معهم مجلس الصفا والانشراح.. فلما نظره الوزير دعاه إليه وأمره أن يضحك حتى يتناثر الورد من فمه.. لكنه حيث كان حزينًا كئيبًا فلم يتمكن من فتح فِيه للضحك.. فألحَّ عليه الوزير وتوعده بأشد القصاص إن خالف أمره فلم يضحك بل كان يزداد حزنه.. فغضب على الوزير وطرده من أمام وجهه، وبعث يخبر الملك بما كان من أمره وأنه أصبح خجولاً من الوفد لعصاوة (كلفشان) وتمرده فغضب الملك من ذلك وقال:

– إنما تقيد هذا الرجل بخدمتي لمثل هذا العمل فكيف يتجاسر على مخالفة أمر وزيري الذي أعتمد عليه فحقًا إنه لرجل خائن يستحق جزاءً صارمًا.

قال هذا وأنهى إلى الوزير بأن يطرحه في السجن، فامتثل الوزير لأمر الملك وفي الحال أرسل (كلفشان) إلى السجن فغللوه بالقيود وتركوه وحده باكيًا نائحًا، وازداد حزنه حيث كان في شرٍّ فأصبح في شرَّين؛ فسار يتفكر في عاقبة أمره خائفًا بأن يأمر الملك بقتله فنظر إلى العلا وقال:

– إلهي أنت تعلم السر والخفايا ومن ثمَّ تعرف ما في باطني من الوجع الأليم، فإن الملك بدلاً من أن يطلبني بين يديه ويسألني عن سبب مخالفتي أمر الوزير

فوضعني في السجن دون أن يفحص عن السبب، وربما لا يكتفي بحبسي بل يقتلني أيضًا فارثِ لحالي يا إلهي وانقذني من الموت لأنني بريء. ثمَّ إنه جلس في شباك السجن الذي كان يشرف على البحر وأخذ يبكي وينوح، وبينما كان على هذه الحالة وقع نظره بغتة على زورق في البحر وفيه رجل فأمعن النظر فيه، وسار يراقب مسيره حتى وصل إلى قُبالة الشباك الذي كان جالسًا فيه حيث كان حرم الوزير في علو السجن وكان للوزير زوجة اسمها (مهعزار) وكانت جميلة جدًا وقد ابتلت بعشق جلاَّد الملك الذي كان في الزورق، ولما رأته قد دنا من حائط القصر تدلَّت بحبل من الشباك وانحدرت إليه؛ فأخذها ووضعها في الزورق وأخذ يلاطفها ويغازلها ولم يكن أحد ناظرًا إليهما سوى (كلفشان) الذي لما رأى أن زوجة الوزير أعرضت عن زوجها وهوت من لا يستحق أن يكون له عبدًا أخذه عجب العجاب.. ولما رأى الجلاَّد يغازلها ويفعل غير ذلك لم يتمالك من أن يضحك فصار حينئذٍ ينثر الورد من فمه.. حتى امتلأ السجن وصار كروض مزهر..

هذا وكان السجان مراقبًا (كلفشان) حسب أمر الوزير.. فلما نظره ضاحكًا تعجَّب مندهشًا وقال في نفسه "سبحان الله لاريب أن هذا الرجل مجنون؛ لأنه وُضِعَ في السجن لكونه لم يضحك، وقد ألحَّ عليه الوزير وتوعده بالقصاص فلم يفعل.. فكيف الآن يضحك ضحكًا شديدًا وهو في محل الهلاك" قال هذا وذهب إلى الوزير ليُعلِمه بذلك؛ لأنه كان قد أمره بأن يخبره عن كل ما يفعله (كلفشان).. فلما عرف الوزير ما كان من أمر (كلفشان) تعجَّب واندهش وبعث يخبر الملك بذلك فتحير من هذا الأمر وقال:

– لا يخلو هذا من سرٍّ عجيب. وأمر الوزير بأن يأمر السجان بأن يترقب كل ما يفعله (كلفشان) ويخبره به.

وبعد يومين انحدر الوزير عاصم على بستان الحريم مع زوجته لأجل التنزه وكان معها عدد من الجواري الحسان.. وبعد أن تنزَّها قليلاً أخذ الوزير يلاطف زوجته والجواري واقفة مكتوفة اليدين أمامها.. ثمَّ ذهبت إحداهن وقطفت باقة من

السنابل والبنفسج والنرجس والريحان، وقدمت ذلك للوزير ووضعته بين يديه.. فلما وقع نظر (مهعزار) على هذه الزهور استحت منها وأسبلت الغطاء على وجهها.. فعند ذلك نظر إليها الوزير وسألها عن سبب ذلك فأجابته:

– ألا تعلم يا سيدي أني لا أريد أن ينظر إلى جسدي الطاهر شيء مما في الدنيا لأنه مختص بك فقط، وحيث قد نظَرَتْه عين النرجس فقد تحجَّبتُ عنها.

فلما سمع الوزير كلام زوجته فرح فرحًا عظيمًا وسُرَّ منها جدًا، إذ تيقن أنها على جانب عظيم من الطهارة فأحبها حبًا شديدًا وشكرها على عفافها.

هذا وكان في ذلك المحل قفص فيه بلبل فلما سمع هذا الطائر كلام (مهعزار) ضحك ضحكًا شديدًا وكان ذلك بأمر الله تعالى ليظهر خُبث تلك المرأة فسمعه الوزير وزوجته وكل من كان حاضرًا، وأخذهما العجب العظيم فخجلت (مهعزار) من ذلك خجلاً عظيمًا؛ فقال الوزير في نفسه:

– "عجبًا لماذا ضحك هذا البلبل.. وأي شيء ينتج من ذلك؟ فلا ريب أن يخلو من أمر عجيب.. فيجب عليَّ إذن أن أفحص وأدقق لأنه لا شك يوجد في بلادنا من يعرف ذلك بالدليل".

فدعا الكهنة والسحرة وأخبرهم بذلك فأمعنوا النظر في هذا الأمر وعجزوا عن تأويله فازداد حينئذٍ تحير الوزير من هذا الأمر العجيب وتاق لمعرفة حقيقته.

هذا وقد اشتهر ضحك هذا البلبل في سائر النواحي وبلغ مسامع السلطان الذي أخذته الحيرة والاندهاش وطلب من كثيرين حل هذا المشكل؛ فلم يقدروا عليه وفي آخر الأمر بلغ ذلك مسامع المسجونين.

فقال (كلفشان) للسجان:

– بلِّغ سيدي الملك أنه لا يستطيع معرفة هذا الأمر إلا أنا.. فيأمر بإخراجي من السجن وإحضاري بين يديه لأخبره حقيقة الواقع.. فقام السجان لساعته وأخبره بكل ما قاله (كلفشان) فذهب الوزير إلى الملك وأخبره بذلك.

فلما عرف الملك ما كان من أمر نديمه أمر حالاً بإخراجه من السجن وإحضاره بين يديه فلما مَثُلَ (كلفشان) بين يدي الملك نظر إليه الملك وقال له:

– يا (كلفشان) إنك من قديم الزمان متقيد في خدمتي ومغمور بنعمتي؛ فكيف خالفت أمري ونبذت وصيتي ولم تضحك أمام وفد ملك الهند، مع أنك لما طُرحت في السجن أخذت تضحك بدون سبب حتى امتلأ السجن من الورد .. فأخبِرْني أولاً عن سبب ذلك.. ثمَّ أخبرني عن سبب ضحك البلبل. فنظر (كلفشان) إلى الملك بكل تذلل وقال:

– إنني لم أضحك في مجلس اللهو لعصاوتي بل لسبب عظيم.. وهو أنني لما كنت آتيًا إلى الوليمة صادفت في الطريق رجلاً قبيح المنظر يتكلم كلامًا وخيمًا أهاج غضبي وكدري، ولشدة ما أحاقني من الكدر لم أقدر أن أضحك وكان كلما ألحَّ عليَّ الوزير يزداد حزني وكدري.

وإنما ضحكت في السجن حتى امتلأ من الورد المتناثر من فمي لأنني نظرت أمرًا غريبًا فلم أتمالك من الضحك ولا يمكنني أن أخبر عنه؛ لأنني إن أخبرت عنه كان سببًا لهلاكي، وإن لم أخبر به فأنا لا محالة هالك، ولهذا صرت في حيرة عظيمة لا أعرف ما يجب إيثاره من هذين الأمرين.

قال هذا وأخذ يعتذر للملك ويترجاه بأن يعفيه من إخباره بما رأي.. فقال له الملك:

– أخبرني يا (كلفشان) حقيقة الواقع فإن تكلمت بالصدق نجوت من الهلاك، وإلا هلكت لا محالة. فأطرق (كلفشان) وقال في نفسه:

– "لا يوافقني إذن إلا أن أتكلم بالصدق لأنجو من الهلاك" ثمَّ نظر إلى الملك وقال له:

– يا سيدي إنني لما دُعيت إلى الوليمة قمت حالاً ولبيت دعوة الوزير لكنني بينما كنت سائرًا في الطريق صادفت رجلاً قبيح المنظر وكان يرقص طربًا

ويصفق بيديه قائلاً بأنه يغتنم فرصة غيابي عن بيتي ليذهب ويباغي زوجتي التي ابتُلِيَ بعشقها من مدة طويلة، فغيرة على عرضي قصدت الرجوع إلى بيتي إلا وقد وفد عليَّ أعوان الوزير واقتادوني رغمًا إلى الوليمة، فلا يخفاك الآن يا مولاي ما أعظم الحزن الذي اعتراني حينئذٍ، ولشدة كدري لم أتمكن من الضحك في مجلس الوزير، ولا غرو أن يكون عذري هذا مقبولاً.. وأما ضحكي في السجن فهو لأنني نظرت جلاَّد سيدي الملك آتيًا في زورق وما زال سائرًا حتى وصل إلى قُبالة السجن الذي أنا فيه تحت قصر الوزير عاصم.. فلما نظرته (معه زار) زوجة الوزير انحدرتْ إليه متدلية بحبل من الشباك وجلست معه في الزورق فأخذ يلاطفها ويغازلها ويبدي غير ذلك، وحيث كنت حزينًا كئيبًا لأن زوجتي عشقت رجلاً قبيح الصورة سلوت حينئذٍ، إذ نظرت زوجة الوزير قد هوتْ الجلاَّد الذي لا يستحق أن يكون له عبدًا.. فعند ذلك انجلى همِّي وغمِّي وهانت عليَّ مصيبتي لأنه قيل: إن البلوة إذا عمت طابت.. فلم أتمالك نفسي حينئذٍ من الضحك حتى امتلأ السجن بالورد المتناثر من فمي لأنني وإن كنت في بليَّة فقد رأيت بلية الوزير أعظم، وفضلاً عن ذلك رأيت من هذه المرأة بعد ذلك ما يدل على أنها طاهرة عفيفة؛ لأنني نظرتها مرة في البستان تتنزه مع زوجها ومعها عدد من الجواري فقامت إحداهن وقطفت باقة من النرجس و(إلياس) مين وغير ذلك ووضعتها بين يدي الوزير فلما رأت (مهعزار) هذه الزهور تظاهرت بالحياء وغطَّت وجهها وتحجبت عنها.. ولما سألها زوجها عن سبب ذلك أجابته أنها لا تريد أن تنظرها عين النرجس و(إلياس) مين؛ لأنها مُحصنة مُتحجبة عن سائر المخلوقات.. فلما سمعت يا سيدي هذا الكلام بعد أن رأيت بعيني مباغاتها مع الجلاَّد؛ فلم أتمالك نفسي من الضحك ولهذا السبب ضحك البلبل الذي كان في القفص بإذن الله تعالى؛ لكي يظهر فجور هذه المرأة وفحشها المستورين تحت بُرقع الطهارة والعفاف.. فهذه يا سيدي حقيقة الأمر ومنها يتضح عذري فإن عذرت فأنت ترحمني وإلا فافعل بي ما تشاء؛ لأنني عبدك وفي قبضة يدك تفعل ما تريده.

فلما سمع الملك هذا الكلام تعجَّب جدًا، ولم يَرْتَبْ به لأنه كان يعهد في (كلفشان) الصدق والاستقامة، فحينئذٍ دعا لغلمانه وأمرهم بأن يلقوا القبض على زوجة (كلفشان) والرجل القبيح الذي عشقته وعلى الجلاَّد وزوجة الوزير، ولكي يجعلهم عبرة ورهبة لأمثالهم أمر بصلبهم على أبواب المدينة فصلبوهم حسب أمر الملك.

وأما ما كان من أمر (كلفشان).. فإن الملك قَبِلَ عذره وعفا عنه وأنعم عليه بخُلعة ثمينة ورفع منزلته وصار منذ ذلك الحين لا يفتر قط عن معاملته باللطف والإحسان؛ فعاش (كلفشان) زمانًا طويلاً تحت سوابغ ظل الملك محبوبًا من رجال الدولة ومكرمًا من الجميع، وهذا ما انتهى إليه أمره بقوة الله المتعالي الذي أعدَّ له منذ البدء هذه التجربة ليكافئه بأجل وأحسن نعمة.. فله الشكر على أنعامه والحمد لله على آلائه.

* * * *

فلما أنهى الببغاء هذه الحكاية نظر إلى قمر السُّكَّر وقال لها:

– يجب عليك يا سيدتي أن تستنتجي من هذه الحكاية فائدة عظيمة، ومتى تيسر لك وصال حبيبك فلا تسلكي في طريق الخبث والخداع مثل (مهعزار) لأن ثوب الرياء يبلَى بأقرب وقت ويظهر علنًا كل ما تحته ولله در من قال:

ثوبُ الرياءِ يشفُّ عما تحتَه ... فإذا اكتسيتَ به فإنك عاري

وقد تذكرت الآن حكاية مفيدة ونصائح عظيمة أريد أن أقصها عليك لمزيد الفائدة.. ولكن حيث قد مضى الوقت اقتصرت على ما قلته؛ لأنني أخشى فوات الفرصة فتعدمين مرغوبك الذي أسعى في تبليغك إليه، ولأجله أسهر الليالي برمتها، فاذهبي إلى حبيبك ولا تتأخري أبدًا وفي الليلة الآتية أقص عليك الحكاية التي وعدتك بها.. وأما الآن فاغتنمي هذه الفرصة ولا تدعيها تمر لأن الماضي ليس بعائد ولا الآتي بموثوق به لأنه قيل: ليس للنفس عوض ولا للأيام بدل، وكما قال الشاعر:

تمتع من الدنيا بساعتك التي   ظفرت بها ما لم تعقك العوائقُ

فما يومك الماضي عليك بعائدٌ   ولا يومك الآتي به أنت واثقُ

فعند ذلك فرحت قمر السُّكَّر وقامت لساعتها قاصدة حبيبها لكنها لما فتحت الباب رأت الشمس قد نورت الكون كما تنور وجه (كلفشان) نديم الملك فرجعت إلى حجرتها خائبة، وأجلت رغدها إلى الليلة التالية، وقضت ذاك النهار متحسرة متأسفة حتى آلت الشمس إلى الغروب؛ فعند ذلك تزيَّنَتْ وأتت قفص الببغاء وقالت له:

– قد وعدتَني ليلة أمس أن تقص على حكاية ذات فائدة عظيمة فأرجوك الآن انجز وعدك.

فأجابها الببغاء:

– يا سيدتي إنني أريد أن أفي بوعدي غير أن هذه الحكاية طويلة فأخشى من أن سماعها يمنعك عن الذهاب إلى حبيبك فالأحسن أن تذهبي إليه في الساعة، وبفرصة ثانية أقص عليك هذه الحكاية اللطيفة التي لم يسمع أحد بمثلها ويكفيك من النصائح ما أوردته لك حتى الآن.

فأجابته قمر السُّكَّر:

– حيث إن الحكاية على جانب عظيم من اللطافة فلا يمكنني أن أنصرف من هنا قبل سماعها، فأرجوك إذن أن لا تحرمني من ذلك وبعده أتوجه إلى حبيبي لأن الليل يكفي لذلك.

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في بلاد اليمن تاجر اسمه (جوهر شناس) رزقه الله من الغنى أجزاله ولم يرزقه من البنين إلا ابنة واحدة.. فلما كان هذا التاجر ذات مرة سائرًا في إحدى الصحاري متنزهًا رأى بغتة جمجمة إنسان؛ فأخاذها بيديه وتفرس فيها فوجد مكتوبًا عليها هذه الكلمات:

- "إنني إذا كنت حيًا كنت سببًا لموت ثمَّانين رجلاً وبعد وفاتي بمدة طويلة سأكون سببًا لموت ثمانين رجلاً أيضًا.." فلما قرأ (جوهر شناس) هذه الكلمات أخذه العجب وأطرق برهة ثمَّ قال في نفسه:

- ما عسى أن يكون معنى هذه العبارة.. فربما أن صاحب هذه الجمجمة إذا كان حيًا كان لصًا فقتل ثمانين رجلاً أو كان جلاَّدا فقتل ثمانين مجرمًا بأمر أولياء الأمور أو كان من المزورين الحاذقين فصار سببًا لقتلهم.. فهذا لا يبعد عن الصواب ولكن من بعد موته كيف يكون سببًا لقتل ثمانين رجلاً..؟ فلا يخلو هذا الأمر من سر عجيب لابد من ظهوره.

قال هذا وأخذ الجمجمة وأتى بها إلى بيته.. فسحقها ووضع مسحوقها في علبة ووضع العلبة في صندوقه.

فمضت على هذا المنوال أيام وشهور وأعوام، ولما عن لجوهر شناس أن يسافر إلى بلدة بعيدة ليتجر فتأهَّب للسفر وشدَّ على رحالته وسار مسافرًا، وبعد سفره أتت ابنته وفتحت صندوقه لترى ما عنده من التحف فرأت العلبة المتقدّم ذكرها، وفتحتها ورأت فيها مسحوقًا لم تدر ما هو فتعجَّبت من ذلك وقالت ما عسى أن يكون هذا؟ وبعد أن تفرَّست فيه ظننته شيئًا يؤكل فأخذت من ذلك مقدارًا وأكلته وفي الحال حبلت الابنة دون أن يعرفها رجل وسار حَبَلها يزداد يومًا بعد يوم حتى تمت أيام

الحَبَل فولدت ولدًا ذكرًا وإذ لم يكن له أب سموه (ابن الغيب) فكبر هذا الولد ودرج عن عشه وبعد أيام قليلة رجع (جوهرشناس) من سفره فنظر في داره غلام ينتقل من محل إلى آخر بكل حشمة وأدب وعلامات العقل والفطنة تلوح على وجهه؛ فسأل عنه زوجته فأجابته:

– إن العلبة التي كنت وضعتها في صندوقك وقعت في يد ابنتك فأكلت من المسحوق الذي فيها شيئًا يسيرًا، وفي الحال شعرت بالحَبَل وولدت هذا الغلام الذي سميناه بابن الغيب إذ لا أب له. وحيث كان التاجر يعلم بما في العلبة وبما سوف يحدث من ذلك فصدق زوجته وقال:

إن المكتوب منذ الأزل لا يمحى وما حدث لابنتي مقدر عليها منذ البدء. قال هذا وأخذ الغلام وقبَّله وبعد أن تفرس فيه قال:

– يجب علينا أن نحسن تربية هذا الغلام فلعل الله يأتينا بواسطته حظًا وافرًا.

وبعد مدة أتت إلى تلك المدينة سفينة من مدينة سماك وفيها تجار ومعهم جواهر ثمينة.. فلما علم بهم (جوهر شناس) أتى إليهم واشترى منهم شيئًا كثيرًا من الجواهر الثمينة.. فلما رأى ابن الغيب هذه الجواهر تفرس فيها ثمَّ نظر إلى جده وقال:

– يا ابنتي العزيز إن بين هذه الجواهر حجرين ليسا بجواهر زجاج ولا قيمة لهما.. فردهما على التجار الذي اشتريتهما منهم وفي الحال أفرز الحجرين المحكي عنهما وأعطاهما إلى جده، وحيث كان (جوهر شناس) يثق بكلام (ابن الغيب) أخذ الحجرين وذهب إلى التجار ليردهما عليهم فقابل رئيس التجار وقال له:

– إن هذين الحجرين ليسا بجواهر بل زجاج لا تساوى قيمتاها فلسًا واحد.. فأجابه الرئيس:

– ومن أين علمت ذلك وهما لا يفرقان قط عن الحجارة الكريمة.

فأجابه جوهر شناس:

- إن الغلام الذي عندي المدعو ابن الغيب قال لي إن هذين الحجرين زجاج، وأفرزهما من بين سائر الحجارة وكيف كان الأمر، فأنا أثق بكلامه وهذان الحجران لا أقبلهما فخذهما إذن ورد لي الثمن.

وأما التجار فإنهم لما سلموا الجواهر لجوهر شناس لم يكونوا عارفين أن الحجرين المشار إليهما زجاج، ولكنهم لما أمعنوا النظر فيهما تأكدوا صحة ما قاله جوهر شناس فاستردوا منه الحجرين، وترامو على أقدامه طالبين منه أن يسلموا (ابن الغيب) ويبذلوا له كل مال يريده فأبى أن يسلمهم إياه فعند ذلك صار هذا الغلام يلح على جده ويرجوه أن يرسله معهم ليتفرج على بلاد الناس وقال له:

- يا سيدي أنت تعرف حقيقة حالي.. وأما أهل المدينة فلا يعرفونها بل يظنونني ابنًا من غير أب.. فيستلقونني ويشتمون بك وبابنتك، فإن سافرت من هذه الديار نجوت من العار.

وقصارى الكلام إن (جوهر شناس) قد ارتضى أخيرًا أن يسلمهم (ابن الغيب) وقال لهم:

هذه أمانة الله سلمتكم إياها.. فاحرصوا على هذا الغلام لأنه جوهرة ثمينة.

قال هذا ووعدهم ورجع إلى بيته وأما التجار فبقوا في ميناء تلك المدينة حتى أتتهم ريح مناسبة فأقلعت سفينتهم وسارت نحو بلادهم، وبعد أيام قليلة وصلوا إلى مدينة سماك بأتم حال من الصحة والسلام.

هذا وكان في تلك المدينة ملك عظيم وله وزير عاقل اسمه (كامين) وكان لهذا الوزير عدد من النساء والجواري وكانت إحداهن (كامجوي) قد اكتسبت رضا سيدهم أكثر منهن لجمالها الفائق.. ولهذا سلطها عليهن.. فيومًا ما أتى معها إلى بستان جميل للتنزه.. وكان بمعيتها عدد من الجواري فجلس الوزير وزوجته بجانب حوض فيه سمك والجواري كن واقفات تصطاد منه سمكًا لأجل التسلي، وكان

يحضرن السمك حيًا ويضعنه أمام الوزير فلما علمت (كامجوي) أن السمك حي تحجبت عنه وتبرقعت.

فسألها الوزير عن سبب ذلك..

فأجابته:

– يا سيدي ألا تعلم أن هذا السمك الخارج الآن من المياه هو حي ولا غرو أنه يوجد فيه ذكور، فربما ينظرون إلى وجهي.. وهذا شيء محرم وأنا أريد التحجب ليس فقط عن ابن آدم بل عن الحيوانات أيضًا لا يلمس شرف طهارتي.

فلما سمع الوزير هذا الكلام حسن لديه وتأكد عفاف زوجته فشكرها على ذلك.. فعند ذلك ضحكت سمكة من السمك الموجود بين يدي الوزير.. فحينئذٍ بهتت (كامجوي) متحيرة وانشغلت أفكارها.. وأما الوزير فأخذه العجب والاندهاش وطاق إلى معرفة سبب هذا الضحك فدعا بالعلماء والسحرة وأخبرهم ما جرى له وقال لهم:

– لا يخلو ذلك من سر عجيب فأريد منكم أن تبينوا إلى هذا السر. فافتكروا كثيرًا في ذلك ولم يقفوا على السر المطلوب فحينئذٍ قام أحدهم وقال له:

– يا سيدي ليس في الدنيا كلها من يعرف ذلك وإذا وجد فيكون من عجائب الدهر، ولا يستطيع حل هذا المشكل إلا ابن الغيب الموجود عند رئيس التجار، فاطلبه منه وقص عليه الخبر. ففي الحال دعا الوزير أحد غلمانه وأمره أن يحضر إليه ابن الغيب فذهب الغلام وأحضره بين يديه، وأخذ الوزير يخبره كل ما جرى له وطلب منه حل هذه الإشكال ونظر ابن الغيب إلى الغلامين الحاضرين، وطلب منهما أن يأتوه بالسمك حتى يراه.. فلما رآه نظر إلى الوزير وقال له:

– يا سيدي إذا كنت تريد أن أخبرك عن هذا السر الذي شغل بالك.. فأريد أن أخبرك به سرًا لأن فيه شيئًا يجب كتمه.. فعند ذلك أجلسه الوزير بين يديه وأمر غلمانه وجواريه بأن يخرجوا عنه.. فعند ذلك قال ابن الغيب للوزير:

– يا سيدي إن هذا السمك قال لي إن الوزير عنده أربعون جارية وكل واحدة منهن عاشقة شابًا تخفيه في حجرتها.. وكل يوم تقضي معه مدة بالمزاح والمغازلة وغيرهما، والوزير غير عالم بذلك وسيدتهن (كامنجوي) أشد منهن فسقًا وفجورًا وما تفعله باقي الجواري هو بإمدادها ومشورتها غير أنها معتصمة بالرياء، ولهذا تبرقعت عندما نظرت السمك وهذا دأب المرأة الفاجرة فلا تعجب إذا ضحك السمك عندما سمع كلام (كامجوي) الفاسقة لأنه عرف طويتها.

فلما سمع الوزير هذا الكلام تعجَّب وقام لساعته وفتش مَخادع الجواري.. فرأى في مخدع كل جارية شابًا جميل الصورة وعدد هؤلاء الشبان كعدد الجواري – أي أربعون شابًا – فتأكد حينئذٍ من صحة ما قاله (ابن الغيب).. وفي الحال أمر بقتل الجواري والشبان فأخذهم جميعًا خارج المدينة وقتلهم.. فالآن يا قمر السُكَّر أمعني النظر في ذلك وانظري كيف كانت عاقبة (كامجوي) الفاجرة فلا تسلكي إذن هذا الطريق حيث إنك مجبولة على كرم السجايا.. فاذهبي الآن إلى حبيبك وافعلي ما أوصيتك به وابتعدي عن الرياء لأنه ينتج عن عدم الوفاء الذي هو من أعظم الرذائل... لأن النساء نوعان.. فمنهن من يكون نصيبها السعير ومنهن من تذهب إلى الجنة.. فالأولى هن اللواتي لا وفاء لهن ويكن مرزولات إلى يوم القيامة والأخريات هن اللواتي يختصون الوفاء فيحبهن الله والنساء، فكوني أنت من النوع الثاني لأن النوع الأول الذي لا يصادف إلا شر وأمثاله كثيرة فإن شئت أورد لك خبرًا يسر الخاطر.

فقالت له قمر السُكَّر:

– تكلم لأرى ما عندك.....؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في قديم الزمان في مملكة مصر العظيمة ملك اسمه (جامست) وكان عنده ببغاء حكيم عاقل فصيح اللسان حافظ القرآن اسمه (زبان) ومعناه الصحيح اللسان.. وكان السلطان يحبه حبًا شديدًا وجعله من أخص نُدمائه لجودة عقله وفصاحة لسانه، وكان في أغلب الأوقات يجالسه ويحدثه مليًا بأخبار تسره سرورًا عظيمًا. فيومًا ما إذ كان السلطان يحادثه عرض بذكر البنات الجميلات فقال له الملك: أيها الببغاء:

– قد سحت في أربعة أقطار العالم ونظرت من البنات الجميلات عددًا وافرًا فأخبرني عن التي أعجبتك أكثر من الجميع بجودة عقلها وجمالها.. فأجابه الببغاء:

– يا سيدي قد سحت في سائر المدن وعاشرت أصحاب المناصب ودخلت دور السلاطين، ونظرت حريمهم ورأيت من الحسن والجمال ما يدهش الناظر.. لكنني لم أر قط أجمل حسناً وجمالاً من ابنة والي دمشق الشام التي لم ترعين مثلها فتراها ساطعة كالبدر المنير، وقد اجتمعت فيها كل المحاسن كما قال الشاعر:

ساق تكون من صد بحٍ ومـ ن غسـ قِ   فـ .أبيضٌ خـ .داه وأسـ .ودّ غـ .دائرهُ
سـ . ودٌ سـ . والفه لعـ . سٌ مراشـ . قُهُ   تعـ .سٌ نـ .واظره غـ .رسٌ أسـ .اورهُ

قال هذا وأخذ يطلب في مدح هذه الابنة بما لا مزيد عليه حتى وقع في قلب الملك الهيام وأضحى عاشقاً لها قبل أن يراها لأنه قيل: الأذن تعشق قبل العين أحياناً.

فنظر الملك إلى الببغاء وقال له:

إنني قبل هذه الساعة كنت خاليًا من العشق.. وأما كلامك هذا فقد أوقع في قلبي الهيام وأهاج في الحب والغرام، وقد ابتليت الآن بحب هـ ذه الابنـ ـة وإن لـ م أنـ ل وصالها فأموت كمدًا ولهذا أريد أن أتأهل بها لكونها لم تزل بكرًا ومرادي أن أرسل عمدة إلى أبيها يخطبونها لي، فإن كانت كما قلت بديعة الجمال وأعجبتني فأجازيك جزاءً عظيمًا وأعطيك كل ما تطلبه ولو كان نصف ملكي وإلا فجزاؤك الموت.

فأجابه الببغاء:

– يا سيدي إن ما قلته لك هو الواقع وسوف يظهر لك صدق قولي إذا نظـ رت هذه الابنة ولا ريب أن حبها يزداد في قلبك ولا أنال منك إلا خير الجزاء، غير أن لي نعمة أطلبها منك الآن وهي أنه يوجد عند الابنة المشار إليهـ ا ببغـ اء فصـ يحة اللسان اسمها (سخن برور) وقد قضيت معها زمنًا طويلاً وهي من أعز أصـ حابي وقد عز عليَّ فراقها ولهذا أرجوك إن أتت هذه الببغاء مع سـ يدتها أن تـ أمر بـ أن توضع معي في قفص واحد لأنال الوصال بعد الهجر، وبذلك توليني أكبر جميـ ل. فعاهده الملك بذلك إذا كان قوله صحيحًا.

وبعد أيام أرسل الملك إلى والي الشام معتمدًا وبعث يأمره بأن يزف ابنته إليـ ـه ويرسلها إلى بلاده مع المعتمد الذي وجهه إليه.. فلما وصل هذا المعتمد إلى دمشق وبلغ الوالي أمر الملك استقبله الوالي بكل ترحاب وأبدى له وفور الإكرام وسـ لمه الابنة مع جهازها و الببغاء التي عندها، وأرسل معه إلى الملك نفيس الهدايا وأفخر التحف.. فأخذها المعتمد وسافر مع عروس الملك وبمعيتها عـ دد مـ ن الجـ واري الحسان وعند وصوله إلى البلاط الملوكي استقبلوه بمزيد الإكرام والسرور.. وبعـ د أن استراح قليلاً طلب مقابلة الملك فقدم له الابنة، وأخبره بما لقيه من مكارم أبيهـ ا وكل ما جرى له في مدة سفره.. فلما نظر الملك إلى الابنة وما هـ ي عليـ ـه مـ ن الحسن والجمال وقع في قلبه الحب والغرام.. وتسعَّر بنار الهوى والهيام لما كانـ ت عليه من البهاء الفائق، وفضلاً عن ذلك فإنها كانت على جانب عظيم مـ ن الفطنـ ـة والعقل ومجمّلة بالعلوم والمعارف فسر من ذلك سرورًا عظيمـً ا وشـ كر الببغـ اء

(زبان) أورد أن يجازيه عما فعل وأن يفي ما وعده به وهو أنه ليلة دخوله على الابنة أمر أحد خدمه أن يأتي بالببغاء (سخن برور) ويضعها في قفص صديقها فامتثل الخادم لأمره وفعل كما أشار.. فلما رأى الببغاء صديقته عابتها وشكا لها من ألم البعاد وقال:

– الحمد لله الذي يسر لنا رغدًا هنيئًا وأولانا نعمة الوصال بعد الهجر الطويل.. وما كان ذلك إلا بواسطتي لأنني لم ألهم الملك بأن يطلب ابنة والي دمشق إلا لأحظى بوصالك... وقد اشترط عليه أن يجمع بيني وبينك من أول ليلة فلا تصفيني بقلة الوفاء، لأننا نحن معشر الذكور نراعي الوفاء قبل كل شيء بخلاف الإناث لأنه قلما توجد أنثى ذات وفاء والشاهد على ذلك حكاية (همة ناز).. فسألته الببغاء:

وما هي حكايتها...؟.

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في قديم الزمان في ساحل (سرنديب) تاجر اسمه (بهزاد) على جانب عظيم من الغِنى، وكان له امرأة جميلة الصورة بديعة الحسن اسمها (همة ناز) وكان يحبها حبًا شديدًا.. فيومًا ما سافر للتجارة وترك زوجته وحدها في البيت ولم تمض إلا أيام قليلة من بعد سفره حتى نسيته زوجته، وإذ لم يمكنها من أن تنتظر رجوع زوجها اضطرت أن تعشق شابًا من شبان المدينة الذي كان من أعز أصحابه.. فكان يأتي إليها كل ليلة ويتمتع بوصالها، وكانت هي تفرح لقدومه ولم تعد تتذكر زوجها الذي استمر محافظًا على حقوق المحبة والصداقة.

وبعد مدة طويلة رجع التاجر من سفره، وعند دخوله البيت حزنت زوجته من إيابه لأنه امتنع عليها معاشرة عاشقها فصار شوقها إليه يزداد يومًا بعد يوم حتى توطد بغض زوجها في قلبها. فيومًا من الأيام كادت تموت من زيادة الشوق ولما ظل الليل أخذت تفكر في حيلة لتذهب إلى عشيقها فلما رقد زوجها نجته حتى غاب عن الصواب.. وفي الحال تزيَّنَتْ وتوجهت إلى حبيبها ولكن كان بالقضاء والقدر أن أتى بيتها في تلك الليلة سارق، ولما نظرها غير راقدة اختفى في إحدى زوايا البيت لتأتيه فرصة مناسبة.. ولما نظرها تفعل مع زوجها ما فعلت تحير واندهش ولما خرجت من البيت عدل عن السرقة وتتبع آثارها ليرى ما يفضي إليه أمرها وما زال ماشيًا وراءها وهي لا تراه حتى دخلت بيت عاشقها، فعند ذلك ذهب السارق إلى حاكم المدينة وأخبره ما كان من أمرها.. فأرسل الحاكم غلمانه ليستحضروها فوجودها في بيت عاشقها فأخذوهما حينئذٍ إلى الحاكم.. وكانت العادة في تلك المدينة إذا حدث مثل هذا الأمر أن يصلبوا الرجل ويعفوا عن المرأة

ويطلقوا سبيلها.. ومن ثمَّ أخذوا هذا الرجل الفاسق وصلبوه وأطلقوا سبيل المرأة، ولما كان عاشقها ومنازعًا على الصليب دعاها إليه ولما دنت منه.. قال لها:

– يا موضوع حبي وسروري.. انظري إلى أين آل بي هذا الحب، ومع ذلك فأنا راضٍ ببلواي غير أنني أرجوك أن تدني مني حتى أودِّعك بالقبلة الأخيرة.

فتقدّمت إليه وسارت تمسح وجهها بوجهه، وحيث إنها كانت سبب موته بغضها بغضًا شديدًا؛ فعضها بأنفها ولم يتركها حتى قطعها وبقي الأنف في فمه إلى أن قضى نحبه.. فعند ذلك أخذت تبكي وتنوح وذهبت إلى بيتها حزينة لا تدري ما العمل.. فوجدت زوجها نائمًا وعند ذلك صارت تفكر في وجه الحيلة لدفع هذا العار عنها فقالت في نفسها: إن الذي أحببته قد مات وأما أنا فأي جواب أعطيه لزوجي إذا نظرني على هذه الحالة، وكثيرون من الناس قد رأوا ما أصابني فكيف أنجو من العار والفضيحة أمام الجيران.. فليس لي حيلة إلا أن ألطخ ثياب زوجي بالدم وأشيع الخبر بأنه كان سكرانًا وقطع أنفي فيصدقني الناس وأوقع به النكبة وأنجو بهذه الحيلة من العار.

قالت هذا وقامت لفورها ولطخت ثياب زوجها بالدم السائل من أنفها وصرخت بصوت عظيم:

– إن زوجي قد ضربني وقطع أنفي فأسرعوا وأنقذوني منه. فسمع النساء جيرانها صراخها وأسرعن إليها وكان الصباح قريبًا.. ففاق زوجها ولما رأى ما جرى أخذته الحيرة والاندهاش حتى طار عقله فاجتمع أقارب زوجته وقاضوه على القاضي. فسأله القاضي عن ذلك فلبث مندهشًا لا يجيب بكلمة واحدة فحكم عليه حينئذٍ بقطع أنفه.

هذا؛ وكان السارق حاضرًا للمحكمة وعالمًا حقيقة الأمر كما هي.. فلما حكم القاضي أن يتكلم. فأذنه فقال له السارق: أطال الله بقاء مولانا القاضي وأدام به التقاضي.. وما شهدنا إلا بما علمنا أن هذه المرأة الفاجرة قد بغت على زوجها،

وأيد الناس بغيها وأخذ من ثمَّ يقص عليه كل ما كان من أمرها أولاً وآخرًا.. فلما سمع القاضي كلامه قال له:

لا عبرة لشهادتك لأن شهادة الفرد لا يبني عليها حكم.. فأجابه السارق.. يا مولانا إن لنا على ذلك برهاناً قاطعًا وهو أنه إذا وجد أنف المرأة في فراش زوجها يكون هو الذي قطعها وإن وجد في فم المصلوب فلا ريب بأن يكون ما قررته صحيحًا. فلما سمع القاضي كلامه أخذه العجب.. إلا أنه استصوبه ورام من ثمَّ امتحان الأمر فقام لساعته وبمعيته جماعة من المسلمين وبعض أقارب المرأة وأتى إلى المحل الموجود فيه المصلوب، وعند التفرس في فمه رأى فيه أنف المرأة فحينئذٍ تحقق القاضي وجميع من كانوا معه صدق ما قرره السارق فتعجَّبوا من هذا الحادث الغريب ونفرت قلوبهم من فجور هذه المرأة وقساوتها، وفرحوا ببراءة زوجها من هذه التهمة وأصبحت هي في ضجر عظيم فحكم عليها القاضي بالتشهير والقتل فطوفوها في شوارع المدينة ثمَّ ربطوها وألقوها في البحر وقد وصلت هذه الليلة لفحشها وعدم رعايتها للوفاء ولحقوق المحبة القديمة.

فعند ذلك نظر الببغاء إلى رفيقته وقال لها:

– إنه ينصح من هذه الحكاية بأن ليس للنساء عهد ولا زمام وإذا وُجدت فيهن من ترعى الوفاء فيكون ذلك نادرًا والنادر لا يُعتد به.

فلما سمعت قمر السُكَّر هذه الحكاية حاقها غمٌّ جسيم وحزن عظيم فنظرت إليه وقالت له:

– لقد صدقت في كلامك، وتمثيلك هذا واقع بمحله، إلا أن ذلك لا يطلق على جميع الإناث لأنهن لسن جميعًا بلا وفاء كما أنه غير مسلَّم أن كل الرجال من أهل الوفاء؛ لأنه كثيرًا ما يوجد بينهم من الخائنين الخادعين كما يتضح ذلك من حكاية مختار مع الابنة ميمونة. فسألها الببغاء:

وما هي حكايتهما..؟.

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في مدينة "يزد" تاجر اسمه مختار قد اتصف بالفجور والنفاق حتى صار شبيهًا بالشيطان فاعتنى والداه بإصلاحه ولهذا خطب له ابنة جميلة المنظر.. اسمها ميمونة ذات حسب ونسب من كرائم مدينة شيراز الشهيرة فذهب يومًا ما على هذه المدينة، وتزوج الابنة المارّ ذكرها وقضى معها في المدينة المشار إليها أيامًا كثيرة عائشًا معها بأتم الوفاق والمحبة، إلى أن عنَّ له أن يترك هذه المدينة ويرجع إلى مدينة "يزد" مسقط رأسه. فجمع جهاز زوجته وكل لوازمه وسافر معها ولم يزل سائرًا حتى بلغ مكانًا منفردًا وبجانبه بئر، فحل في ذلك المكان ليبيت ليلته، وحيث كان طبعه مائلاً للطمع طمع بجهاز زوجته ومصاغها؛ فقام عند انتصاف الليل ونزع عن الابنة ثيابها وطرحها في البئر وسار وحده إلى مدينته.

وأما ما كان من أمر زوجته ميمونة المنكودة الحظ فإن الله تحنَّن عليها وأنقذها من الهلاك فخرجت من الجب بقوة الله تعالى بعد أن قاست عناءً شديدًا، وصارت راجعة إلى مدينة شيراز مسقط رأسها فوصلت إليها ودخلت دار أبيها فلما رآها أبوها على هذه الحالة تعجَّب جدًا واندهش وسألها عما أصابها.. فخجلت ميمونة منه وخافت أن تخبره حقيقة الأمر لئلا يخال بفكره غير ذلك.. فقالت له.

– يا أبت.. بينما كنا سائرين في الطريق عرض لنا لصوص أطلقوا الأعنة وشنوا الغارة علينا فسلبوا كل ما كان معنا ورموني في جب عميق، وأما زوجي فلا أدري ما أصابه وبعناية الإله المتعالِ خرجت أنا من الجب وأتيت هنا بعد مقاساة أشد التعب.

فلما سمع أبواها خبرها شكرا الله تعالى لنجاتها واستقبلاها بكل ترحاب وألبساها ثيابًا فاخرة وحُللاً ثمينة.

وأما ما كان من أمر زوجها مختار فإنه وصل إلى مدينته فوجد والديه تُوفيا وتركا له ميراثًا وافرًا.. ولما رأى بين يديه مالاً جزيلاً من تركة أبويه وجهازه زوجته أخذ يبذل المال جُزافًا في سبيل الفسق والفجور.

ولم تمضِ على هذا المنوال إلا شهور حتى فرغت يده وأصبح في حضن الفقر والفاقة حتى اضطر إلى التسول ليحصل على قُوته الضروري، وحيث إنه كان يخجل من التسول في بلدته رحل عنها وأتى مدينة "شيراز" وكان في هذه المدينة من قبل وليّ من أولياء الله، وكان في كل يوم يزوره جماعة من المسلمين والمسلمات، ولذلك كان مختار يأتي إلى هذا المكان ليتسول من الزائرين.

فيومًا ما كان بالقضاء والقدر أن أتت ميمونة لزيارة ذات الضريح مع جماعة من المسلمات.. فوقع نظرها بغتة على مختار فنظرت إليه بعين الرحمة، ولم تلتفت إلى ما عاملها به من القساوة البربرية بل ترأفت عليه وتبعت قول القائل: أحسن إلى من أساء إليك.. فدعته إليها وعاملته بالمعروف وأما مختار فلما نظر زوجته وما هي عليه من كرم الأخلاق انطرح على أقدامها باكيًا وأخذ يستغفرها ويعتذر لها عما فرط منه، وحيث كانت سليمة القلب والنية صفحت عنه فأخذته إلى دار أبيها؛ فهنأها على وجوده وجهزها مرة ثانية وسلمها إلى زوجها، فأخذها وسار معها إلى مدينة "يزد".. ولما وصلا إلى محل البئر الذي رماها به أولاً بات فيه تلك الليلة فنامت ميمونة مطمئنة البال وقريرة العين:

أحسنتَ ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف شؤمًا يأتي به القدرُ
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفور الليالي يحدث الكدرُ

وأما مختار . ذاك المنافق . فقام عند انتصاف الليل بينما كانت زوجته مستغرقة في بحر النوم فقتلها ورماها في الجب.. وأخذ كل ما كان معها وسافر إلى مدينة "يزد".

فلما وصلت الببغاء إلى هذا المقام ختمت كلامها فقال رفيقها:

– ما أعظم خبث هذا الرجل وقساوته لكونه صبغ يديه بدم هذه الابنة الكريمة الأخلاق.

فأجابته الببغاء:

– يا سيدي إن ما قلته أنت لا يصدُق على عموم الذكور والإناث لأنه يوجد بين كلا الجنسين أخيار وأشرار، وأما أنا فأسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الوفاء لنعيش سويةً بالمحبة والألفة.. لئلا تصير أنت مثل مختار المار ذكره.. ولئلا يصيبني أنا ما أصاب ميمونة المنكودة الحظ.

قالت هذا وقضت أيامها مع رفيقها بالصفاء والانشراح.

فلما انتهت هذه الحكاية نظر الببغاء العاقل إلى قمر السُّكَّر وقال لها:

– يا سيدتي لقد قصصت عليك هذه الحكايات كلها لكي تحرصي على رعاية الوفاء مع حبيبك لأنه على كل حُرٍّ أن ينجز ما وعد به.. لأنه قيل وعد الكريم ألزم من دين الغريم ولله در الشاعر حيث قال:

إذا قلت في شيء نعم فأتمه ... فإن نعم دين على الحر واجبُ
وإلا فقل لا تسترح وترح به ... لئلا يقول الناس أنك كاذبُ

وما أحسن قول الآخر في هذا المعنى:

ما كلف الله نفسًا فوق طاقتها ... ولا تجود يد إلا بما تجدُ
فلا تعد عدة إلا وفيت بها ... واحذر خلاف مقال للذي تعدُ

ولذلك أحثك يا سيدتي أن تذهبي إلى حبيبك لأنك وعدتيه بذلك من مدة طويلة وللآن لم تنجزي ما وعدت به، فبالله عليك ارعِ الوفاء لأنه من شيم النفوس الكريمة والأخلاق الحميدة وقد قيل: "الوعد وجه والإنجاز محاسنة والوعد سحابة والإنجاز مطارهما.." وحيث إنه الآن قد أتتك هذه الفرصة المناسبة فقومي في هذه الساعة واذهبي إلى حبيبك لتنالي وصاله. فلما سمعت قمر السُّكَّر هذا الكلام فرحت فرحًا عظيمًا، وقامت لساعتها قاصدة الذهاب إلى حبيبها لكنها لما فتحت باب الدار رأت

الشمس قد أشرقت على العالم فرجعت خائبة، إذ لم تنل مرغوبها.. وأجّلته إلى الليلة التالية وقضت ذاك النهار حزينة كئيبة تتقلب على نار الهوى وتنشد:

أمـ .ن المـ .روءة أن أبيـ .ـت مسـ .ـهدًا قلقـًا .ـا أبـ .ـل ملابسـ .ـي بـ .ـدموعي
وتبيت ريـ .ـان الجفـ ـون مـ ـن الكَـ ـرى وأبيـ .ـت منـ .ـك بليلـ .ـة الملسـ .ـوع

ولما انقضى ذاك النهار وظل المساء تزيَّنَتْ وأتت قفص الببغاء وسـ ـلمت عليـ ـه وقالت:

– أيها الببغاء إنه بسبب إهمالك لي حتى الآن لم أحظ بمشاهدة حبيبي، ولو كنت تهتم بأمري ولو يسيرًا لكنتُ الآن لا محالة قد نلتُ ما أرغبه ولهذا أصـ ـبحت فـ ـي حزن عظيم وكدر جسيم.

يا سيدتي إن تأخركِ عن الذهاب إلى حبيبك هو من الله سبحانه وتعالى، لا من عدم إهتمامي لأنه لا يتم شيء إلا بإرادته الربَّانية؛ فمهما جدَّ الفتى وسعى فلا يجديه الجد والسعي نفعًا إذا لم يكن مرموقًا بتوفيق الله تعالى وعنايتـ ـه ولا حاجة لأن أبين لك اجتهادي بأن أبلغك مرادك لأنك تعرفينه حـ ـق المعرفـ ـة، والله ناظر لكل أعمالي وهو يعلم ما في القلوب، وأما أنت فلا يشق عليك عدم نوال مرغوبك حتى الآن ولا تعجلين شيئًا لأن لكل شيء وقت، فاصبري الآن لأنه بالصبر تنالين مرغوبك وإلا فيذهب تعبك باطلاً وتندمين أشد الندامة كما ندم (القزاز) الذي لم يقنع بالنفقة اليومية بل طمع بالزيادة فلم ينل سوى المشقة والتعب. فسألته قمر السُكَّر:

وما هي هذه الحكاية..؟.

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في ناحية العراق قزاز يجدُّ ويسعى في طلب الرزق بدون إهمال أدنى فرصة إلا أنه لم يكن يحصل سوى على نفقته اليومية، وكان له جار يتعاطى الحِلاجة (أي ندف القطن).

وكان كلما دخل (القزاز) بيت جاره يراه مملوءًا من الأمتعة الثمينة والأشياء النفيسة، وكانت نعمة الحلاج تزداد يومًا بعد يوم.. فتعجَّب (القزاز) من ذلك وقال في نفسه:

– إنني أسعى في طلب المال ليلاً ونهارًا وأدخل دور الملوك والأمراء وأصنع لهم الأمتعة النفيسة، ومع ذلك فإنني فقير الحال لا أملك شيئًا، وهذا الحلاج الذي يقضي يومه منعكفًا على ندف القطن والصوف تراه ذا ثروة عظيمة فما هو سبب ذلك؟

قال هذا وجلس في إحدى زوايا البيت غارقًا في بحر الافتكار.. فأتت إليه زوجته وسألته عن سبب ذلك.. فأخذ يقص عليها كل ما كان يخال بفكره.. وختم كلامه بقوله لها:

قد عزمت الآن أن أترك هذه المدينة وأرحل إلى مدينة غيرها.. لأنني أجد في هذه المدينة صعوبة في المعيشة لأن أهلها لا يعرفون قيمة صنعتي فإذا رحلت إلى مدينة غيرها فأقضي عمري بالرفاهة وقد قال العقلاء:

– لولا سير الهلال لما صار بدرًا.

فأجابته زوجته:

إن هذه التصورات التي بفكرك هي تخيلات باطلة لأن كل إنسان يصل إليه رزقه من الله سبحانه وتعالى الذي قسم الأرزاق بين العباد لأنه قيل: وما من دابة على الأرض إلا وعلى الله رزقها.. فمهما جد الفتى وسعى فلا ينال أكثر مما قسم له منذ الأزل. فلا تترك هذه المدينة ولا نسعى في طلب المحال بل اقنع بما يرزقك الله من كرمه ولطفه؛ لأن من طمع يصيبه ما أصاب (إبراهيم أدهم سلطان بلخ) قدَّس الله سره الذي رأى حادثًا فانتصح منه واعتبر. فسألها (القزاز):

وما هي هذه الحكاية..؟.

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إن (إبراهيم أدهم سلطان بلخ) قدس الله سرَّه خرج يومًا ما إلى الصيد، وبعد أن قطع مسافة طويلة جلس لمناولة الطعام في إحدى الصحاري، وبينما كان على المائدة أتت نحلة أخذت بفمها قطعة من الخبز وطارت.. فلما نظرها إبراهيم أدهم ورأى ما فعلت تعجَّب من هذا الأمر وطاق لمعرفة قصدها فقام عن المائدة وتبع آثارها ليرى إلى أين تذهب وماذا تفعل، ولم يزل راكضًا وراءها حتى أفضت إلى كعب شجرة عظيمة وفيه ثقب فدخلت النحلة في هذا الثقب واستمرت فيه، فتقدّم إبراهيم أدهم إلى كعب الشجرة فرأى في الثقب ثلاثة عصافير في عش داهمها العمى فلما سمعت العصافير صوت النحلة فتحت أفواهها فوضعت النحلة في فم كل منهما قطعة من الخبز، فلما نظر إبراهيم أدهم هذا الصنيع تعجَّب غاية العجب، وعلم من ثمَّ أن الله سخَّر هذه النحلة لتأتي بالطعام إلى العصافير التي ضربت بالعمى.. فعند ذلك أعرض عن الدنيا وانقطع الله تعالى.

* * * *

فالآن انظر أيها الرجل عناية الله تعالى بمخلوقاته فإنه كان لا يدع ثلاثة عصافير تموت جوعًا بل سخَّر الله لها نحلة تأتيها كل يوم بقُوتها الضروري، فهل يهمل مَن صوَّره على صورته وخلقه على مثاله..! فلماذا إذن أشغلت بالك بهذه الأفكار الفاسدة.

فأجابها (القزاز):

– لقد استحسنت رأيك لأن التوكل على الله خير في كل الأمور.. غير أنه لابد للإنسان من السعي في طلب الرزق، لأن الأسد إذا كان موثوقًا فلا يجد صيدًا، وأما

أنت فلا يدرك عقلك ما ينتج من سفري هذا من الفوائد، والحاصل أني عزمت على السفر إلى غير هذه المدينة.

قال هذا وودَّع زوجته وأهل بيته وسار مسافرًا إلى أن وصل إلى مدينة نيسابور؛ فمكث فيها وتعاطى حرفته بكل اجتهاد ولم تمض إلا أيام قليلة حتى جمع مالاً وافرًا، فلما رأى ذاته قد حصل على غنىً وافرٍ فرح فرحًا شديدًا وقال في نفسه:

- إن عشت في وطني أربعين أو خمسين عامًا في حضن الراحة غير لاهٍ بالتجارة والربح فلا يمكنني أن أفنيَ الأموال التي جمعتُها.

قال هذا وعزم على السفر إلى العراق.. وبينما كان سائرًا في الطريق اضطر أن يبيت في محل خطر فغلب عليه النوم؛ فنام فرأى في الحلم عصفورين بصورة جميلة انحدرا من العُلا إلى الأرض وسأل كل منهما الآخر.. من أنت؟ كأنهما لا يعرفان بعضهما بعضًا.

فأجاب أحدهما:

- أنا تمثال سعد هذا (القزاز).

وأجاب الثاني:

- أنا صورة طالع هذا الإنسان وقد كتب بدفتر القضاء أن هذا الإنسان قد قُسم له الفقر... فلا يستطيع أن يحرز مالاً لأن الله حكيم عادل وشفوق على عباده.. وهو أرحم من الوالدين.. وقد قسم لكل من عبيده منذ الأزل ما يراه موافقًا له فيغني من يشاء ويفقر من يشاء ويلبس البعض من عبيده التاج والأرجوان.. ولما يرى أن بعضهم إذا وُلِّيَ الإنعام يسلك في طريق البغي والظلم فيرزقه المال تدريجيًا ألا أنه يرى الفقر أكثر نفعًا لهم.. وبهذا يؤمنون من البغي.

فالآن أيها (القزاز).. إلى أين تذهب بهذا المال .. أتقدر أن تقتنيه ضد إرادة الله تعالى الذي قضاؤه لا يُرد وحُكمه لا يُصد. قال هذا وأخذ الكيس بما كان فيه من

المال ودعا المريخ فحضر بصورة جلاَّد وأخذ الدراهم من الكيس ورماه فارغًا فعند ذلك استيقظ (القزاز) من نومه ونظر في اليقظة مثلما نظره في الحلم..

فقام لساعته مرتعبًا خائفًا وأخذ يفتش على الدراهم فلم ير لها أثرًا؛ فاستحى أن يرجع إلى العراق فارغ اليدين لئلا تستهزئ به زوجته، ولذلك قام لفوره وسار راجعًا إلى مدينة نيسابور ليسعى في احتشاد الأموال ووصل إلى المدينة وأخذ يتعاطى حرفته بكل اجتهاد فحصَّل في مدة وجيزة من المال أكثر مما حصَّله في سفرته الأولى، فعزم من ثمَّ على الرجوع إلى بلاده وقام مسافرًا إلى العراق فاضطر إلى أن يبيت في الطريق، وبينما كان نائمًا رأى في الحلم ما رآه أولاً فقالت صورة طالعه إلى صورة سعدة.

أيها المنافق العنيد هلاَّ ارتدعتَ عن غيِّك، وردعت نفسك عن شهواتها ورغبتها في احتشاد الأموال.. فهل لا تعرف أن الله لا يعطي الإنسان إلا ما قسمه له منذ الأذل كما قلت لك سابقًا.. فكيف تجاسرت وخالفت حكمة الله بمثل هذه الوقاحة..

فأجابت صورة سعيه:

فليكن مغدورًا إلى نهاية العمر، لأن من عادتي إذا تعلق بي أحد الناس بجد واجتهاد أن أبلغه مراده إذا رمقته أنت بعنايتك وإلا فيكون تعلقه به باطلاً.. ومن نظرت إليه بعين العناية فلا يعوذه السعي، ومهما أنفق من الأموال فلا ينقص ماله.

قال هذا وأخذ كيس الدراهم وتوراى عنه.. فلما استيقظ (القزاز) ورأى ماله مفقودًا علم أنه قد أصابه هذه المرة ما أصاب أولاده.. فقال في نفسه:

– إن السير في غير الطريق الذي يريده الله هو عين الخطأ، فيلزم أن أقتنع بما قسمه لي الله تعالى لأنني سعيت فذهب سعي باطلاً.

قال هذا وسار مسافرًا نحو العراق، ولما وصل إلى بيته أخبر زوجته بما حدث له أولاً وآخرًا.

فقالت له زوجته:

كم نصحتك ولم تصغ لنصيحتي بل أطعت هوى نفسـ ك، وتكبـ دت كـ ل هـ ذه المتاعب حتى أصابك ما أصاب ابن آوى.

فسألها زوجها:

وما هي حكايته...؟.

* * * *

حكاية

قالت المرأة:

إن رجلاً كان له جمل وقع بداء الجرب، ومن شدة الحر نثر لحمه، ولما لم يجد صاحبه دواءً له أخذه إلى الصحراء وتركه فيها، وبينما كان الجمل يمضي ذات مرة كان ابن آوى تابعًا فأرة ليصطادها.. فلما وقع نظره على الجمل طمع في صيده وأعرض عن صيد الفأرة ولكن حيث كانت زوجته معه منعته عن ذلك.. وأخذت تنصحه وتقول:

- لا تعتصم بالحماقة لأنك غير قادر على افتراس هذا الجمل القوي، فلا تترك الفأرة التي تيسرت لك لتطمع فيما هو فوق قدرتك لئلا تعود خائبًا لأن من طمع بالكثير وترك القليل يُعدم من كليهما. فأجابها زوجها:

- إن الذي يقنع بالقليل يكون عديم الهمة وأما أنا ذا الهمة العلية فكيف أقنع بهذه الفأرة الدنيئة وأعرض عن هذا الجمل الكبير. قال هذا وسار دالفًا إلى الجمل ينبع آثاره من محل إلى آخر منتظرًا موته أو وقوعه في حفرة ليفترسه ولم يزل على هذه الحالة حتى مضى ثلاثة أيام ولم يحصل على نتيجة، فعند ذلك ندم على ما فعل ورجع إلى صيده الأول فلم يجده فعاد من ثمَّ إلى زوجته يتضوَّر جوعًا فضحكت عليه وقالت له:

- إن الذي لا يقنع بقوته اليومي تكون عاقبته المشقة.

فلما سمع (القزاز) هذه الحكاية انتصح وقنع بما قسمه الله له تعالى من كرمه وجوده.

فلما وصل الببغاء إلى هذا المقام نظر إلى قمر السُّكَّر وقال لها:

– يا سيدتي إنما قصصت عليك هذه الحكايات كلها لتعلمي أن عاقبة الطمع وخيمة، فلا تطمعي كثيرًا بوصال حبيبك.. بل اقنعي بما تيسر لك من كرم الله تعالى. فأجابته قمر السُّكَّر قائلة:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده .. ولا الصبابة إلا من يعانيها

فاعلم أيها الببغاء أن ألم العشق لا يعرفه إلا الذي كابد أهواله.. فأنت لم تذق للآن شيئًا من ذلك ولهذا لا تعرف ما يقاسيه العاشق إذا كان محرومًا من وصال معشوقه. وأما أنا فقد أخطأت باتكالي عليك، ولم تبصر أمور العشق حتى ترثي لحالي وتداوي علَّتي فأخذت من ثمَّ تماطل من يوم إلى آخر وتشغلني بحكايات وقصص لا معنى لها حتى حرمتني بغيتي وما زلت أنتظر المكارم من أعدائها حتى أصابني ما أصاب الأعرابي مع الخليفة المأمون.

فسألها الببغاء:

وما هي حكايتهما..؟.

* * * *

حـ ـكـ ـايـ ـة

قالت قمر السُّكَّر:

إن أعرابيًا قصد يومًا ما الخليفة المأمون وقال له:

– يا أمير المؤمنين قد عزمت على الحج إلا أنني لا أملك مالاً.

فأجابه المأمون:

– إذا كنت لا تملك شيئًا فليس الحج فرضًا عليك.. فلماذا تكلِّف نفسك هذه النافلة.

فأجابه الأعرابي.. يا أمير المؤمنين.. لقد أتيتك لتمُنَّ عليَّ بالإحسان.. لا لكي تبين لي وجه المسائل الشرعية وواجبات الحج فإذا كان هذا نوالك فحسبي به مؤمنة بعيالي. فسُر الخليفة من هذا الجواب اللطيف وأجزل له العطاء...

وأنت أيها الببغاء قد حكيت لك قصتي وما أصابني من ألم العشق والغرام فجاوبتني بحكاية الطير والذئب وحكاية ابن آوى والجمل وشغلتني أيامًا كثيرة بهذه الحكايات، وحُلتَ بيني وبين مرامي.. فإذا كنت لا ترغب أن أحظى بمشاهدة حبيبي فصرح لي بذلك لأكون على بينةٍ من الأمر.

فأجابها الببغاء :

– سبحان الله قد صح ما قيل: إن كلام الحق مُر، فإذا كانت نصائحي والتمثيليات التي قصصتها عليك لم تقع لديك موقع الاستحسان؛ فما عدت من الآن فصاعدًا أتكلم شيئًا فقومي واذهبي إلى حبيبك ليحظى بوصالك، وإنني لمتأسف حيث قد ذهب تعبي باطلاً، وأنا لم أشغلك بالحكايات لأصدك عن حبيبك بل لأقوّم منك المسالك لأنك لست بخبيرة في أحوال الدنيا، وأما أنا فقد نظرت أشياء كثيرة وأخذت من كل منها نموذجًا ورأيت في مدة قصيرة وقائع مختلفة فجنيت منها جزيل الفائدة حتى

أصبحت واقفًا على ما قل وجل من هذه الأمثال؛ فتذللتْ لديَّ المصاعب التي تـ ذل لها الجنود الباسلة، وكنت أخشى من أن تقعي في شرك لا تستطيعي منـ ـه خلاصًـ ـا فتصبحين مفضوحة حتى يوم القيامة، ولهذا قصصت عليـ ـك الحكايـ ـات والأمثـ ـال لتجني منها الحكمة والدراية حتى تأمني من الذلل، لأن الحكمة تخلص الإنسان مـ ـن أعظم البلايا كما تخلَّص (العناق) بالحلية من يد الأسد عدُوّه.

فاعتذرتْ له قمر السُكَّر عما فرط منها وسألته ما هذه الحكاية.

* * * * *

حكاية

قال الببغاء:

إن أسدًا ما توطن في إحدى الغابات وكان القرد سميره ومستشاره، فيومًا ما سافر الأسد إلى بعض الجهات وأقام القرد وكيلاً عنه وأوصاه بأن يحافظ على ذلك المكان حق المحافظة، وأما القرد فلم يقدر على القيام بوظيفته.. بل عجز عن حماية تلك الغابة من وطء الأجانب فدخلها يومًا ما (العناق) ولما رأى فيها من المروج اللطيفة ما يقره الناظر ويسر الخاطر عزم على التوطن فيها.. فنظره القرد ذات مرة وقال له:

– لِمَ هذه الوقاحة أيها (العناق) ولماذا لا تعرف حدَّك وتدوس أرض غيرك مع أن الواجب على كل خليقة أن تعرف شأنها وتحد قدرها ولا تتجاوز حدها.. فهذا المكان مختص بسلطان السباع ولسطوته لم يتجاسر أحد على وُلوجِه.. فلماذا أنت تجاسرت على ذلك ولم تخش بأس انتقامه. فأجابه العناق:

– كيف تتجاسر أيها القرد مع دناءة شأنك أن تقبل عليَّ بمثل هذا الكلام المهين مع أنك على جانب عظيم من الحماقة فمن أين تعلم أن هذه الغابة هي ملك الأسد..؟ وممن تملكها حالةَ كونِها ملكي اتصلت إليَّ بالإرث من والدي من قديم الزمان، فهل تظن أنني أخاف من الأسد حتى تهددني به.. فإن كنت تظن الأسد ذا قوة عجيبة فما هو إلا كلب وسوف ترى أنه لا يطبخ في مطبخه إلا لحم السباع والنمر ومتى جاء الأسد أريك ما أفعله به.. فلما سمع القرد هذا الكلام ورأى ما عند (العناق) من الشجاعة والبسالة خاف منه وفرَّ هاربًا فرجع العناق إلى محله وأخبر زوجته بذلك فقالت له:

- لا يوافق بعد الآن أن نبقى في هذا المحل لأنك تكلمت بحـ ق الأسـ د كلامً ا مُهيناً، فكيف نأمن الآن بأس انتقامه منها.. فيجب علينا أن نبارح هذا المكان قبـ ل رجوعه لئلا يفتك بنا فأجابها زوجها:

- اطمئني بالاً لأنه ربما لا يكون هذا المكان ملكًا للأسد وإن فرض مُلكه فهـ و الآن غائب؛ فربما أن الله ينظر إلينا بلطفه ويحول دوننا ودونه، وإذا فرض رجوعه فأنا قادر بألف حيلة أن أتخلص منه؛ فيجب علينا الآن أن ننتهز هذه الفرصة لأجل الفرح والسرور.

فأجابته زوجته:

- إنني أعلم يقيناً أن هذه الأرض للأسد وما توهمته من أن الأسد غائب لا بمـ ا لا يرجع، كمن سفره فليس من إصابة الرأي، لأنه ربما يرجع قريبًا ويعلم ما قذفت به حال غيبته، وما تأمله من التخلص بالحيلة غير سديد، لأن الحيلة قلما تصـ ادف خيرًا، بل ربما تكون سببًا للهلاك كما يتضح لك ذلك من حكاية الذئب وابن آوى.

فسألها زوجها وما هي حكايتهما..؟

* * * *

حـ . كـ ايـ ـة

قالت زوجة (العناق):

إن ذئبًا رأى مرة وكر بن آوى.. ولما وجده خاليًا دخله وتربص فيه، وقال في نفسه:

- متى جاء صاحبٌ أثبُ عليه وأفترسه.

ولم تمض إلا برهة قليلة حتى رجع ابن آوى إلى وكره لكنه لشدة تيقظه كـ ـان يخاف على نفسه من كمين أو حيلة تهلكه.. فلما وصل إلى باب الوكر بقي واقفًا في الخارج وأخذ يخاطبه قائلاً:

- يا بيتي ومسقط رأسي ويا وطني الحبيب. فلم يجبه أحد.. فصرخ ثانية بأعلى صوته:

- يا بيتي إنني كنت يومًا ما أخاطبك وتجاوبني.. فلماذا هذه المرة قـ ـد لازمـ ـت السكون.. فهذا آخر ما أخاطبك به.. فإن أجبت فحبذا ونعمت.. وإلا فأنـ ـا راحـ ـلٌ عنك.

فلما سمع الذئب هذا الكلام قال في نفسه.. ربما كان من خواص هذا الـ ـوكر أن يجيب صاحبه، والآن لِمَ السكوت..! لعله إذا لم أجاوب عنه فلابد من أن يذهب هذا الملعون ويعود تعبي باطلاً؛ فالأحسن إذن أن أجاوب عنه. عند ذلك صـ ـرخ مـ ـن داخل الوكر:

- لبيك يا سيدي .

فلما سمع ابن آوى صوته.. علم أنه احتال عليه ليفترسه، ولساعته فـ ـرَّ هاربـًا، وذهب إلى راعي غنم كان في جوار ذلك المحل وأخبره بأن الذئب رابطٌ في وكره وكان الراعي يترقب الذئب ليقتله لأن أتلف له جانبًا كبيرًا من الماشية.

فلما سمع الراعي كلام ابن آوى قام لساعته مسرعًا وأتى الذئب ليهلكه..

فلما وصل إلى باب الوكر دحرج عليه حجرًا كبيرًا وحبس الذئب فيه فهلك جوعًا وعطشاً من الحيلة التي قصد أن يوقعه بها ابن آوى.

فلما سمع (العناق) هذه الحكاية قال لزوجته:

- كيف تشبهينني أنا الحكيم العاقل بالذئب الجاهل.. لأنه لو كان ذا فهم وإدراك لما كان يتكلم من داخل الوكر بل بقيَ صامتًا، فأنتُنَّ معشر الإناث لا تعرفن بحيلنا، لأن عقلكن لا يدرك ذلك فلا عدت إذن تطرقين مسامعي بهذه الأحاديث التي لا معنى لها. وبينما كانا يتحدثان على هذه الصورة سمعا صراخاً وعلما أن الأسد قد عاد من سفره فقامت كل الوحوش على قدم وساق لملاقاته وكان القرد في مقدمتهم فأخذ يقص على الأسد ما كان من وقاحة العناق وافترائه.

فأجابه الأسد:

- إن هذه الوقاحة والجسارة ليست من العناق بل ربما تكون من غيره من الوحوش الضارية التي تدعي بالقوة فيجب علينا من الآن أن نكون في غاية الحذر.

فأجابه القرد يا سلطان السباع:

- هل يوجد في الدنيا من هو أقوى منك.. فلماذا خفت من هذا الأمر وأنا عالم يقيناً أن الذي افترى عليك هو العناق لأنني نظرته بعيني وسمعته بأذني فلا تجذع إذن وقم بنا لننتقم منه. فأجابه الأسد:

- لا يخال بفكري أن العناق يتجاسر على مثل هذا الكلام لضعفه ولِما اتصف به من الخوف، ولكن فوق كل ذي علم عليم، فلا يجب علينا أن نتهافت على هذا الأمر لأنه ربما تكون شجاعتنا سبب هلاكنا إذ ربما الذي يكون فمه بمثل هذا الكلام قد احتال علينا بألف حيلة ليهلكنا.

قال هذا وقام قاصدًا بيت (العناق).. وبمعيته القرد، وكان يلتفت في كل جانب ليرى ما يعرض له وكان يومًا ما مستعدًا للهرب.. وأما زوجة العناق وقتئذٍ كانت تخاطب زوجها قائلة:

- ها قد وقعنا الآن في البلية التي كنا ننتظرها.. فكيف العمل الآن؟

فأجابها زوجها:

- لا تخافي.. لأنني أعرف كيف أدفع هذه البلية فإذا دنا الأسد من بيتنا فقولي لأولادك وعلميهم أن يبكوا، وعند ذلك أسألك عن سبب بكائهم فتجيبي أولادك قد تعودوا على أكل لحم السباع وقد نفق من عندنا ولم يبق سوى لحم النمر إلا أن أولادك لا يأكلون منه بل يريدون من لحم السباع لأنه لذيذ جدًا.. فعند ذلك وَفَدَ الأسد فأخذت زوجة (العناق) تبكي أولادها فسألها زوجها عن سبب بكائهم.. فأجابته كما علمها سابقًا فقال لها.. إن في مطبخنا كثير من لحم النمر.. فإذا لم يأكل الأولاد منه فأطعموهم من لحم الأسد الذي أتيتكم به من يومين.. فأجابته زوجته:

- إن أولادك لا يأكلون من لحم السباع البايت بل يريدون لحمًا طريًا.

فأجابها زوجها:

- أعطيهم الآن من لحم الأسد البائت حتى يتيسر لنا أسد نقتله وقد كان في هذه الغابة أسد إلا أنه غائب ويحتمل رجوعه قريبًا فأقتله وآتيكم به، ولأنني من مدة طويلة وأنا أحتال على قتله.

فلما سمع الأسد كلام (العناق) قال للقرد:

هل سمعت الآن بأذنك وتأكدت ما قلته لك من أن الذي افترى علينا ليس هو (العناق) بل هو عدو قوي فيجب علينا أن نفر هاربين ونترك هذا المكان. فأجابه القرد:

- يا سيدي.. إن الأمر بخلاف ما توّهمت لأن هذا الحيوان هو (العناق) الذي هو أضعف الحيوانات فلماذا خفت منه.. هلم بنا فترى من هو هذا العدو.. وبمثل هذه الكلمات جعل الأسد يتقدّم لجهة (العناق).. فلما أحس العناق بذلك علم أن القرد يحث الأسد على قتله فأشار إلى زوجته أن تبكي أولادها كالأول.. ففعلت فقال لها:

– أما قلت لك أن تعطِي الأولاد من لحم الأسد الذي عندنا وع ن قري ب تن ال الفرج، لأنه الآن قد خطر ببالي أمر وهو أنه كان في هذه الغابة أسد أقام الـ دعوى عليهما فأردت أن أنتقم منه، وكان غائبًا والآن وقد بلغني أنه رجع من سفره وق د تواطأتُ على قتله مع القرد الذي هو سميره ومستشاره وقد عه د لـ ي القـ رد أن يحضره بين يديَّ بالمكر والحيلة لأنه من أعز أصحابي فلعله ينال توفيقً ا م ن الله تعالى ويحضره بين يديَّ لأقتله وحينئذٍ يصير عندنا مؤنة كافية لنا ولأولادنا فأشكر القرد على سعيه وأجعله من أعز المقربين إليَّ.

فلما سمع الأسد هذا الكلام اشتد خوفه واتقد غضبه على القرد وقال له:

– يا عدو الله.. لقد قصدت أن تهلكني بالحيلة والخداع وأما أنا فإني قاتلك قب ل أن يظهر بحر حلمك. قال هذا ووثب عليه وقطعه إربًا إربًا وبعد ذلك ولَّى هاربً ا ليأمن من وثبة العناق عليه فتخلص العناق بهذه الحيلة وقضى عمره في ذلك المكان عائشًا مع زوجته وأولاده بأرغد عيش وأتم هناء.

فلما وصل الببغاء إلى هذا المقام نظر إلى قمر السُكَّر وقال:

– يا سيدتي قد قصصت عليك هذه الحكاية الطويلة لأعلمك طرق الحيل لك ي تعتصمي بها عند الاقتضاء فإذا كنت عاقلة حكيمة فيكفيك ما قلته لك فق ومي الآن واذهبي إلى حبيبك وذوقي لذة وصاله.

فعند ذلك فرحت قمر السُكَّر فرحًا عظيمًا وقامت لساعتها إلا أنها لم ا فتح ت الباب رأت أنه قد أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، فرجعت حينئذٍ خائبة وإذ لـ م تنل مرغوبها أجلته إلى الليلة التالية، وقضت ذاك النهار بالبكاء والنحيب، ولما أتى المساء أتت قفص الببغاء وقالت له:

الحمد لله لأنني اكتفيت من نصائحك وتعلمت حكايات كثيرة، وقد مضت اللي الي والأيام ولم أحصل على نتيجة فاسمح لي الآن أن أذهب إلى حبيبي.

فأجابها الببغاء:

– يا سيدتي لماذا تستأذنيني بالذهاب إلى حبيبك وتقضين زهرة عمرك بالباطل ألم تعلمي ما قيل: إن ثلاثة إذا مضت لا تعود: الكلمة إذا خرجت من الفم، والسهم إذا رشق والأيام إذا مضت، فلا عدت إذن تتأخرين ساعة واحدة لئلا تمر الأيام ويزول معها جمالك الباهر بدون أن تنالي أدنى فائدة، فاعلمي بمقتضى نصائحي ولا تخافي شيئًا وكوني يومًا ما صادقة في مقالك متيقظة في أعمالك مبتعدة عن الغضب والعجالة لأنه قد قال الحكماء: أربعة أمور يجب على الإنسان الاحتراز منها: الأول الغضب والثاني الكذب والثالث العجلة والرابع التهامل.

وأما العاشق فيصبر على كل شيء ما عدا فراق محبوبه فإنه متى افترق عنه يعجل بالسعي إليه مع أن العجلة عاقبتها وخيمة والذي يزرع بالعجلة يحصد بالندامة ومن صبر نال المراد، ولولا الصبر والتأني لما كانت المرأة المسماة (بلتكغريب) تخلصت من يد النمر ونجت من الهلاك.

فسألته قمر السُّكَّر:

وكيف كان ذلك؟

* * * * *

حكاية

قال الببغاء:

إن رجلاً شريرًا كان عنده امرأة حكيمة اسمها (بلتكغريب) وكان يعاملها بالقساوة، فيومًا ما ضربها ضربًا مؤلمًا وإذ لم يعد لها طاقة التصبر أخذت ولديها وفرَّت في الليل هاربة من وجه زوجها، وسارت ماشية إلى أن وصلت إلى برية قفرة وكان ذلك بعد انتصاف الليل. وبينما كانت واقفة متحيرة نظرت بغتة نمرًا مقبلاً عليها فخافت خوفًا شديدًا وقالت في نفسها لا غرو أن هذا جزاء كل امرأة تخرج من بيتها بدون إذن زوجها، فتابت حينئذٍ وندمت على ما فرط منها.. وقالت في نفسها إذا أنقذني الله من هذا الخطر فأتوب إليه توبة نصوحة وأحتمل جور زوجي بطيبة قلب ولا أخالف قط رضاه.. وأما الآن فمالي سوى الاعتصام بالحيلة لأنها أوفق من الهرب إذ أنني إذا هربت فلا شك أن يتبعني هذا النمر بسرعة كلمح البصر ويفترسني أنا وولديَّ.. ولكن إن اعتصمت بالحيلة فربما أنجو من شره وهتفت صارخة:

– قف عندك أيها النمر ولا تعجّل بقتلي لأن لي كلامًا أكلمك به فاصبر حتى أخاطبك بهذا الكلام وبعد فافعل بي ما تشاء. فتعجَّب النمر من هذا الكلام وقال لها:

– تكلمي بما تريدين.

فقالت له:

– أيها النمر العظيم الشأن إنني أنا جارتك من مدينة قريبة من هذا المكان، وسبب خروجي ليلاً إلى هذا المحل هو أن أسدًا كاسرًا قد تسلط على مدينتنا وقتل من أهلها عددًا وافرًا، فاتفق أهل المدينة لأجل حفظها من الدثار أن يقدموا لهذا الأسد كل يوم ثلاثة أنفس ينتخبونهم بالقرعة، فمن وقعت عليه القرعة أتوا به هذا المحل وتركوه فيه، واليوم قد أصابت القرعة جاريتك هذه وولديها فأحضرونا إلى

هذا المكان ورجعوا على محلاتهم، وحيث قد حضرت الآن طالبًا صيدًا تأكله فلا يليق بنا أن نحرمك منا، غير أنه يجب علينا أن نراعي الشرط الذي شرطه علينا الأسد، ولذلك أرى من باب العدالة أن تأكل إحدى ولديَّ وقسمًا مني والباقي تتركه للأسد وبذلك نكون أنصفناك وأنصفناه.

فلما سمع النمر هذا الكلام خاف خوفًا شديدًا من الأسد وتعجَّب من مروءة هذه المرأة وقال لها:

– أيتها المرأة لم أر قط مثل هذا الكرم والمروءة اللذين اتصفت بهما.. كيف إنك تجودين بنفسك فدية عن عدوك.

فأجابته المرأة:

– يا سيدي من كان ذا مروءة يحسن إلى عدوه.. وليس فقط بالمال بل بالروح أيضًا وأمثال ذلك كثيرة في صحف الأخبار، وقد تذكرت الآن حكاية لطيفة تطابق هذا الموضوع فإن شئت سماعها فأقصها عليك. فتاقَ النمر لمعرفة هذه الحكاية وقال للمرأة تكلمي بما عندك.

* * * *

حكاية

قالت المرأة:

إنه كان عند عمر بن عبد العزيز أحد خلفاء بني أمية المشهور بالذكاء والحلم خادم كان مجبولاً على الغش والقساوة.. فيومًا ما سقى الخليفة كأسًا مملوءة سمًا ناقعًا فشربها.

ولم تمض إلا برهة وجيزة حتى ظهرت آثار السم في جسده.. فدعا حينئذٍ الخادم الذي سقاه وقال له:

– أيها الشقي أخبرني الواقع دون تمويه.. هل أنت الذي أقبلت على هذا الإثمّ الفظيع أم غيرك. فاضطر الخادم أن يتكلم بالصدق فنظر إلى الخليفة وقال له:

يا مولاي إن عدوك فلان غرني بالمال حتى ارتكبت هذا الصنيع الفظيع.. فقال له الخليفة: أيها الغلام الشقي إن هذا السم سيقودني على القبر عن قريب، ولو كنت أنجو منه لكنت أنعم عليك بإنعامات وافرة، وأما إذا مت فلا بد من أن يقتلك من يرث تخت ملكي ليجعلك عبرة لغيرك، فما زلت أنا على قيد الحياة أهرب من هذه المملكة لتنجو من القتل.. قال هذا وأعطاه مالاً وافرًا وصرفه.

فعند ذلك استَتْلَتْ المرأة كلامها وقالت للنمر:

– وأما أنا فحيث إنني مُعدة للموت فسيان عندي إن أكلتني أنت أو أكلني الأسد، لأن على كلا الأمرين لابد لي من أن أموت.. وأود كثيرًا أن تأكلني أنت خير من أن يأكلني الأسد، لأن الله تعالى قد أتاك لديَّ محبة وافرة، ولكن لك مني نصيحة واحدة.. وهي بعد أن تأكل فريستك لا تبقى في هذا المكان بل فرّ هاربًا، لأن لي أختًا ساحرة لم تعلم للآن أن القرعة قد أصابتنا لتقدَّم ضحية للأسد فمتى علمتْ ذلك لابد من أن تأتي هذا المكان وتحرقه كله بجواره بواسطة سحرها.. فبالله عليك كُلْ فريستك واذهب من هنا لتنجو من الحريق.

فلما سمع النمر هذا الكلام خاف خوفًا شديدًا من الأسد والحريق.

فشكر المرأة على مروءتها وفرَّ هاربًا... وبينما كان سائرًا في الطريق صادف صديقه الثعلب، فلما رآه الثعلب خائفًا مضطربًا سأله عن سبب خوفه فأخبره النمر بما حدث له مع المرأة المار ذكرها. فلما سمع الثعلب كلامه ضحك عليه وقال له:

– سبحان الله قد صح فيك ما قيل إن كل شجاع أحمق فأنت على جانب عظيم من القوة غير أنه لا عقل لك.. فهل كنت تعلم يا أحمق أن ابن آدم مجبول على المكر والخداع وقد صحَّ فيه ما قاله الشاعر:

يعطيك من طرف اللسان حلاوة .. ويروغ منك كما يروغ الثعلب

وأما نحن جنس الثعالب فكثيرًا ما يصفوننا بالحيل ومع ذلك فحيل بن آدم أعظم من حيلنا لأنه غالبًا يهلكنا بحيله فيضع لنا فخًا ويقودنا إليه بألف حيلة، فنقع فيه ونضحي أُسراء بين يديه، فهل نظرت الآن كيف أن هذه المرأة قد تخلصت منك بالحيلة فمن كان ذا عقل فهل يترك هذه الفريسة العظيمة التي تيسرت له.. فبالله أترك هذه الحماقة وقم بنا في هذه الساعة لنذهب إلى هذه المرأة ونفترسها. فأجابه النمر:

– يا أخي إن ما قلته لك عن هذه المرأة هو صحيح، فإذا أتت أختها الساحرة وأرادت أن تحرق تلك الأرض بسحرها؛ فيمكنك أنت أن تهرب بسرعة كلية لخفة جسمك وتتركني وحدي، لأنني لثقل جثتي لا أستطيع الهرب، وفضلاً عن ذلك فقد عاهدت تلك المرأة وأمنتها على نفسها فحفظ العهود من أهم الواجبات.

وأما الثعلب فبقي مُصرًا وقال النمر:

يا سيدي إن ما قالته لك هذه المرأة لا صحة له، وإن كان صحيحًا فقطِّعني إربًا إربًا، وإذا كنت تخاف أن أهرب وتبقى وحدك فاربط رجلي برجلك وقم بنا سويًا. فعند ذلك ربط رجله برجل الثعلب وذهبا إلى المحل الذي كانت فيه المرأة.

وأما المرأة فإنها لما انصرف النمر عنها أخذت تخاطب نفسها قائلة:

– إنني إذا عجلت بالهرب فربما يندم النمر ويرجع على ليفترسني، فمتى نظرني هاربة يتأكد من خدعتي ولا يعود في وسعي أن أخدعه ثانية وأتخلص بالحيلة إلا إذا وُفق لي أن أبقى هنا، وإذا رجع النمر فأبادر إلى إحراق القصب الموجود في هـ ذا المحل وأخدعه بذلك.

قالت هذا وجمعت حزمًا من القصب وأحرقتها وصعدت على شجرة كبيرة، وبعد برهة نظرت النمر بغتة مقبلاً عليها ومعه الثعلب مربوطًا برجله، فعلمت حينئ ذٍ أن الثعلب قد حث النمر على افتراسها.. وعند ذلك هتفت من الشجرة صارخة بـ أعلى صوتها:

– أيها النمر الذي اتخذته صديقًا مخلصًا كـ م نصـ حتك أن ترحـ ل مـ ن هـ ذه الأرض.. فلماذا لم تُذعن لنصيحتي المخلصة؟ فانظر الآن كيف أن أختي قد أتـ ت إلى هذا المكان وأحرقته، وبواسطة سحرها قد تقمصت بصورة الثعلـ ب صـ ديقك المربوط برجلك لتحتال عليك وتقودك إلى الحريق فحذاري من أن تدنو من هنا بل فرّ هاربًا لتنجو من الهلاك.

فلما سمع النمر كلامها ورأى النار مشتعلة ولّى هاربًا كلمح البصر حتى غـ اب عن نظرها بلحظة واحدة وبقى الثعلب يتدحرج وراءه حتى تقطع إربًا إربًا وبهـ ذه الحيلة الناتجة عن التأني تخلصت هذه المرأة وولداها من الهلاك.

عند ذلك نظر الببغاء إلى قمر السُكَّر وقال لها:

– إذا كنت يا سيدتي عاشقة فاحذري من العجلة لأنها كثيرًا ما تضر بالعشـ اق.. وإذا كنت قد حفظتي ما قلته لك الآن من النصائح وراعيت شـ روطها تنـ الين مـ ا ترغبين، غير أنه يجب عليك أن تحترسي من أن يطلع على أسرارك أعداء زوجك فيثلمون عرضك.

فأجابته قمر السُكَّر:

يا أنيسي في كربتي وجليسي في وحدتي أنت تعلم يقينًا أن أسراري في طي الخفاء قد تمكنت في ذهني، وسأسير بمقتضاها ولكن قد علمتني قبلاً كيفية معرفة الحسب والنسب وأوضحت لي بعض أمثال على سبيل التجربة، وقلت إن معرفة ذلك تتوقف تارةً على المصاحبة وتارةً على العزف بآلات الطرب غير أنني أرى في إجراء ذلك صعوبة كلية لأنني أخشى من أن لا أعرف الحسب والنسب بهذه الواسطة فعلِّمني إذن طريقة أسهل من هذه.

فأجابها الببغاء:

– ليس من طريقة لذلك أسهل من الامتحان وللامتحان حيل كثيرة إلا أنك لا تقدرين على حفظها كلها.. فاذهبي الآن إلى حبيبك وابتدئي معه بالمعاشرة؛ فمن كلامه تعرفين باطنه لأن كل إناء ينضح مما فيه.. وعليه فإن كل إنسان يميل إلى أصله ويتكلم بلغة جنسه ويتضح لك ذلك جليًا من حكاية ابن آوى الذي تردَّى بثوب الطاووس.

فسألته قمر السُّكَّر:

– وما هي هذه الحكاية..؟

* * * *

حـ . كـ ايـ ـة

قال الببغاء:

إن ابن آوى توطَّن مرة ما في جوار إحدى المدن، وكان من عادته أن يـ ذهب في الليل ويطوف في شوارع المدينة وأسواقها ويلتقط ما كان يصادفه مـ ن فتـ ـات الخبز والعظام، ففي ذات ليلة راح حسب عادته وأخذ يطوف في شوارع المدينة... وبينما كان يفتش على فتات الخبز وجد دكان صباغ كان مفتوحًا فدخله، وأخذ يفتش على شيء يأكله.. فوقع في خابية دهان، ولم يخرج منها بعد التعب، حتى وقع فـ ي غيرها ولم يخرج من الثانية حتى وقع في الثالثة ومن الثالثة في الرابعة ثمَّ وثمَّ حتى الخامسة عشرة، فانصبغ جلده بألوان مختلفة.. ولما رجع إلى وطنه تعجَّبـ ـت منـ ـه سائر الحيوانات، وإذ لم يكونوا يعرفون من هو بالغوا في تكريمه وتبجيلـ ـه.. فلمـ ـا رأى ابن آوى تكريم الحيوانات له فرح فرحًا عظيمًا.. ولما سألوه من هو أجابهم:

– أنا (طاووس علبين) وقد اجتنبت معاشرة اللئام والأسافل وتركت أبناء جنسي، وانقطعت عن سائر الحيوانات فأصبحت مهيبًا من الخاصة والعامة.

فلما رأت السباع والحيوانات غرابة هذا الحيوان أقاموه ملكًا عليهم، وولوه على تلك الأطراف والنواحي وقدموا له الخضوع والطاعة؛ فجمع ابن آوى من كان منهم أشد قوة وبسالة كالأسد والذئب والنمر وغيرهم، وقيدهم في خدمته وكانوا جمـ ـيعهم طائعين إرادته ممتثلين لأمره.

وأما سائر الحيوانات والسباع فلم يكونوا يعرفون أصله بل كانوا يسمونه طاوس (علبين) وكانوا يجتهدون في معرفة أصله ويقولون لبعضهم:

– ما عسى أن يكون هذا الحيوان الذي أقيم ملكًا علينا، ولم نكن نـ ـدري أصـ ـله وحسبه ومن أي جنس هو، مع أن المُلك للسباع ورثوه من الأسد جـ ـدهم الأكبـ ـر؛

فكيف يملك علينا حيوان مجهول النسب يُدعى (طاووس عليين). فهل أحد من أجداده تبوأ سرير السلطنة..؟!!.

فمضت على هذا المنوال مدة وجيزة وفي ذات ليلة بينما كان ابن آوى المتردي بثوب الطاووس جالسًا على تخت سلطنته، وسائر السباع والوحوش وقوفٌ بين يديه ينتظرون صدور أمره ليلبوه بالطاعة والامتثال، إذ وفَدَتْ جماعة من جنس ابن آوى وأخذوا يعوون بأصوات مختلفة.

فلما سمع السلطان صوتهم تحركت فيه النخوة الجنسية فأخذ يعوي نظير إخوانه بصوت عالٍ.

فلما سمعت السباع والحيوانات صوته علموا أنه ابن آوى، ومن ثمَّ عرفوا أصله ونسبه فوثب عليه الأسد وقطعه إربًا إربًا، وجلس على التخت الموروث له من آبائه وأجداده.

فالآن يا قمر السُكَّر إن كل إنسان يرجع إلى أصله وإن الألوان المستعارة لا تلبث أن تذهب لمدة وجيزة. وقد تذكرت الآن حكاية لطيفة تطابق هذا المعنى.. فأريد أن أقصها عليك لتجني منها فائدة عظيمة. فسألته قمر السُكَّر:

وما هي هذه الحكاية..؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في قديم الزمان تاجر على جانب عظيم من الغنى والثروة؛ فصار ينقص ماله رويدًا رويدًا، حتى دب إلى مهده الفقر المدقع، ولم يبق عنده سوى حمار واحد، غير أن هذا الحمار أصبح من شدة الجوع في حالة يُرثى لها ولشدة ضعفه لم يعد قادرًا أن يخطو خطوة واحدة... فأشفق عليه التاجر وعزم أن يأخذه إلى البرية ويتركه فيها ليقتات من المرعى، غير أنه خاف عليه من الوحوش الضارية، ولهذا السبب ألبسه جلد أسد كان عنده ثمَّ أخذه إلى البرية وتركه فيها.

فأقام الحمار في ذلك المحل أيامًا طويلة وكانت كلما نظرته الوحوش ظنته أسدًا وفرت منه هاربة، فسمُنَ من كثرة الأكل وزادت قوته... فيومًا ما بينما كان سائرًا في البرية أفضى إلى كرْم عنب فدخله وصار يفتش عن شيء يأكله.

ولما رآه النواطيرُ ظنوه أسدًا فخافوا منه خوفًا شديدًا وولوا هاربين وصعدوا على شجرة عالية، وبينما كانوا على هذه الحالة وفد بعض الحمير وأخذت تنهق حسب العادة المألوفة.

فلما سمع الصوت الحمار المتردي بجلد الأسد لم يتمالك من الاقتداء بها وأخذ من ثمَّ ينهق حسب عادته.

فلما سمع النواطير صوته علموا أنه حمار استعار جلد الأسد؛ فانحدروا إليه وربطوه بشجرة، وبعد أن ضربوه ضربًا شديدًا أخذوه وجعلوا يحمّلونه أحمالاً ثقيلة.

فالآن يا قمر السُكَّر اعلمي أن ظاهر الإنسان يدل على باطنه فإذا كنت تريدين أن تعرفي طوية حبيبك فاذهبي إليه في هذه الساعة ومن كلامه تعرفينه.

فقامت قمر السُكَّر لساعتها إلا أنها لما فتحت الباب رأت أنه قد أصبح الصباح، وإذ لم تُدَل مرغوبها أجلته إلى الليلة التالية، وقضت ذلك النهار بالحزن والنحيب.. ولما ظل المساء أتت قفص الببغاء وقالت له:

– إنه يظهر من كلامك المحبة والصداقة غير أن أفعالك تغاير أقوالك، وتريد أن تشغلني عن حبيبي وتفصلني عنه وتدَّعي أنك تحافظ على ناموسي وعرضي، مع أن العاشق لا يراعي هذا الأمر ولا يخاف من ثلم العرض والناموس، فما عدت أريد من الآن فصاعدًا أن أسمع كلامك ولا أن أطلب منك أن تبلغني مرادي.

قالت هذا وصارت تشتمه بمثل هذا الكلام المهين.

فأجابها الببغاء:

– يا سيدتي إن الغضب يجعلك ترينَ كلام الحق مُرًا ولكن سوف تندمين على ذلك لأنه قيل:

ثلاثة أمور يكون صاحبها ذليلاً أولها العناد لأنه يجلب الخراب، وثانيها الكبرياء لأنها تجلب العداوة، وثالثها الغضب لأنه يجلب الندامة.. فإذا غضبت الآن يا سيدتي فسوف تندمين أشد الندامة، لأنني أجد وأسعى بكل قوتي لتحظي بوصال حبيبك كما حظيت محمودة بصاحبها (إلياس) وسليمة بمحبوبها سالم.

فسألته قمر السُكَّر:

وكيف كانت هذه الحكاية..؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

زعموا أنه كان في قديم الزمان في مدينة "سلستان" ملك عظيم القدر والشأن وكان له ثلاثة وزراء، فالوزير الأول كان له ابنة اسمها محمودة، والوزير الثاني كان له ولد اسمه (إلياس)؛ فأرسل الوزيران ولديهما إلى المكتب بعد أن خطبا محمودة إلى إياس فتحابا الولدان وتعابدا عشقًا وهيامًا، حتى أضحيا مثل مجنون ليلى وصارا يتقدّمان في العمر حتى بلغا سن الرشاد، فيومًا ما بينما كان الوزيران يتحدثان مع بعضهما قال أحدهما للآخر:

– صار من الواجب علينا أن نهتم بزواج ولدينا.

فأجابه الآخر بالإيجاب وأخذا يتأهّبان للزفاف.. غير أن حكمة الله تعالى قضت في تلك الأثناء بوفاة زوجة الوزير الثالث.. فحزن عليها زوجها، ولما رأى أنه لابد من الزواج ثانية لانتظام حالة بيته أتى على الملك وأخبره بوفاة زوجته وقال له:

– يا مولاي إنه من بعد وفاة قرينتي أضحت أحوال بيتي في غاية الخلل إذ ليس عندي من يحسن ضبط إدارته، ولهذا التزمت أن أتزوج مرة ثانية فأرجوك إذن أن تأمر وزيرك الأول أن يزوجني ابنته، وبذلك تنتظم أحوال بيتي. فاستحسن الملك كلامه ودعا الوزير الأول وأمره أن يزوج ابنته للوزير المشار إليه.

فأجابه الوزير لأول بالإيجاب لأنه يستحسن أن يرفض ذلك، أو أن يقول له إن الابنة مخطوبة وعزم من ثمَّ أن يزوج ابنته للوزير الثالث وعين ذلك وقتًا معلومًا.. فلما بلغ (إلياس) هذا الخبر أدركه حزن عظيم وغم جسيم حتى بلغ درجة الهلاك، وكان يقضي الليالي والنهار بالبكاء والنحيب ولا يرى أن يتعزى.

هذا وكان له (إلياس) أخ أصغر اسمه سالم وكان سالم هذا عاشقًا ابنة الوزير الثالث المسماة سليمة، ولشدة هيامه بها أصبح ضعيفًا نحيفًا حتى أصبح أشبه بالخيال

فيومًا من الأيام بينما كان هذان الأخوان جالسين سويًا وكل منهما يشكو أمره للآخر قال (إلياس) لأخيه:

– يا أخي لا أطيق أن يأخذ الوزير معشوقتي وينال وصالها وأعود خائبًا لأنني إذا نظرت ذلك بعيني فلا ريب أن أموت حسرة، فالأجدر بي أن أرحل من هذه المدينة لأنني وقعت بين شرَّين وهما: إما الرحيل وأما الموت.. ولكنني أريد قبل أن أسافر أن أرى هذه الحبيبة نظرة واحدة، ومتى نظرتها تركت مسقط رأسي وسافرت بلاد الناس.

فأجابه أخوه سالم:

– يا أخي إن كلامك واقع في محله لأن العشق يسلب العقل ولا يمكن تحمله، ولكن لا يخفاك يا أخي أنني أحب سليمة ابنة الوزير الثالث وهي تحبني حبًا مفرطًا، فالآن إذا كنت تريد أن تسافر فلا أدعك تسافر وحدك بل أغادر معشوقتي وأسافر معك، لأن هذه إرادة الله تعالى فما الحيلة لذلك غير أنه الآن يجب علينا أن لا نعجل في ذلك، بل يلزمك أن تحتمل بقدر الإمكان لأن اليوم المعين لزفاف محمودة لم يزل بعيدًا وقد قيل الليلة حبلى، وقال الشاعر:

ألا لا تحـ . . زنن أخ . . ا البلية . . ة .. فلل . . رحمن ألط . . اف خفيـ . . ة

وعليه فيجب أن ننتظر لنرى ما يكون من لطف الله تعالى، فأجابه (إلياس):

يا أخي إن كلامك لا فائدة منه لأن الملك قد صدر أمره فمن يستطيع صده، ولذلك لا أرى دواءً لهذا الداء فأريد الآن أن أنظر محبوبتي لأودعها وأكتشف على طويتها لكي إذا وجدتها محافظة على المحبة القديمة أموت مجبور الخاطر.

فأجابه أخوه سالم:

– يا أخي الحبيب إن الذي ترومه هو أمر سهل لأنك تعرف أن العادة في المدينة أن يأخذوا العروس ليلة الزفاف لتزور ضريح الدرويش العاشق، وعند وصول الناس إلى هذا المزار المبارك قال تدخل العروس إليه وحدها وتتضرع إلى الله

ليقرن زيجتها بالتوفيق ويوليها أغراضها، فمتى زفت محبوبتك محمودة إلى الوزير فتذهب في النهار ونختفي في زوايا قاعة الضريح، ومتى أتت في الليل لتزور قبـر الدرويش فيمكننا أن نراها ونودعها وننتظر بعد ذلك ما يكون من قِبَل الله تعالى.

فأجابه (إلياس):

– يا أخي لقد أصبت فيما نطقت ونصيحتك أحق أن تتبع ولهذا صرنا نفعل كمـا أشرت.

فلما أتى اليوم المعين للزفاف قام (إلياس) وأخوه سالم وذهبا نهـارًا إلـى قبـر الدرويش العاشق واختبَئا في إحدى زوايا المزار ولما ظل المساء أتوا بالعروس إلى المحل المار ذكره لتزور الضريح، فدخلت وحدها إلى المـزار وبعـد أن ركعـت وصلت رفعت يديها نحو العلاء وهتفت بصوت الألم: أيها الإله المتعال الذي سكبت ويل أنعامك على عبيدك أنت الذي أوصلت يوسف إلى يعقـوب، وأنقـذت خليلـك إبراهيم من نار نمرود أنت الذي أنعمت على إسماعيل بكبش القربـان، وأعطيـت حواء إلى آدم وزليخا إلى يوسف بلغني إلى حبيبي (إلياس) وأنقذني من يد الـوزير اللئيم وإلا فأرسل ملاك الموت ليقبض روحي في هذه الساعة.

قالت هذا وأخذت تبكي بكاء يفتت الأكباد.

فلما سمع (إلياس) كلام محبوبته هذا وتأكد أن حبها له ذو وثاقات متينـة وفـي الحال أظهر ذاته لها.

ولما التقى العاشقان انطرح كل منهما على عنق الآخر وطفقا يبكيان بكاءً شديدًا ويتضرعان إلى الله المتعال لينظر إليهما بعين الرحمة.. فقالت محمودة لـ (إلياس):

إن البكاء لا يجدي نفعًا فالأجدر بنا أن نتدارك أمرنا بالحيلة لنحظى بمرادنا.

فأجابها (إلياس):

– إن هذا الداء ليس له دواءً سوى الموت. فلما سمع سالم كلامهما قال لهما:

– كُفًّا بكاءً لأنني وجدت لكما حيلة تتخلصان بها وهي أنـه يجـب أن تتعـرى

محمودة من ثيابها وجواهرها وتلبس ثيابي وأذهب مع هذا الجمهور إلى قصر العريس ومتى دخلت خباء الوزير فأعتذر له على مدة بضعة أيام فلعله يتيسر لي أن أفر هاربًا وأرجع إليكما وإذا انكشفت حيلتي فأنا راضٍ بقضاء الله تعالى لأنكما تكونان قد نلتما مرادكما وأكون أنا قد حظوت بمأربي وشاهدت محبوبتي سليمة، فإذا مت بعد ذلك فأموت مجبور الخاطر، وأما أنت يا أخي (إلياس) فيجب عليك الآن أن تفر هاربًا بمحمودة لإحدى المدن القريبة. فاستحسن (إلياس) ومحمودة هذا الرأي وفي الحال نزعت محمودة ثيابها عنها فلبسها سالم، ووجد بغاية المناسبة لكونه كان شابًا أمرد جميل الصورة فخرج من المزار وظهر أمام الجماعة، وذهب معهم إلى بيت الوزير، ولما دخل الخباء وفد عليه الوزير وطلب ما يطلبه الرجل من زوجته فتمنع سالم واعتذر بعذر النساء، فعند ذلك استشاط الوزير غضبًا ودعا ابنته سليمة وأخبرها بما أبدته عروسه من التمرد وأمرها بأن تأخذها إلى حجرتها وتنصحها بأسلوب لطيف لعلها ترجع إلى الطاعة، فقامت سليمة وأخذت سالمًا التي كانت تظنه محمودة، وأتت به إلى حجرتها وأخذت تنصحه كما أشار إليها أبوها. وأما سالم فحيث كان قد عيل صبره عرفها بحاله فحينئذٍ أخذت سليمة تتفرس فيه فإذا هو بالحقيقة سالم الذي تحبه حبًا مفرطًا، فعند ذلك انطرحت عليه وحمدت الله تعالى على هذه النعمة العظيمة وقالت لسالم:

– يا مهجة فؤادي ما أعظم حظي وسعادتي لأنني حظوت بك الآن وقد كنت أطلبك من السماء فوجدتك على الأرض أخبرني حقيقة الأمر ولا تخفى عليَّ شيئًا. فأخبرها سالم بما جرى بينه وبين أخيه (إلياس) ومحمودة.

فأجابته سليمة:

– يا موضوع حبي وسروري ليس لي في الدنيا مبتغى سواك وقد كنت أترقب هذه الفرصة المناسبة والحمد لله قد نلتها الآن فيلزمنا أن نتبع (إلياس) ومحمودة ليجتمع كلنا في محل واحد.

قالت هذا وأخذت ما كان عندها وعند أبيها من المال والجواهر، وسارت مع

معشوقها نحو قبر الدرويش العاشق فوجدوا (إلياس) ومحمودة متأهِّبين للسفر فسارا معهما بكل جهد حتى الصباح، إلى أن وصلوا إلى مدينة خارجة عن ولاية ملكهم.. فتوطنوا فيها وجمعوا ما كان معهم من المال وأخذوا يتعاطون التجارة ثمَّ بعد ذلك تزوج (إلياس) بمحمودة وسالم بسليمة وقضوا حياتهم عائشين بأرغد عيش، فلما وصل الببغاء إلى هذا المقام نظر إلى قمر السُّكَّر وقال لها:

– اعلمي يا سيدتي أن جل مرادي أن أبلغك إلى حبيبك بمثل هذه الحيلة.. إلا أن الحيلة لا تصادف في كل الأوقات نجاحًا ما لم يكن العاشقان ذوي حكمة سامية. وأما إذا كان كلاهما أو أحدهما جاهلاً فلا تصادف أبدًا نجاحًا، لأن الصديق الجاهل لا ينفع صاحبه بل يضره ولهذا قيل: "عدو عاقل خير من صديق جاهل.." وأما أنا فقد علمت يقينًا أنك ينبوع الحكمة والفطنة وأما معشوقك فلا أعرف إن كان حكيمًا أو جاهلاً فإن كان حكيمًا فتكونين قد صادفت حظًا وافرًا وأما إذا كان جاهلاً فيجب أن تعرضي عنه حالاً.

فأجابته قمر السُّكَّر:

– أيها النصوح الشفوق قد عرفت الآن خلوص محبتك، وعلمت قيمة نصائحك، وأما قبل الآن فما كنت أعرف قيمتها لأن الهوى ختم على قلبي، ولهذا كنت في بعض الأحيان أسيء إليك فاجتهد الآن أن تبلغني إلى حبيبي بأقرب وقت لأنني لا أعرف إذا كان عاقلاً أو جاهلاً ولا أدري بأية واسطة يمكنني أن أُسبِّر أمره وأعرف خله وخمره.

فأجابها الببغاء:

– إن لمعرفة عقل الإنسان وطَيَّتِهِ طرقًا شتى وأسهلها على ما قيل الحكاية الآتية وقد امتحن بها كثير من الناس.

فسألته قمر السُّكَّر:

وما هي هذه الحكاية..؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إن تاجرًا غنيًا من مدينة كابل كان له ابنة اسمها زهراء وكانت بديعة الخَلق كريمة الخُلق، ولهذا طلبها من أبيها كثيرٌ من الأشراف والأعيان فلم يرتض أبوها بذلك؛ فشاع صيتها في الأقطار وفاق بالاشتهار على الشمس في رابعة النهار.. فيومًا ما أتى إلى مدينة كابل ثلاثة فتيان من مملكة بعيدة وكانوا ممتازين بجمال الصورة وحسن المنظر وكان اسم الأول (دلنواز) والثاني (رخش ساز) والثالث (تيرانداز)، كانوا يدعون بالحكمة والمعارف فأتوا على التاجر المشار إليه وطلبوا ابنته.

فسألهم التاجر عما يعرفونه من الآداب والمعارف.

فأجابه (دلنواز):

– إنني أنا يا سيدي أمتاز بعقلي وحكمتي ومعرفتي بالغيب والغوامض حتى إنني أعرف أيضا كل ما يتصوره الإنسان بفكره. وقال رخش ساز إنني أمتاز بعلم الطلسم وقد أتقنت هذا الفن، حتى صرت أصطنع حصاناً يركبه فارس ويتحرك الحركة الطبيعية ويقطع بيوم واحد مسافة شهر.

ثمَّ قام الثالث وقال:

– وأما أنا يا مولاي فإني ممتاز برشق السهام وقد أتقنته بهذا المقدار حتى أن سهمى لا يخطئ قط.

فقال لهم التاجر:

– أمهلوني بضعة أيام لأختار منكم زوجًا لابنتي.. فمن كانت نصيبه أعطيتها له. وبعد يومين كان بالقضاء والقدر أن افتقدوا الابنة ليلاً فلم يجدوها؛ فأخذ أبوها

يفتش عليها في سائر الجهات فلم يجدها فحزن عليها حزنًا مفرطًا، وقام لساعته وأتى إلى الثلاث فتيان المار ذكرهم وقال لهم:

– واأسفاه يا أحبائي إن الزهراء مهجة فؤادي قد توارت عني، وفتشت عليها في كل المدينة فلم أجدها، ولم أدر أهي حية حتى أنتظرها، أو ماتت فأبكى عليها، فأرجوكم أن تظهروا معارفَكم وتُعلموني أين هي.

فلما سمعوا كلامه أطرقوا برهةً ولبثوا متحيرين.. ففي آخر الأمر قال (دلنواز):

– أنا أَهديك إلى ابنتك غير أنني أريد الآن أن أتكهن. قال هذا وأخذ ثوبه ووضعه على رأسه وبقي راصدًا ساعة من الزمان، ثمَّ رفع الثوب عن رأسه وقال للتاجر:

– يا سيدي إن ابنتك قد اختطفتها الجن، وأخذوها إلى الجزيرة الفلانية ووضعوها في بئر عميقة لا يستطيع ابن آدم أن يتوصل إليها.

فقام (رخش ساز) وقال:

– إنني قادر الآن أن أصنع مركبًا من الطلسم يسير سيرًا سريعًا، وإذا ركبه إنسان يصل إلى ذلك المكان بساعة واحدة، إلا أنه مَن الذي يركب ويذهب إلى الجزيرة فأجابه (تيرانداز):

– اصنع أنت المركب وأنا أركبه وأستخلص الابنة وأرجع بها إليكم. فعند ذلك قام (رخش ساز) وصنع المركب فركبه (تيرانداز) وعلَّق قوسه بكتفه وسار بسرعة لا يضاهيها مرور السحاب، ولما وصل إلى الجزيرة وجد عددًا وافرًا من الجن فأوقع بهم ضرب السهام، وبعد مصارعة شديدة خرج من حومة الميدان ظافرًا واستخلص الزهراء ورجع بها.. فعند ذلك وقع نزاع عظيم بين هؤلاء الثلاثة وكان كل منهم يدّعي الابنة لنفسه.

فعند ذلك نظر الببغاء إلى قمر السُكَّر وقال لها:

- احفظي يا سيدتي هذه الحكاية، وقصيها على حبيبك واسأليه عمن هو الأحق بهذه الابنة من هؤلاء الثلاثة فتيان فمن جوابه تعرفين عقله وفطنته.

فأجابته قمر السُكَّر .. أخبرني الآن من هو الأجدر بهذه الابنة... وبعد ذلك أمتحن حبيبي.

فأجابها الببغاء:

- يا سيدتي لما كنت أقص عليك هذه الحكاية تذكرت حكاية أخرى فأريد أن أقصها عليك، وبعدها أجاوبك عن الحكايتين ثمَّ بعد ذلك تذهبين إلى حبيبك وتمتحنينه بهما فسألته قمر السُكَّر.

وما هي هذه الحكاية..؟.

* * * * *

حكاية

قال الببغاء:

زعموا أن ابن أحد سلاطين الهند ذهب يومًا ما إلى السياحة خارج المملكة فنظر من العجائب والغرائب ما يبهج الناظر ويسر الخاطر .. فيومًا من الأيام مرَّ بإحدى المعابد فنظر فيها ابنة جميلة الصورة حسنة المنظر؛ فشغف بها وهام بحبها وقال في نفسه:

– إن وفقني الله وجعل هذه الابنة نصيبي فإني أضحي له بنفسي في هذا المعبد. ثمَّ نظر بغتة أحد خدم المعبد فدعاه إليه وسأله عن هذه الابنة فأجابه:

– إن هذه الفتاة ابنة أحد ملوك الهند..

فعند ذلك رجع ابن السلطان إلى بلده وأخبر أباه بما رآه وقال له:

– يا أبت: إن لم تطلب لي هذه الابنة من أبيها فأموت حسرة وتأسفًا.

فلما سمع أبوه كلامه بعث رسولاً رقيمًا إلى ملك الهند يطلب فيه ابنته لابنه وسلمه إلى ابنه وأرسله إليه مصحوبًا بالهدايا الفاخرة والتحف النفيسة.. فسافر ابن السلطان .. ولما وصل إلى عاصمة المُلك والد الابنة حظي بمقابلته وسلمه رسول أبيه مع التحف والهدايا التي أتى بها.

فلما علم الملك مقصوده أجاب طلبه وزوَّجه ابنته.. فلما نال ابن السلطان مراده أقام مدة في تلك المدينة ثمَّ عزم على الرجوع إلى مدينته؛ فأخذ زوجته وجهازها مع نفيس التحف والهدايا، وسار مسافرًا وبعد بضعة أيام بلغ إلى المعبد الذي مر به أولاً، فعند ذلك نزل عن ظهر جواده وذهب إلى المعبد مع راهب كان مرافقًا له.

ولما دخل المعبد تذكر الندر الذي ندره سابقًا لما نظر الابنة التي اقترن بها؛ فتقدّم حينئذٍ أمام الصنم الأكبر وقصد أن يفي بعهده لأن أمه كانت توفي الندور

فاستل سيفًا ماضيًا وضرب به عنقه؛ فانقطع وسقط على الأرض ميتًا.. فاتفق حينئذٍ أن الراهب لم يكن معه بل كان منعكفًا على الصلاة في زاوية المعبد، ولما فرغ من العبادة أتى إلى الصنم الأكبر ليفتش عن ابن السلطان فوجدوه مقتولاً ودمه سائل على الأرض.

فعند ذلك حزن حزنًا شديدًا ودب الرعب في قلبه ولبث متحيرًا.

ثمَّ قال في نفسه:

– إذا قلت إن الأمير قتل نفسه فلا يصدقني أحد بل يخال بفكر الناس أنني حسدته وطمعت بعروسه فقتلته؛ فأُضحي حينئذٍ عرضة لغضب هذين الملكين ولابد من أن يقتلني أحدهما، وفضلاً عن ذلك فإنني قد ربيت بعز هذا الأمير فلا يجب من ثمَّ أن أحيا بعده.

قال هذا وضرب عنقه بالسيف فانقطع ووقع على الأرض مصبوغًا بدمه ثمَّ أتت الابنة إلى المعبد.

وبينما كانت تجول فيه وصلت أمام مذبح الصنم الأكبر فرأت زوجها والراهب مقتولين ودمهما سائل على الأرض، فعند ذلك ارتعدت فرائصها خوفًا وبهتت متحيرة وقالت في نفسها:

– متى علم الناس ما صار بزوجي ورفيقه فلا غرو أنهم يقولون إنني ولدت في طالع نحس، وكنت سببًا في قتلهما؛ فالأجدر بي أن أقتل نفسي لأنجو أولاً من العار، ثمَّ من الحزن الشديد الذي يعتريني على فقد زوجي.

قالت هذا وأخذت السيف لتضرب به عنقها.. إلا وقد سمعت صوتًا من العُلا هتف صارخًا:

– مهلاً أيتها المرأة اتركي دينك الباطل واقبلي الإيمان الحقيقي، وخذي هذين الرأسين وضعي كل رأس في موضعها.

ثمَّ بعد ذلك تضرعي إلى الإله المتعال فيردهما إلى الحياة.

فلما سمعت المرأة هذا الكلام تشرفت بدين الإسلام وأخذت الرأسين المقط وعين ووضعتهما على البدنين غير أنها لشدة فرحها سهت فوضعت رأس زوجه ا عل ى بدن الراهب ورأس الراهب على بدن زوجها، ثمَّ أخذت تصرخ إلى الله تعالى ليمن عليهما بالحياة. فاستجاب الله طلبها وأحياهما فلما استيقظا من سبات الموت نظر كل منهما فرأى رأسه على بدن الآخر فوقع حينئذٍ بينهما نزاع عظيم وصار كل منهم ا يدعي الزوجة لنفسه.

فلما وصل الببغاء إلى هذا المقام نظر إلى قمر السُّكَّر وقال لها:

– يا سيدتي اسألي محبوبك عمن يجب أن يحكم له بهذه الابنة.. هل لرأس اب ن السلطان أو لبدنه.

فقالت قمر السُّكَّر:

– يا سيدي أخبرني كيف يكون الحكم في هاتين المسألتين قبل أن أجرب حبيبي بهما.

فأجابها الببغاء:

– يا سيدتي إن الذي يستحق الابنة الزهراء من الفتيان المار ذكرهم في الحكاية السابقة هو (تيرانداز) الذي استخلصها من الجن لأن (دلنواز) عرف محل وجدودها و(رخش ساز) اصطنع المركب السريع الحركة، وكل هذا لا يجـ دي نفعً ا لـ ولا شجاعة (تيرانداز) الذي خاطر بحياته حبًا بالابنة، وعرض نفسـ ـه للهـ ـلاك ولـه ـذا السبب يكون أولى بهذه الابنة من رفيقيه.

وأما الابنة المحكي عنها في الحكاية الثانية فيجب أن يحكم بها لرأس ابن الوزير لا لبدنه لأن البدن لا يحتوي إلا على البطن وغيره من الأعضاء غير المهمة، وأما الرأس فهو رئيس الأعضاء ومحل الدماغ ومركز العقل والحكمة وبه يمتاز الإنسان عن غيره، لأن المعالي تُدرك بالعقول لا بالبدن ولله در من قال:

لولا العق ول لكـ ان أدنـ ى ضـ يغم .. أدنى إلـ ى شـ رف مـ ن الإنسـ انِ

ولربم . ا طع . ن الفت . ى أقران . ه .. ب .الرأي قب .ل تط .اعن الأق .رانِ

فالآن يا قمر السُّكَّر احفظي كلامي هذا واذهبي إلى حبيبك وامتحني عقله بهذين السؤالين فإن أجاب كما أجبت فهو حكيم عاقل وإلا فهو مغفل جاهل.. والآن حيث قرب الصباح فلا عدت تتأخرين بل اذهبي حالاً إلى معشوقك.

فلما سمعتْ قمر السُّكَّر هذا الكلام فرحت فرحًا عظيمًا، وقامت لساعتها قاصدة حبيبها إلا أنها لما فتحت الباب رأت أنه قد طلع الصباح؛ فرجعت عند ذلك خائبة وأجلت نوال مرغوبها إلى الليلة التالية، وقضت ذاك النهار بالتأسف.. ولما ظل الظلام أتت قفص الببغاء وقالت له:

- أيها الببغاء يلزم أن أذهب في هذه الساعة بلا تأخير إلى حبيبي لأنه كما أنني مبتلية بعشقه فهو لا ريب مبتلٍ بحبي فلا يليق لي أن أحرقه بنار الانتظار كما أحرقته بنار الغرام فيجب عليه أن أذهب إليه حالاً لأطفئ لهيب فؤاده بلذة الوصال، وأتمتع أنا بمشاهدته لأنه يحبني حبًا مفرطًا.

فأجابها الببغاء:

- إن كلامك مسلَّم به لأن الوفاء بالعهود من كرم الأخلاق.. إلا أن وجوب إنجاز الوعد لا ينافي وجوب التأني في العمل لأنه قيل:

ثلاثة تجلب ثلاثة.. الأول القناعة فإنها تجلب الغنى. الثاني الصبر في الشدائد فإنه يجلب الراحة. الثالث تمنى الشيء بصفاء قلب ونية فإنه يجلب حصوله. فيجب عليك أن تتأني بسعيك إلى حبيبك لتنالي من جهة وصاله، وتنجي من جهة أخرى من غضب زوجك، لأن ابنة ملك بابل حصلت بأمانيها أولاً على صديقها ثمَّ على أموال وافرة.

فسألته قمر السُّكَّر:

وما هي هذه الحكاية...؟.

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

زعموا أن أحد البراهمة المدعو (غلطنما) الذي كان على جانب عظيم من جمال الصورة وحسن المنظر كان من عادته السياحة في المدن والبلدان... فيومًا من الأيام وصل إلى مدينة بابل فأعجبه ماؤها وهواؤها فمكث فيها.. وكان كل يوم يذهب للتقصف والانشراح في بساتين المدينة، ففي ذات مرة ذهب حسب عادته للتنزه فوصل إلى بستان عظيم فيه كل ما راق وشاق، فدخله وأخذ يطوف فيه مسرِّحًا أنظاره في بدائع رياضه فاتفق حينئذٍ أن ابنة ملك بابل كانت تتنزه في البستان فوقع نظرها عليه.. ولما رأت ما هو عليه من البهاء الفائق شغفت به وهامت بحبه.. وأما هو فلما رأى هذه الابنة الجميلة وما هي عليه من الحُسن والبهاء مال قلبه إليها وطار عقله من خمرة الغرام، وإذ لم يكن عنده للصبر مجال خرج من البستان وأنشد:

إنَّ الغرام هو الحياة فمت به .. صبًّا فحقك أن تموت

قال هذا وقام لساعته ورجع إلى مدينة بابل والغرام يتلاعب في فؤاده، وكانت في تلك المدينة عجوز ساحرة ماكرة تصنع العجائب بمكرها وتنقل الجبال بسحرها ولم يخلق مثلها قط منذ بداية العالم، حتى أنها فاقت بسحرها هاروت وماروت.. فأتى إليها (غلطنما) وتقيد بخدمتها وكان يخدمها بكل همَّة ونشاط.

فمضت على هذا المنوال أيامٌ كثيرة وهو لا يفتر قط بخدمته فيومًا من الأيام.. قالت له العجوز:

– أيها الشاب البديع الصورة.. إنك لم تتقيد بخدمتي إلا لغرض تريد الحصول عليه فأخبرني الآن ما هي غايتك فأنا أبلغك بها لأنني أضحيت بغاية الممنونية من خدمتك.

فلما سمع (غلطنما) هذا الكلام انطرح على أقدامها وأخبرها بأنه ابتُلِيَ بعشق ابنة الملك.

فقالت له العجوز:

– يا بني.. لم يخطر ببالي قط أن هذه هي غايتك، بل كنت أظن أنك تريد مني ذهبًا أو جواهر أو ما شبه ذلك.. وأما طلبك هذا فسهل جدًا لأن إبلاغ العاشق إلى معشوقه لا يتعبني أكثر من شربة ماء.

قالت هذا وأخذت خاتمًا صغيرًا كانت قد صنعته من الطلسم ووضعته في فم (غلطنما) فأصبح في الحال ابنة جميلة، ثمَّ دخلت هي في ثوب أحد البراهمة وأخذت (غلطنما) بيدها وأتت به إلى الملك وقالت له:

– يا مولاي لقد كان لي ولد وهذه المرأة زوجته، ففي ذات ليلة غاب عن البيت بقضاء الله تعالى فأخذت أفتش عليه في المدينة، وحتى الآن لم أجده، ولذلك قصدت أن أفتش عليه خارج المدينة غير أن كنتي هذه إذا اصطحبتها معي فتكون سببًا لإعاقتي، ولهذا قصدت أن أُودعها هنا وقد أحضرتها بين يديك لكي تبقى في خدمة حرمك الشريف حتى أعود من سفري.

فأجاب الملك التماسها وأخذ المرأة بيدها وأدخلها دار الحريم وسلمها لابنته وأوصاها بالالتفات إليها.

فأقام (غلطنما) مع معشوقته في محل واحد.. غير أن ابنة الملك لم تكن تعرف وقتئذٍ أنه (غلطنما) الذي نظرته في البستان فصارت تواصله بالمعروف اتباعًا لوصية أبيها، ولم تكن تتركه لحظة واحدة بل كانا يأكلان ويرقدان سويًا.

فيومًا من الأيام اعتراه مرض فنقلوه إلى المستشفى وكان على أسوأ حالة فزارته ذات مرة ابنة الملك وإذ وجدته ضعيفًا نحيفًا قالت له:

– ما بالك تزدادين ضعفًا يومًا بعد يوم.. فإذا كنت لك غاية تريدين إدراكها فأخبريني بها.

قالت هذا وأخذت تلح عليه ليكشف لها سره.. وأما (غلطنما) فلم يجسر على كشف سره بل بقيَ صامتًا.

وأما ابنة الملك فلم تستطع صبرًا على كتم سرها.. بل قالت لـ (غلطنما):

إنني قد استُهدفت للعشق والغرام لأنني ذات مرة كنت في البستان الفلاني فنظرت شابًا جميل الصورة فهمت بحبه وابتُليت بعشقه ولم أعد أود أن أرى غيره، وأنشدت:

ملأت فؤادي من محبة شادنٍ   أميل إليه وهو كالظبي رائغُ
وقلت لقلبي قم لتعشق شادنا   سواه فقال القلب ما أنا فارغُ

فسألها (غلطنما):

– يا سيدتي إذا نظرتِ إليه الآن فهل تعرفينه؟ فأجابته:

– كيف لا أعرف حبيبي الذي همت بحبه فحقيق أنني لم أره إلا مرة واحدة إلا أنه لم يزل مصورًا أمام عيني لا يبرح من بالي ليلاً ولا نهارًا وأنشدت:

ولقد جعلتك في الفؤاد مُحدّثي ..   وأبحت منه ظاهري لجليسِ
فالكل مني للجليس مؤانسٌ ..   وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسِ

وصرت من ذاك الحين أطوق لرؤياه وكنت أطمع بوصاله، وأما الآن فأقنع بمرور طيفه على في المنام لأنظره مرة ثانية، وقالت:

يا من سقامي من سقام جفونهِ   وسواد حظي من سواد عيونهِ
قد كنت لا أرضى الوصال وفوقه   واليوم أرضى بالخيال ودونهِ

فلما سمع (غلطنما) كلامها رفع الخاتم من فمه وفي الحال رجع إلى صورته الأصلية، فعند ذلك عرفته ابنة الملك وانطرحت عليه وعانقته وسألت عن أحواله فأخذ يقص عليها ما كان من أمره أولاً وآخرًا.

فلما سمعت الابنة حكايته تعجَّبت من دهاء العجوز ومن حكمة (غلطنما) وحذاقته، وقضت معه مدة طويلة بأرغد عيش وأتم هناء إلى أن طرأ عليها ما يكدر رواق الصفاء وهو أنه كان للملك ولد بالغ، فيومًا ما رأى (غلطنما) في صحن الدار الذي كان مضيئًا بنورها، فوقع الغرام في قلبه وصار يود أن يتخذها زوجة له وأخذ عشقه يزداد يومًا فيومًا حتى سقم جسمه وضعفت قواه، فبلغ ذلك مسامع الملك فدعا ابنه إليه وسأله عن ذلك، فأخبره ابنه بما كان يختلج في قلبه من الغرام ولم يخف عنه شيئًا وقال له:

إن لم تزوجني هذه الابنة فلابد من أن أموت.

فتحير السلطان من هذا الأمر، وقال في نفسه إن زوجت ابني هذه الابنة فأكون قد خنت عهد زوجها، وإن لم أزوجه إياها فيموت حسرة وتأسفًا، ومع ذلك فحبًا بولدي يجب أن أسأل هذه الابنة لأطلع على سريرتها. فدعاها إليه وأخبرها بما كان من أمر ابنه.

فأجابته:

– يا مولاي إنني أنا جاريتك وفي قبضة يدك وليس لي مشيئة إلا مشيئتك غير أن زوجي الآن غائب وأتى أبوه وسلمني أمانة لسيدي الملك، وذهب يفتش عليه فإن كان زوجي في قيد الحياة، فلا يجوز أن أتزوج بغيره وإلا فأنا خاضعة لكل ما تأمره.

فاستصوب الملك رأيها وصرفها من عنده.

وأما ما كان من أمر ابن الملك فكان يزداد عشقه يومًا بعد يوم، حتى أصبح في حالة الجنون، فدعا الملك (غلطنما) وقال له:

– إن ابني جُن من العشق فأريد أن تتزوجي به، حيث إن زوجك قد غاب ولا يُعلم أين هو، وإذا كنت بيدنا أمانة من البر هي لا يجوز التصرف بها فالضرورات

تبيح المحظورات فإن رضيت أم لم ترض فأنا لا أدع ابني يهلك من شدة العشق لأنك إنما خلقت لأجل الزيجة.

فلما سمعت الابنة كلام الملك صرحت برضاها وطلبت مهلة ثلاثة أيام فأمهلها. فقام (غلطنما) بعد ذلك وأتى إلى ابنة الملك معشوقته وأخبرها بما كان من أمره.

فأجابته الابنة:

– ليس لنا حيلة في ذلك سوى الهرب. فاستصوب (غلطنما) كلامها واستعد للفرار.

فلما ظل الظلام قام (غلطنما) وأخذ معشوقته وخرج من القصر خفية، وأتى بها إلى العجوز المار ذكرها وأخبرها بما كان من أمره.

فأجابته العجوز:

– يا ابني ارفع هذا الخاتم من فمك وضعه في فم ابنة الملك لأن من خواص هذا الخاتم أنه إذا وضع في فم رجل فيخال لمن يراه أنه أنثى والعكس بالعكس.. ففي النهار ضعه في فم الابنة حتى يخالها الناس رجلاً وفي الليل ارفعه من فمها وعد لمواصلتها. فامتثل (غلطنما) لأمر العجوز وصار يفعل كما أشارت إليه.

وأما ما كان من أمر الملك فإنه بعد أن طلع الصباح علم بفرار ابنته و(غلطنما) فأرسل خدمهُ ليفتشوا عليهما فطافوا في سائر جهات المدينة فلم يروا لهما أثرًا.. فرجعوا إلى الملك وأخبره بذلك فحزن حزناً مفرطاً وقال:

– هذا جزاؤنا من الله تعالى لأننا قصدنا الخيانة ولم ندعي الأمانة فاستنزلنا هذه البلية على رأسنا وفقدنا ابنتنا العزيزة. ولما يأس من وجدانها مزق ثيابه وأخذ يبكي وينوح.

وأما (غلطنما) ومعشوقته فبقيا مع بعضهما مدة طويلة متمتعين بلذة الوصال إلى أن فرغ كيسهما، ونفذ كل ما كان معهما من المال؛ فذهبا إلى العجوز الساحرة وأخبراها بذلك فأجابتهما:

- كونوا براحة فكر من هذا القبيل لأن هذا العوز أنا أسُدُّهُ. قالت هذا.. وتنكرت بصورة أحد البراهمة وأخذت (غلطنما) بيدها، وذهبت إلى البلاط الملوكي وتقدّمت إلى الملك وقالت له:

- يا سيدي إنني قبلاً أودعت عندك ابنتي وذهبت لأفتش على ولدي، وها الآن قد وجدته بعون الله تعالى فأسألك أن ترد لي أمانتي.

فتحير الملك من هذا الأمر وقال لها:

- إن ابنتك قد فرَّت هاربة من بلاطي هي وابنتي ولا أدري إلى أين ذهبتا.. فلما سمعت العجوز هذا الكلام أخذت تبكي وتخرق ثيابها وتلطم رأسها بيديها وتقول له:

- إن الملك أمين من قبل الله تعالى على عباده.. ولذلك أودعتك ابنتي وقيدتها في خدمة حريمك؛ فكيف تجيبني الآن أنها قد هربت ولا تدري أين هي.. فإذا كنت لا ترد لي ابنتي فتكون سببًا لهلاكي.

فخجل الملك من ذلك وأمر بأن يعطى لها عشرة آلاف دينار صُلحًا عن دعواها.

فأخذت العجوز هذا المال ورجعت إلى بيتها فأعطتها إلى (غلطنما) وعشيقته وقالت لها:

- متى نفق هذا المال تعالا إليَّ فأعطيكما غيره فأخذه العاشقان وعاشا مع بعضهما زمانًا طويلاً بأرغد عيش إلى أن أتاهما هادم اللذات ومفرق الجماعات.

فلما وصل الببغاء إلى هذا المقام نظر إلى قمر السُّكَّر وقال لها:

- هل نظرت يا سيدتي كيف أن ابنة الملك بابل أدركت غايتها بهذه الحيلة وحشدت أموالاً وافرة فاقتدي بها حتى تنالي وصال حبيبك دون أن تخسري صداقة زوجك، وإذا حفظت وصيتي فتدركي غايتك وإلا فتخسرين الصيت الحسن وتكتسبين سمعة رديئة.

فأجابته قمر السُّكَّر:

– أيها الببغاء لا يسعني أن أسلك بمقتضى نصائحك كلها لأن ما أوصيتني به من وجوب التأني والاصطبار لا يمكنني أن أعمل بموجبه إذ أنه يؤول بي إلى نكث العهود وخيبة الآمال وقد قيل: أربعة لا يصادفون في الدنيا إلا بعضًا الحكيم الكاذب، والغني البخيل، والعالم المنصف بالطيش، والعاشقة الخالية من الأدب.. وأما أنا والحمد لله فإني قد حافظت حتى الآن على أدبي غاية المحافظة وخير لي أن أهلك من ألم العشق من أن أخسر هذه الميزة الفريدة.

فأجابها الببغاء:

إن كلامك هذا لا معنى له.. فإن الصلاح ممدوح في حد نفسه إلا أن عشقك قد بلغ درجة الكمال وعند الاقتضاء لا بأس به بأن تقتدي بمُلكِ "زايل" الذي مات لأجل معشوقته محروسة. فسألته قمر السُّكَّر:

وما هي حكايتهما...؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

زعموا أنه كان في مدينة "زايل" تاجر ذو ثروة عظيمة وكان عنده جارية صغيرة اسمها محروسة فرباها مع أولاده وعلمها القراءة والكتابة حتى بلغت في التربية درجة الكمال، ولما بلغت الثانية عشرة من سنتها كمل حسنها وجمالها وأضحت بديعة في خلقها وخصالها؛ ففاقت جميع الفتيات الحسان ولم تر مثلها عين الزمان؛ فطلبها كثيرون من أرباب الدولة وأعيان المملكة، غير أنه لفرط حسنها وجمالها لم يستطع أحد على دفع قيمتها.

هذا وكان في تلك المدينة امرأة تتردد على البلاط الملوكي؛ فسمعت يومًا ما بذكر محروسة فأحبتها قبل أن تراها، وبينما كانت ذات مرة عند الملك أخذت تخبره عن محاسن هذه الابنة التي لم تكن تبرح قط من بالها.

فلما سمع الملك هذا الخبر دعا وزراءه الأربعة وأخبرهم عن الابنة المار ذكرها وقال لهم:

– إنني أرغب في أن أتزوج منها؛ فأريد من ثمَّ أن تذهبوا إلى التاجر وتنظروها فإذا كانت بالواقع كما سمعت عنها فاشتروها لي وأحضروها إلى هنا، وبذلك تغنمون محظوظتي.

فقام الوزراء لساعتهم وذهبوا إلى دار ذلك التاجر وأخبروه عما أمرهم به الملك، وطلبوا منه أن يأتيهم بالجارية لينظروها.. فقام التاجر لساعته وأتاهم بها.. فلما رأوا ما هي عليه من الجمال والبهاء.. أخذهم العجب والانذهال إلا أنهم حيث كانوا على جانب عظيم من الحكمة اختلَوا مع بعضهم للمشاورة وقالوا:

– إذا نظر الملك هذه الابنة فلا ريب أنه يتعلق بها تعلقًا شديدًا ولا يعود يتفكر في مهام السلطنة وأمور الدولة.. ومن كون الواجب علينا أن نراعي خير الملك

وصالح الرعية فلا يوافق أن نشتري له هذه الجارية بل الأجدر بنا أن نتركها ونرجع إلى الملك، ونقول له إن هذه الجارية ليست كما وصفوها لك بل هي قبيحة الصورة لا تليق بعظمتك الملوكية فحينئذٍ لا شك في أنه يعرض عنها ولا يعود يشتريها.. فقر رأيهم على ذلك حرصًا على مصلحة الرعية وقاموا لساعتهم ورجعوا إلى الملك، وأخذوا يذمون الجارية قائلين له إنها قبيحة المنظر، وإن أقل جارية في حرمه أجمل منها وفضلاً عن ذلك فإنها عارية من الآداب لا تليق أن تكون زوجة له وأنه إذا تزوج جارية كريهة المنظر وغريبة فيكون ذلك منه ناتجًا على عدم الهمة، وأكثر ما يحتاج إليه الإنسان في الدنيا علو الهمم وكرم الشيم، لأن بهما أدرك ملك "خطا" منتهى الأوطار.

فسألهم الملك:

– وكيف كانت حكايته..؟

* * * *

حكاية
الوزير الأول

قام الوزير الأول وقال: إنه كان في ولاية "خطا" ملك عظيم الشأن فيومًا ما أتى إليه رجل وقال:

– إن معي هدية للملك. فأدخلوه بين يديه وأما هديته فكانت قصعة من الخشب فقدم الهدية للملك فقبلها منه وأعطاه مالاً وافرًا وصرفه.

فلما أتى الليل رقد الملك فرأى في الحلم امرأة جميلة المنظر فأتت إليه وقالت له:

– إنني أنا صورة مالك قد أتيت الآن لأودعك لأنك لا تعرف قيمتي بل تعطيني لمن لا يستحقني وفي الأمس صرفت مالاً وافرًا لأجل قطعة من الخشب لا تساوي فلسًا واحدًا، ولذلك لم تعد جديرًا بصداقتي فأنا راحلة عنك وراغبة في غيرك.

قالت هذا وسكتت وأما الملك فلم يجزع بل اتكل على علو همته وزجر المرأة وقال لها:

– ارحلي عني واذهبي إلى حيث تريدين. وبعد حين علم الملك أن ما رآه في الرؤيا تم فعلاً، فإن واردات المملكة أخذت تتناقص مع تمادي الأيام حتى فرغت صناديق الخزينة وصارت المالية على أسوأ حال.

ثمَّ بعد أيام حلم الملك مرة ثانية فرأى في الحلم رجلاً جميل المنظر أتى إليه وحياه بالسلام وقال له:

– أنا صورة قوتك الجسدانية؛ وحيث لم أر منك إلا كرهًا فقد عُزت أن أتركك وأذهب إلى سواك لأنك لا تعرف قيمتي. وأما الملك فلم يحفل به بل قال له:

– إنني في غنىً عنك فارحل إلى حيث تشاء. وصار الملك منذ ذلك الحين ينحل جسمه يومًا بعد يوم حتى صار أشبه بالخيال.

ثمَّ بعد مدة حلم الملك بهذا الكلام فانطرح عليه وتعلق بأذياله وقال له:

– بالله عليك لا تتركني.

فلما رأى هذا الشاب أن الملك متعلق به رجع إليه وقال له:

– يا سيدي حيث لا تريد أن تنفصل عني فأنا أيضًا لا أريد أن أنفصل عنك، ومادمت أنا متصلاً بك فلا يعوزك شيء بل بواسطتي تحتشد الأموال، ويسترجع جسدك القوة التي فقدت منه. قال هذا وتوارى عنه.

فاستيقظ الملك من نومه؛ فوجد جسده بالصحة الكاملة وصارت وقتئذٍ واردات الخزينة تتزايد يومًا بعد يوم.

فلما وصل الوزير إلى هذا المقام نظر إلى السلطان وقال له:

– يا سيدي قد قيل إن المرء يطير بهمته وعليه فإن الهمة تحمله بجناحيها إلى أوج العُلا وتجعله أن يقتحم المخاطر ويدوس المهالك حتى ينال غاية المُنى ويدرك منتهى الأوطار.

قال هذا وأخذ هو ورفيقاه يخاطبون الملك بمثل هذا الكلام ليعرض الجارية المار ذكرها.. فنجح سعيهم وأعرض الملك عنها ولم تعد تخطر بباله.

وأما ما كان من أمر التاجر سيد محروسة؛ فإنه لما يأس من أن يتزوج الملك جاريته زوجها من محافظ القلعة الذي كان جاره في جوار قصر الملك.

وأما محروسة فتعجَّبت من إعراض الملك عنها، وقالت في نفسها لماذا أعرض الملك عني ولا مثيل لي في البهاء والجمال، فربما أن الوزراء قالوا له إنني قبيحة المنظر فأريد من ثمَّ أن أكذبهم لديه بظهوري أمامه ولو مرة واحدة ليرى ما أنا عليه من حسن وجمال.

فيومًا ما نظرت الملك جالسًا في الشباك الذي يطل على بيتها؛ فقامت عند ذلك وتزيَّنَتْ بالثياب الثمينة وأخذت تتمشى أمامه متجاهلة عن رؤياه.

فلما نظر الملك هذه الابنة وما زينها به الخالق من البهاء والجمال ك اد عقل ه يطير من رأسه وفي الحال شعر بوقوع الغرام في قلبه فسأل من هي.. فأجابوه إنها محروسة جارية التاجر وأن سيدها زوجها من محافظ القلعة.

فلما سمع الملك هذا الكلام هتف صارخًا:

– ويحًا لي لأنني لم أر بعيني فقد اعتمدت على من خدعني وأوقعني ف ي شر بلية.

فيومًا ما أتى على السلطان وزراؤه الأربع المار ذكرهم ليعيدوه ف رأوا مكتوبً ا على صفحة قلبه هذا البيت:

فعش خاليً ا فالح ب راحت ه عنه ا وأول . ه س . قم وآخ . ره قت . ل

فعرفوا من ثمَّ أن مرضه من ألم العشق وأن لا دواءً له سوى الوصال.. فتقدّموا إليه وقالوا له:

يا مولانا إن الذي قلناه لك قبلاً عن هذه الابنة هو الواقع وبالحقيقة لم نرها ف ي ذلك الحين على ما وصفوها من الجمال.. وأما حيث قد سبق قلبك وهواها فظهرت لدى عينيك جميلة جدًا وأما بالحقيقة فقبيحة المنظر.. فإذا كنت متعلقًا به ا ف نحن جميعًا نفديك بأرواحنا وإن شئت فإننا نحمل زوجها على أن يطلقها وإن أبى فنقتله.

فأجابهم الملك:

– حاشى ثمَّ حاشى أن أرضَى هوى نفسي لارتكاب هذا الإثمَّ الفظيع فخير لي أن أموت شهيد الحب والغرام من أن أدنس عرض غيري لأنه قيل: من عشق وكتم ثمَّ مات فقد مات شهيدًا.

قال هذا وصار مرضه يزداد يومًا بعد يوم حتى اشتدت عليه في آخ ر الأم ر سكرات الموت فقضى نحبه.

وأما ما كان من أمر محروسة؛ فإنها لما بلغها خبر وفاة الملك قالت في نفسها.. إن هذا الملك العظيم قد مات قتيل هوايا فكيف يسعني أن أحيا بعده يومًا واحدًا فالأجدر بي أن أتبعه إلى القبر.

قالت هذا وقامت لساعتها وأتت تربة السلطان وضحت بنفسها على قبره.

فلما وصل الببغاء إلى هذا المقام نظر إلى قمر السُّكَّر وقال لها:

– إذا كان مرادك يا سيدتي أن تقتدي بمحروسة المار ذكرها فهذا أمر فوق الإمكان.. لأن بينك وبينها بونًا بعيدًا، فقومي إذن في هذه الساعة واذهبي إلى حبيبك. فعند ذلك قامت قمر السُّكَّر قاصدة حبيبها إلا أنها لما فتحت الباب رأت أنه قد طلع الصباح وأشرقت الشمس على الهضاب والبطاح فرجعت خائبة، وأجلت نوال مرغوبها إلى الليلة التالية.. فقضت ذاك النهار باكية نائحة، ولما ظل الظلام أتت قفص الببغاء وقالت:

– هل تسمح لي أيها الببغاء العاقل أن أذهب إلى حبيبي لأن الشوق أضنى فؤادي وخامرتني الريبة والاشتباه.

فأجابها الببغاء:

– وما هو سبب هذا الاشتباه؟ فإذا كنت في ريبة من معشوقك فهذا واقع محله لأنك الآن لم تنظريه ولا تزالين جاهلة سيرته معك.

فأجابته قمر السُّكَّر:

– لست مرتابة بهذا الأمر.. بل إنني خائفة من أن يعود زوجي من سفره ويعرف ما كان من أمري حال غيبته فكيف تكون حالتي وقتئذٍ، وكم يعتريني من الخوف والخجل، لأنه لا شك يطردني من بيته وأُضحي مفضوحة أمامه فهذا الذي يوجس أفكاري شرًا.

فأجابها الببغاء:

- يا سيدتي إن هذا الكلام لا معنى به، ولا شك أنك تكلمت به على غير انتب اه فكيف تخافين من هذا المحظور وأنا ذو الهمة العالية والحيل الممتازة آخ ذ بيـ دك ومهتم بمساعدتك فلا تنفكي عن الصفاء والانشراح ومتى عاد زوجك من سفره فأنا أخدعه كما خدعت زوجك تلك المرأة المسماة (شهر آرام).

فسألته قمر السُكَّر:

- وكيف كانت حكايته........؟

* * * * *

حكاية

قال الببغاء:

زعموا أنه كان في مدينة نيسابور تاجر رزقه الله من الغنى أوفره إلا أنه كان على جانب عظيم من الحماقة وكان له زوجة اسمها (شهر آرام).. وقد ابتلت بعشق شاب جميل الصورة وكان سائر أهل المدينة يعرفون أحوالها ويتحدثون بها في سائر المجالس، حتى بلغ أخيرًا هذا الخبر مسامع زوجها، فقال في نفسه يجب أن أمتحن زوجتي وأتحقق هذا الخبر فإذا كان صحيحًا فأطلقها وأطردها من بيتي.

ففي ذات ليلة اختفى في زاوية كشك البيت بعد أن ودع زوجته وقال لها إنه مسافر لأجل التجارة وأخذ يترصدها من الكشك ليرى ما يكون من أمرها.. ففي أثناء ذلك أتى عاشقها إليها وجلس يغازلها وبينما كانا على تلك الحالة وقع نظرها بغتة على زوجها فخافت جدًا ورأت أن تعتصم بالحيلة فقالت لعاشقها:

– إن زوجي واقف في الكشك وناظر إلينا فأريد أن أحتال وأكلمك على مسمعه بكلام يدل على الطهارة ومتى فرغت من الكلام اذهب من هنا حالاً. ثمَّ نظرت إليه وقالت له:

– يا سيدي قد أصبحت الآن أخًا لي في هذه الدنيا وفي الآخرة بعهد الله تعالى، فأرجوك أن لا تنظر إليَّ بعين الشهوة لأنني دعوتك لأمر مهم، وإن يكن ظهوري أمامك محرَّم إلا أن الضرورات تبيح المحظورات فمن بضعة أيام سافر زوجي لأجل التجارة فأسفت لفراقه، وبينما كنت راقدة رأيت في الحلم رجلاً ذا لحية بيضاء إلا أن وجهه يضيء كالشمس فتقدّم إليَّ وقال لي إن زوجك قد دنا أجله وبعد أيام قليلة يشرب كأس المنون.

فلما سمعت هذا الكلام ارتعدت فرائضي خوفًا ووقعت مغشيًا عليَّ فقام هذا الرجل لساعته، ووضع رأسي على ركبتيه، وأخذ يفركها بيده حتى أفقتُ.. فقال لي:

– يا ابنتي إذا كنت تريدين أن ينجو زوجك من الموت فأنا أعلمك ما يجب أن تصنعيه غير أنه يجب عليك أن تحفظي وصيته، فحلفت له يمينًا أن أحفظ وصيته وسألت ما الدواء فأجابني:

– يجب أن تصاحبي رجلاً من غير أقاربك وتجعليه بمقام زوجك، ولكن لا تنظري إليه إلا بعين الطهارة، وإياك أن تنظري إليه بعين الشهوة، فإن حفظت وصيتي فينجو زوجك من الموت بأمر الله تعالى.

فالآن لئلا أحنث بيمنى ومحافظة على حياة زوجي دعوتك إليَّ وجعلتك مقامه، فأرجو أن لا تنظر إليَّ بعين الشهوة كما أنني لا أنظر إليك إلا بعين الطهارة فقم الآن وارجع إلى بيتك، فأجابها الشاب:

– قد صرت لي أختًا في هذه الدنيا وفي الآخرة ولا أنظر إليك قط بعين الشهوة.

قال هذا وانصرف عنها فأتت (شهر آرام) إلى مضجعها ونامت.

وأما ما كان من أمر زوجها فإنه أتى من الكشك، ودخل مخدعها ورقد بجانبها فلما شعرت به تظاهرت بالرقاد ثمَّ استيقظت وقالت له:

– أي متى كان قدومك السعيد؟ فأجابها قائلاً:

يا قرة عيني وموضوع حبي وسروري أسأل الله تعالى أن يمتعني بطول بقائك لأنني قد سيَّرتُ أحوالك فتأكدت طهارتك وتيقنت كذب ما تقرر لي من الحاسدين، لأنني تظاهرت بالسفر وأتيت فاختفيت في زاوية الكشك، ورأيت بعيني كل ما جرى بينك وبين ذاك الشاب، ولما نظرتك معه أولاً بات فكري منشغلاً، إلا أنه لما جلستِ تقصين عليه ما رأيتِه في الرؤيا تأكدت براءتك وبراءته فأحببته حبًا مفرطًا، وصار كأخ لي في هذه الدنيا وفي الآخرة، فأريد أن يتردد علينا بكل دالة، وما عدت أريد من الآن فصاعدًا أن أصغي إلى كلام الناس لأنني سبرت وشايتهم فقاتلهم الله أنَّى يؤفكون.

فلما سمعت المرأة هذا الكلام فرحت فرحًا عظيمًا ودعت صديقها فصار يتردد عليها كل يوم، وقضت معه زمانًا طويلاً بالصفاء والانشراح.

فلما ختم الببغاء كلامه قالت له قمر السُّكَّر:

– إن كلامك واقع بمحله لأن الحيلة تدفع أعظم البلايا، غير أن هذه الحكاية لا تناسب واقع حالنا لأن ذلك التاجر كان على جانب عظيم من الحماقة حتى خدعته زوجته بهذه الحيلة، وأما زوجي فإنه حكيم عاقل فيَصعب خداعه، فصرت أخشى من أن يحضر ويطلع على سريرتي إذ لا يمكنك أن تقلع الشبهة من قلبه، لأنه على جانب عظيم من الحكمة والدراية ومن جهة أخرى أرى نار الغرام تتزايد في فؤادي يومًا بعد يوم ولو كان يمكنني الاصطبار ولو قليلاً لكنت خرجت من طريق العشق.

فأجابها الببغاء:

– لأي سبب يا سيدتي تخامرك هذه الأفكار الفاسدة والذي تولى إدارة أمورك قد اتصف بحكمة فائقة وحذاقة غريبة، فبددي من قلبك غيوم الكدر واحفظي وصيتي فلا يطلع زوجك على أسرارك بل تبقى أحوالك مستترة حتى على الذين في بيتك، لأنه نظرًا لحذاقتك يمكننا أن نخدع زوجك بأعظم سهولة كما خدعت زوجها المرأة المار ذكرها.. وأما ما قلته من أن زوجك حكيم لا يغش فواقع بغير محله لأنني لو قصدت أن أخدعه لكان ذلك أمرًا سهلاً.. فالآن بددي هذه الأوهام من أفكارك لأنه يجب على العاشق أن يتصف بالشجاعة لكون التاجر الجبان لا يجني ربحًا والذي يخشى من أسهم ألسنة الخلق لا يدخل مضمار العشق فاتصفي الآن بالشجاعة واذهبي إلى معشوقك في هذه الساعة لأنه كما لا يستغني الرجل عن زوجته كذلك لا يستغني العاشق عن معشوقته.. وكما أن المرأة مهما اجتنبت الزواج لابد من ميلها إليه فكذلك العاشق مهما اجتنب معشوقته لابد من ميلها إليه فكذلك العاشق مهما اجتنب معشوقته لابد من أن يعود إليها، فكم قد تمنعت ابنة ملك الروم عن الزيجة ثمَّ مالت إليها ورغبت فيها.

فسألت قمر السُّكَّر:

وما هي حكايتها...؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

زعموا أنه كان في مملكة الصين ملك عظيم اسمه (فغفور) وكان عنده وزير عاقل خبير بأمور السياسة وكان هذا الوزير يتردد على الملك بكل دالة، فيومًا ما دخل عليه حسب عادته وكان الملك وقتئذٍ مضطجعًا على سريره وغارقًا في بحار النوم؛ فاستيقظ من حركة الوزير وقام لساعته واستل سيفه وهجم عليه ليقتله.. ففر الوزير هاربًا لقاعة الندماء فتبعه الملك وقلبه يتمزق من الغيظ فلما رآه الندماء على هذه الحالة انطرحوا على أقدامه وخلصوا الوزير منه.. فلما ارعوى الملك سألوه ما الذي أهاج غضبه.

فأجابهم:

– إنني رأيت في الحلم ابنة جميلة المنظر جالسة في بستان لم تر عيني قط مثلها، وبينما كنت مفعمًا بالسرور من هذا المنظر البهيج دخل عليَّ الوزير بغتة فاستيقظت من نومي وعدمت اللذة التي كنت متنعمًا بها.

أما الوزير فكان على جانب عظيم من الدراية وكانت لحكمته تذل المصاعب ولديه تهون المتاعب وفضلاً عن ذلك كان بارعًا في فن التصوير وإذ ذاك رأى أن يداوي عشق سيده الملك فتقدّم بين يديه وسأله أن يخبره عن أوصاف الابنة التي رآها في الحلم؛ فأخبره الملك عن ذلك مفصلاً ووصف له البستان الذي كانت جالسة فيه؛ فذهب الوزير بعد ذلك إلى بيته وصور صورة الابنة المار ذكرها جالسة في البستان الذي وصفه الملك ولما أنجز العمل بنى قبة جميلة في أحد الشوارع، ووضع صورة الابنة فيها وصار يسأل الشارد والوارد عن هذه الابنة ليعرف من هي:

فيومًا من الأيام مرَّ سائح غريب في ذلك المكان فلما رأى التمثال أخذه العجب والانذهال ووقف باهتًا متحيرًا فسأله الوزير عن سبب ذلك.. فأجابه:

يا سيدي قد أدركتني العجب لأن هذا التمثال يشابه ابنة ملك الروم.

ففرح الوزير عند ذلك وسأله عن حال هذه الابنة وأوصافها.

فأجابه السائح:

– إن هذه السيدة هي على جانب عظيم من الحسن والجمال ومع ذلك فإنها مجتنبة الزيجة، لأنها كانت يومًا ما تتنزه في أحد البساتين فرأت في كعب شجرة عش طاووس وبه فراخ كثيرة فكان بالقضاء والقدر أن احترقت هذه الشجرة، فعند ذلك ترك الطاووس فراخه وزوجته وفرَّ هاربًا لينجو من الحريق.. وأما زوجته فلم تترك فراخها بل احترقت معها بلهيب النار.

فلما نظرت ابنة الملك ما كان من أمر الطاووس وقساوته قالت:

لا عهد للرجال ولا زمام لهم. وصارت تعتقد منذ ذلك الحين بأن كل الذكور لا وفاء لهم ولا رحمة ولهذا أبت الزواج وصارت تأنف من ذكر الرجال.

فلما سمع الوزير كلامه فرح فرحًا عظيمًا وأتى إلى الملك وقص عليه كل ما أخبره به السائح وقال له:

– إذا كنت قد انشغفت بهذه الابنة فأنا أجعلها أن تشغف بك.

قال هذا واستأذنه بالذهاب إلى بلاد الروم.. فأذنه، فقام عند ذلك وتنكر بهيئة السياح ودعا بالسائح المار ذكره وأخذه بمعيته وسار مسافرًا نحو بلاد الروم.

فلما بلغ القسطنطينية ذهب إلى البستان المختص بابنة القيصر، فأخذ الوزير يتفرس فيه فإذا هو البستان الذي رآه سيده في الحلم فتيقن من أن التي عشقها الملك هي ابنة قيصر الروم، فصار من ثمَّ يسعى في نوال مرغوبة وأخذ يتعاطى فن التصوير، فأبدع فيه حتى أنه لم تمض أيام قليلة حتى اشتهر في تلك الأقطار فبلغ

خبره قيصر الروم وابنته حيث كانت هذه الابنة تحب هذا الفن حبًا زائدًا وسألت أباها أن يدعو المصور المشار إليه ليزين جدران قصرها بالصور والتماثيل.

فأجاب طلبها ودعا المصور وأمره أن يفعل كما طلبت ابنته فأخذ الوزير يصور في ذلك المكان صورًا بديعة تدهش الأبصار، وكان في ذلك القصر قاعة عظيمة معدة لجلوس ابنة القيصر في النهار ورقادها في الليل.. فصور الوزير على إحدى جدرانها جنة بديعة تدهش كل ناظر، وفيها من جميع أصناف الزهور والرياحين وعصافير تغرد على الأشجار وبلابل ترقص على الورود والأزهار وما شاق وراق من الفاكهة والأثمار.. وفي وسط تلك الجنة مرتبة ذهبية جالس عليها الملك (فغفور) بكمال الهيبة والوقار وقبالة هذه المرتبة روضة فيحاء تجري من تحتها الأنهار وفي إحدى هذه الأنهار صورة وعل غارق في المياه مع فراخه، وزوجته ترعَى في مرح نضر بكل طمأنينة غير مبالية بهلاك زوجها وأولادها.

فلما تم هذا العمل زينوا القصر بمفروشات فاخرة ثمَّ أتت ابنة الملك، ولما رأت هذه الرسوم البديعة طارت فرحًا وسرورًا ورقصت طربًا وحبورًا فدعت المصور إليها.

وسألته:

- من هو الجالس على هذه المرتبة.؟ وما هي الجنة وما هو هذا الوعل.؟

فاستغنم الوزير هذه الفرصة لإنفاذ مآربة وقال لها:

- يا سيدتي إن هذ الجنة هي حديقة ملك الصين السلطان (فغفور) وهذ الصورة البديعة هي صورته، وقد صورته بهذه الهيئة معرضًا عن النساء لحادث عجيب وقع فأقلع من قلبه حب النساء. فسألته الابنة:

- وما هو الحادث.......؟

فأجابها:

- إن هذا الملك كان ذات مرة يتنزه في هذه الحديقة فرأى بغتة وعلا آتيًا مع زوجته وفراخه ليستقي من النهر الجاري في هذ الجنة، وبينما كُن يستقين داهمهن سيل زاخر فاقتاد الفراخ إلى الغرق فعند ذلك انطرح أبوهن في الماء وصار يجدُّ في إنقاذهن من الغرق فغلبت عليه المياه، وأغرقته مع فراخه وأما زوجته فأسرعت في إنقاذ نفسها وتركت زوجها وأولادها بدون أن تأتي لإغاثتهن.

فلما نظر الملك ما أصاب الوعل وما كان من قساوة زوجته قال ليس للأنثى عهد ولا زمام.. فأعرض عن محبة النساء وصَرَمَ حبًا له عنهن، ومنذ تلك الساعة صار يجتنب الزواج.

فلما سمعت ابنة القيصر كلام الوزير قالت له:

- سبحان الله إنني كنت أظن أن الخيانة موجودة في جنس الرجال فقط؛ فظهر لي الآن بأنها توجد في جنس النساء أيضًا، ثمَّ أطرقت برهة وقالت:

- إن بيني وبين هذا الملك مشابهة عظيمة.. لأنني كنت أجتنب الزواج خيفة من خيانة الرجال، وكنت أرغب رجلاً على هذه الصفة فلا شك أن هذا الملك يقبلني زوجة له.

قالت هذا وقامت لساعتها وأتت إلى أبيها، وطلبت منه أن يزوجها به فرغب أبوها في ذلك، وفي الحال كتب إلى ملك الصين كتابًا في هذا الشأن وسلمه إلى رسول يحمله إليه فسار هذا السفير إلى مملكة الصين وبمعيته الوزير المتنكر بزي سائح فعند وصوله أخبر الملك بقصده وغايته وأما الملك فتظاهر أولاً بالامتناع غير أن قلبه كان مفعمًا سرورًا وفرحًا فقال للسفير:

- قد ارتضيت بذلك حبًا بالقيصر وإكرامًا لخاطره وقربه إليه. وأحسن إليه بمال وافر وبعد مدة جهز قيصر الروم ابنته وأرسلها إلى الملك (فغفور) فاستقبلها بغاية الفرح والسرور إذ نال مرغوبه وغاية مناه .

فلما وصل الببغاء إلى هذا المقام.. نظر إلى قمر السُكَّر وقال لها:

– يا سيدتي ينتج من هذه الحكاية أنه كما أن لا حظَّ للمرأة بدون الزواج كذلك لا حظَّ للعاشق إن لم ينل وصال معشوقته، فلذلك لا يجمل بك أن تفرغي قلبك من العشق بل أجدر بك أن تذهبي إلى محبوبك في هذه الساعة.

فأجابته قمر السُّكَّر: لقد صدقت في كلامك إلا أنه في بعض الأحيان لا ينال العاشق مرغوبه لأننا طالعنا في أخبار المتقدّمين أن كثيرًا من العشاق تفرغوا من العشق لأنهم لم يدركوا غايتهم فما قولك في هذا.

فأجابها الببغاء:

– يا سيدتي إن يتفق في الدنيا بأن كثيرًا من العشاق يُحرمون بغيتهم غير أن الواجب على الإنسان أن يراعي ظروف الزمان، ومن وضع الشيء في محله نال مبتغاه ومن وضعه في غير محله كان شبيهًا بالحمار الذي أهلكه نهاقه لأنه كان في غير محله.

فسألته قمر السُّكَّر:

ما هي حكاية الحمار؟

* * * *

حـ ـكـ ـايـ ـة

قال الببغاء:

إن حمارًا أَلِفَ ثورًا بريًا وتوطنا سويًا في محل واحد.. فيومًا مـ ـا أتيـ ـا كرْمًـ ـا واختفيا فيه حتى ظل الظلام.. فقاما عند ذلك يأكلان من أثمار الكرْم حتى شبعا ولم يدر بهما النواطير، فبعد ذلك عنّ للحمار أن ينهق ويطرب صاحبه بصوته.. فقـ ـال له الثور:

– لا تنهق يا أخي لأننا لم ندخل الكرْم حتى نحرسه بل لنخربـ ـه فـ ـإذا نهقـ ـت فيسمعك صاحب الكرم فيأتي إلينا ويهلكنا.. وحيث لكل شيء وقـ ـت فـ ـأرجوك أن تسكت لأنه ليس الآن وقت النهاق.

فأجابه الحمار:

– حقًا إنك أحمق جاهل.. فهل من شيء ألزم وأطرب من الأنغام.. وأمـ ـا أنـ ـت فحيث إنك وحش بري فلا تعرف لذة الطرب لأنك لم ترزق صوتًا مطربًـ ـا مثلـ ـي فعليك أن تسمع.

فأجابه الثور:

– إن هذا الوقت ليس للطرب والأنغام ومع ذلك فأي طرب من صـ ـوتك ومـ ـن المعروف أن أنكر الأصوات صوت الحمار.. فإن نهقت الآن كنت سببًا لهلاكنا كما سبب هلاكه ذلك التاجر الذي رقص بوقت غير معد للرقص.. فسأله الحمار:

وما هي حكايته.؟؟

* * * *

حكاية

قال الثور:

إن حطابًا من مدينة "كردفان" صعد يومًا إلى جبل ليحطب فوصل إلى محل رحب فصادف فيه خمسة رجال جالسين وأمامهم مرجل كبير (وهو الدست) يخرجون منه كل ما تشتهيه أنفسهم من الطعام.. فتقدّم إليهم وجلس معهم فسروا به وقال له أحدهم:

أيها الحطاب إذا كنت تريد منا شيئًا فاطلبه يُعط لك وكان هؤلاء الخمسة من الجن.. فعند ذلك طلب منهم الحطاب المرجل الذي فيه المأكل فأجابوه.. أيها الحطاب لا نضن عليك بهذا المرجل إلا أن حفظه صعب جدًا لأنه سريع العطب، ومتى انكسر فتعدم منه الفائدة، الأوفق أن تطلب شيئًا أكثر نفعًا من ذلك. وأما الحطاب الأحمق فلم يقنع ولم يذعن لكلامهم بل بقي مصرًا على طلب المرجل بلجاجة وقال لهم:

– إنني أحترس على هذا المرجل وأصونه كما أصون نفسي. فعند ذلك اعطوه إياه فأخذه وانصرف عنهم.. وبعد عدة أيام قليلة جمع منه مالاً وافرًا.

فيومًا ما داعا أصحابه إلى وليمة في بيته ووضع بين أيديهم المرجل المحكي عنه فتعجَّبوا منه وأخذتهم الحيرة والاندهاش فتفاقم فرح الحطاب، ووضع المرجل على رأسه وقال:

– يا ولى نعمتي وسبب سعادتي. وأخذ يرقص من شدة الفرح فوقع المرجل عن رأسه وتكسر، وفي الحال ذالت فائدته وفقد الحطاب كل ما كان قد جمعه من المال وعاد على أتعس حال من الفقر والفاقة.

فاعلم الآن أيها الحمار الأحمق أن الرقص في غير أوانه قد جلب البلاء على هذا الحطاب.. فإذا نهقت وهذا الوقت ليس للنهاق فلا غرو أنك تكون سببًا لهلاكنا..

وأما الحمار فلغباوته وجهله لم يذعن للنصيحة بل أخذ ينهق بأعلى صوته حتى سمعه النواطير، فأيقنوا حينئذٍ أن الحمار أتى الكرم فقاموا مسرعين إليه فوجدوه في الكرم مع الثور فقبضوا عليهما وذبحوا الثور وأكلوا لحمه.. وأما الحمار فأخذوه إلى الإسطبل وصاروا يشغلونه بكل قساوة حتى مات من الكد والتعب.

فلما أنهى الببغاء هذه الحكاية قال لقمر السُكر:

إذا تفرغت من العشق في غير أوانه فتكوني قد أخطأت خطأً فاحشًا، وحيث هذا الوقت لا يجوز فيه التفرغ من العشق فهو أنسب وقت للفراغ والمعاشرة فقومي واذهبي إلى حبيبك بكل سرعة لتحظي بوصاله. فعند ذلك فرحت قمر السُكَّر وقامت لساعتها قاصدة حبيبها إلا أنها لما خرجت من الباب رأت أنه قد طلع الصباح فعادت من ثمَّ حزينة وقضت ذلك النهار تتقلب على نار، الهوى ولما ظل الظلام قالت في نفسها:

– لا حاجة لطلب الإذن من الببغاء .. حيث قد أباح لي مرارًا الذهاب إلى حبيبي.. فمرت قبالة قفص الببغاء ولم تلتفت إليه.. فعلم الببغاء فما قصدته وقال:

– إن ما تكبدته من العناء والتعب من مدة طويلة قد ذهب هباء.... ثمَّ نظر إلى قمر السُكَّر وقال لها:

– تعالي إلي يا سيدتي لأن لي نصيحة تنفعك في الدنيا والآخرة.. إذ إن في نصائحنا فوائد مختلفة فكم نال التاجر (عبيدة) من الفوائد الجزيلة لما سمع نصائح الببغاء إذ لذلك حظيَ بأعظم سعادة.

فلما سمعت قمر السُكَّر هذا الكلام رجعت إلى الببغاء وسألته:

– كيف كانت تلك الحكاية.....؟.

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في مدينة "ترمز" تاجر ذو غنىً وافر، وكان له ولد اسمه (عبيدة) فزوجه أبوه ابنة جميلة المنظر فهام (عبيدة) بحب زوجته ولم يعد يفارقها لحظة واحدة؛ فحزن والداه من ذلك وصارا ينصحانه ليرتدع عن غيه فلم يذعن لهما ولم يقلع عن عادته.

وكان لهذا التاجر شريك كان يكاشفه بأسراره ويستشيره في غالب الأوقات... فيومًا ما ذهب إليه وأخبره بما كان من أمر ابنه (عبيدة) واستشارة في هذا الأمر وسأله أن يذهب إلى ولده وينصحه ويوبخه لعله يرتدع عن غيه.. فأجابه شريكه:

– يا أخي إن الذي لا يذعن لنصائح أبويه لا يذعن لنصيحتي.. غير أن عندي زوجًا من الببغاء ذكرًا وأنثى وهما على غاية من الحكمة، ونصيحتهما تنعش الفوائد، وكلاهمهما يؤثر في القلوب أكثر من كلام الناس فأريد أن أرسلهما إلى (عبيدة) فلعله يرتدع من نصائحهما ويترك هوى نفسه.

قال هذا وقام لساعته، وأتى على بيته وأخبر هذين الطيرين بما كان من أمر (عبيدة) وكيف أنه ترك والديه وتعلق بزوجته ليلاً ونهارًا وقال لهما:

– إني أريد أن أرسلكما إليه لعل نصائحكما تنقذه من هذه الورطة الوخيمة.

قال هذا وأرسلهما إلى (عبيدة) على سبيل الهدية.. فلما بلغ إليه فرح فرحًا عظيمًا، ووضعهما في حجرة منامه وعند المساء دعاه الببغاء الذكر وقال له:

– يا (عبيدة) إننا نحن ضيوفك والضيف يجب له الإكرام، فلأي سبب أعرضت عنا ولم تجالسنا حالة كون كلامنا غذاء للأرواح لاشتماله على النصائح المفيدة فاغتنم هذه الفرصة فتجنى من مصاحبتنا أجل الفوائد.

فلما سمع (عبيدة) هذا الكلام تقدّم إلى الببغاء وأخذ يحدثه ثمَّ قال له:

– قلت إن عندك نصائح شتى فتكلم بما عنده فلعلنا نستفيد من نصائحك...

فأجابه الببغاء:

– يا سيدي إننا ننصح كل إنسان بما يناسبه ليطيب له كلامنا.. لأنه قيل لكل مقام مقال، ولذلك ننصح أهل العلم بالكتاب ونخاطب التجار بالأموال والتجارة فـ أخبرني ما هي مهنتك لأنصحك بما يوافق حالتك..

فأجابه (عبيدة):

– إنني أتعاطَى التجارة وقد ورثتها من أبي وأجدادي. فقال له الببغاء:

– عجبًا... أي نوع من التجارة تتعاطى.. فإني قد قضيت يومًا كاملاً وعرفـ ت أطباعك وأطوارك فلم أر شيئًا يدل على أنك تاجر.

فلما سمع (عبيدة) هذا الكلام أقر له بواقع حاله.. وأخبره عن ارتباطـ ه بعشـ ق زوجته فلما سمع الببغاء كلامه قال له:

– حقيقٌ أن معشوقتك هي زوجتك إلا أن هذا ليس من دأب الرجل العاقـ ل لأن جنس النساء عديم الوفاء؛ فليس من المعقول الرغبة فيهن عن الربح والتجارة ولـ ي على هذا الموضوع حكاية تؤيد ما قلته لك عن النساء. فسأله (عبيدة): وما هي هذه الحكاية؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إن أحد سلاطين الهند وُلد له من إحدى جواريه ابنة ذات ثلاثة أنداء. ثديان في موضعهما المألوف وثدي في وسط صدرها.. فاستطلع المنجمون طالعها من الكواكب فعلموا أن ستكون خائنة لا عهد لها ولا أمان، إلا أنها ستصير على جانب عظيم من الحسن والجمال... وأخبروا الملك والدها بذلك.

فلما كبرت هذه الابنة جهزها أبوها بأفخر الجواهر وبمال وافر، وأعلن أنَّ من يريد أن يتزوجها ويأخذ كل ما معها من الأموال والجواهر يجب عليه أن يخرج بها من المملكة لئلا تحدث فيها فتنة ويذهب إلى مملكة سواها، وحيث إن ما وصفها به المنجمون أضحى معلومًا عند الجميع فلم يتقدّم أحد للاقتران بها.. غير أنه كان في تلك المملكة رجل أعمى على غاية من الفقر والفاقة، فلما بلغه خبر هذه الابنة قال في نفسه:

– يجب أن أقترن بهذه الابنة وأرحل عن هذه المملكة مهما لحقني من العناء، لأنني بذلك سأتخلص من الفقر المدقع.. فقام لساعته وأتى إلى الملك وطلب منه ابنته.

فأجاب الملك التماسه وأعطاه الابنة بكل ما كان معها من الأموال والجواهر ورحّله إلى مملكة أخرى.

فأخذها الأعمى وقضى معها أيامًا طويلة، وكانت هي تنفر من مصاحبته حتى أنها عشقت شابًا جميل الصورة، فكان في أغلب الأوقات يحضر إليها ويغازلها في حضرة زوجها وكانا يضحكان عليه ويستهزءان به، ومضت على هذه الحالة أيامًا كثيرة إلا أنهما لم يقنعا بذلك بل قصدا أن يقتلا الأعمى ليتخلصا منه.. فيومًا ما

مسكا من البستاني حية سوداء فقتلاها وقطّعاها ووضعاها في قِدر على النار ثمَّ قالت المرأة لزوجها:

– إنني وضعت القدر على النار وفيها سمك مسلوق فقم وانفخ النار حتى يستوي الطعام... فقام الأعمى وأخذ ينفخ النار وزوجته وعاشقها يضحكان عليه، وأما الأعمى فبعد أن أوقد نارًا عظيمة أراد أن يكشف الطعام ليرى أكان قد نضج فرفع غطاء القدر وحركه برأس العصا فدخل بخار الحية في عينيه وفي الحال فُتحتْ عيناه بحول الله تعالى فنظر في القدر فرأى فيه حية ونظر إلى زوجته فوجدها جالسة مع شاب غريب تغازله وتلاطفه؛ فاتقدت حينئذٍ في قلبه نار الغضب والحمية وضربهما ضربًا شديدًا ثمَّ كتّفهما وسلّمهما إلى البلدة، وأخذ ما كان مع زوجته من الأموال الجزيلة ورجع إلى وطنه تائبًا عن معاشرة النساء، وقضى حياته كلها لا ينظر إلى امرأة لما رآه من خيانة زوجته ومكرها.

فالآن اعلم يا (عبيدة) أن أكثر النساء لا يراعين العهود والذمم، وأنت ابتُليت بعشق زوجتك، ولا تستطيع أن تفارقها لحظة واحدة مع أن ذلك ليس بعلامة خير، فالذي يجب أن تتعلق به هو أبوك وأمك، ولتحافظ على رضاهما؛ فذلك فرض عين على الأولاد ومن خالف رضا والديه لا يستجيب الله دعاه، كما يتأكد ذلك من حكاية صالح، فسأله (عبيدة):

– وكيف كانت حكايته...؟

* * * *

حـ . كـ ايـ ـة

قال الببغاء:

إنه كان في قديم الزمان في مدينة "بلخ" زاهد منقطع إلى الله تعالى، وكان له ولد اسمه صالح وفي الحقيقة أن اسمه كان مطابقًا مُسمَّاه، لأنه كان فاضلاً متورعً ـا لا يتهامل قط في عبادة الله تعالى، فتوفي أبوه وتركه يتيمًا في حجر والدته.

فيومًا ما بينما كان يتضرع إلى الله خطر بباله ما قيل: "العلم بلا عمل كالشـ جرة بلا ثمر".

فقال في نفسه:

– إنني عابد متورع.. غير أن العلم بلا عمل لا فائدة منه فالواجب عليَّ إذن أن أسعى في طلب العلم.. فصمم على هذا واستأذن والدته فلم تأذنه فقال في نفسه:

– إن ما نويته هو خير.. فإن خالفت والدتي فما عليَّ من حرج. فيومًا ما خرج من بيته بدون إذن والدته، وسافر إلى مدينة فيها كثير من العلماء وفيما هو سـ ائر في الطريق أفضى إلى شجرة عظيمة فجلس تحتها ليرتاح، فأتى طير ووقف علـ ى أحد أغصانها وسلح على صالح؛ فغضب هذا غضبًا شديدًا ونظر بحُمق إلى الطيـ ر فوقع من الشجرة ميتًا.. وعند ذلك سكن غضبه، ثمَّ قام بعد ذلك وسار مسافرًا حتى آلت الشمس إلى الغروب، فوصل إلى بيت على الطريق، فقرع الباب فأتـ ت إليـ ه امرأة وأدخلته بكل ترحاب وقالت له:

– إذا كنت جائعًا فأمهل قليلاً حتى أحضر لك سمكًا مشويًا. وانصرفت عنه.. غير أن صالحًا حيث كان جائعًا تذمَّر من تأخُّر المرأة فعادت بعد برهة وأحضرت سمكًا مشـ ويًا فاغتاظ صالح من تأخرها، ونظر إليها مغضبًا. فغضبت المرأة وقالت له:

– أتظن أنك تقدر أن تقتلني بنظرك كما قتلت ذاك الطائر على الشجرة.. وهـ ل توهمت أن النظر يؤثر في الإنسان كما يؤثر في الطير؟

فلما سمع صالح جوابها المملوء بالإهانة انطرح على أقدامها واعتذر لها عما فرط منه، وسألها من أين لها هذه الإهابة والوقار...؟

فأجابته المرأة:

– إن الذي أولاني هذه الإهابة هو رضا والدتي لأنه قيل: الجنة بالخضوع للأمهات وحيث إنني كنت طائعة لأمي أنعم الله عليَّ بهذه الإهابة.

وأنت لو أذعنت لنصيحة أمك لما كنت سافرت لاكتساب العلوم لأن رضاها خير لك من العلم.

فلما سمع صالح كلام المرأة ترك الأكل وسار لساعته راجعًا إلى مدينة "بلخ" وأجهد نفسه في المسير حتى وصل إلى بيته، فاستغفر والدته عما بدا منه وقضى حياته محافظًا على رضاها فوفقه الله، ونجح مسعاه وتعلم العلوم فأبدع حتى اشتهر علمه وصلاحه في سائر الأقطار، وكانت العلماء تقصده من أماكن بعيدة ليستمدوا دعاه ويستنيروا من ضوء مشكاته.

فلما سمع (عبيدة) هذه الحكاية تحركت في قلبه شعائر المحبة لوالديه وأثرت فيه هذه الحكاية وقال للببغاء:

– سأكون من الآن فصاعدًا طائعًا لوالدي.. إلا أنه يصعب عليَّ جدًا أن أترك زوجتي.

فأجابه الببغاء:

– لم أقل لك أن تترك زوجتك لأن كل إنسان يميل إلى زوجته، غير أن النساء يندر فيهن الوفاء فلا يجب التعلق بهن كثيرًا، وأعظم دليل على ذلك نصيحة الخروف لملك الهند.

فسأله (عبيدة):

– وكيف كانت حكايتهما.....؟

* * * *

حـ . كـ ايـ ـة

قال الببغاء:

زعموا أن أحد ملوك الهند خرج يومًا ما للصيد فوصل إلى برية فرأى فيها حية تلاعب أفعوانًا من غير جنسها، وكانت قد غلبت عليهما الشهوة النفسـ انية، فكانـ ت تلتف على الأفعوان كأنها تطلب منه أن ينزق عليها.

فلما رأى الملك هذا الأمر المنكر تحرك غضبه، وفي الحال استل سيفه ووثـ ب على الحية فهربت منه، وانسابت في وكرها إلا أنه أدركها بضربة أصابت ذنبهـ ا، وقطعت منه جانبًا، وبعد مدة نظرها زوجها مجروحة فسألها عن سبب ذلك فأجابته:

– إن ملك المدينة خرج إلى الصيد، ولما نظرني وما أنا عليه من البهاء والجمال تحركت في قلبه الشهوة النفسانية وانتدبني إلى المضاجعة؛ فأبيت؛ فغضـ ب علـ يَّ وضربني بسيفه فجرحني كما ترى.

فلما سمع زوجها كلامها غضب على الملك، وقام لساعته قاصدًا قصره؛ فدخلـ ه ولم يزل ينساب من مكان إلى آخر حتى وصل إلى حجرة الملك المعـ دة للرقـ اد، وكان فيها وعاء مملوء من الورد والرياحين فاختبأ الأفعـ وان فيـ ه، ولكـ ن كـ ان بالقضاء والقدر أنه لما أتى الملك لينام تبعته زوجته لترقـ د معـ ه فـ أبى وأمرهـ ا بالانصراف فصارت تبكي وتعاتبه وانطرحت على أقدامه وسألته:

– ما هو سبب ذلك.......؟.

فأجابها:

– إنني في هذا النهار لما خرجت للصيد نظرت حية في قرية تلاعب أفعوانًا من غير جنسها، وقد تحركت فيها الشهوة لأنني رأيتها تلتف عليه كأنها تطلب منـ ه أن يباغيها، فلما نظرتها على هذه الحالة غضبتُ عليها واستليت سيفي وضربتها به فلم

يصب سوى ذنبها؛ فقطع منه جزءًا، إلا أنها لم تمت فلذلك عزمت من الآن فصاعدًا أن أجتنب معاشرة النساء.

فلما سمعت زوجته هذا الكلام حزنت جدًا وانصرفت عنه.. وأما الأفعوان فكان سامعًا ما قاله الملك وتيقن حنيئذ براءته فظهر بين يديه، وأخبره بما أخبرته به زوجته، وكيف أنه جاء ليقتله ثمَّ تأكدت براءته وخيانة زوجته واعتذر له عما بدر منه وسأل أن يطلب منه ما يريد فيعطِي له.

فأجابه الملك:

- إن غاية مرادي أن تعلمني واسطةً أعرف بها ألسنة الطيور والحيوانات، وبذلك توليني أكبر جميل، فأجابه الأفعوان:

- إن ما تطلبه ليس من صعاب الأمور، وله طريقة سهلة تتعلم بها لغة الطيور والحيوانات، ولكن يجب عليك أن تكتم هذا الأمر خصوصًا عن النساء، لأنك إذا أخبرتهن بذلك فحتمًا تموت، وبعد أن حرَّصه كثيرًا بحفظ هذا السر عليه علَّمه طريقة سهلة لمعرفة لغات الحيوانات والطيور، ثمَّ ودَّعه وانصرف عنه، وبالحقيقة نجحت هذه الطريقة نجاحًا تامًا.

ولما قرُب الصباح أتت زوجة الملك إليه وبيدها كأس من العطر وماء الورد؛ فغسلت به قدمَي الملك ومسحتها بوجهها وكان في تلك الحجرة قفص وفيه قمريان ذكر وأنثى.

فقالت الأنثى لزوجها:

لو كان عندي عطر وماء الورد لكنت أغسل بهما قدميك وأمسحهما بوجهي كما فعلت الملكة مع زوجها.

فلما سمع الملك كلامها ضحك ضحكًا شديدًا؛ فظنت زوجته أنه يضحك عليها؛ فأخذت تعاتبه.. فقال لها بأنه لم يضحك عليها بل لسبب آخر.

فقالت له:

– يجب أن تقول لي ما هو السبب.. فإن فعلت فبها ونعمت، وإلا فأُهلك نفسي في هذه الساعة، لأنك ليلة أمس طردتني من خبائك والآن أخذت تضحك عليَّ.

قالت هذا وأخذت تبكي وتلطم وجهها حتى كادت تموت.

فلما نظر الملك قِلة عقلها تيقَّن أنها ستموت فأخذ يلاطفها ويقول لها:

– إنني لم أضحك عليك بل خطر ببالي أسرار غامضة أضحكتني ولا أستطيع أن أخبرك بها لأنني إذا فعلت مت لا محالة.. وأما المرأة فلم تقنع بهذا الكلام، بل بقيت تلحُّ عليه بلجاجة ليطلعها على هذه الأسرار فقال لها:

– حيث لم ترتضِ بكلامي وتريدين هلاكي؛ فقومي لنذهب لمحلٍ خالٍ وهناك أوضِّح لك هذه الأسرار وأموت حسب إرادتك.

قال هذا وأخذها إلى البستان المعد لنزهته، وكان فيه بئر لا ماء فيها، فوجد بجانبها خروفًا وشاةً فنظرت الشاة في البئر فرأت فيها حشيشًا أخضر تمنت أن تأكله فقالت لزوجها الخروف:

– قد رأيت في البئر حشيشًا أخضر فأرجو منك أن تأتيني به وإلا فأموت لا محالة، فتقدّم الخروف إلى البئر فوجدها عميقة جدًا، ووجد أنه إذا انحدر إليها لا يستطيع أن يخرج منها فقال لزوجته:

– هل تظنين يا هذه أنني مثل السلطان الذي يريد أن يهلك نفسه إكرامًا لزوجته، فأنا لا أستطيع ذلك.. فإن شئت أن تموتي فافعلي ما تريدين.

فلما سمع الملك كلام الخروف عدل عن قصده ورجع إلى الوراء؛ فانطرحت زوجته على أقدامه وأخذت تلتمس منه أن يطلعها على أسراره؛ فدفعها عنه ولم يلتفت إليها، ورجع إلى حجرته ولم تعد زوجته تسأل عن شيء.

فعند ذلك نظر الببغاء إلى (عبيدة) وقال له... إنني لم أقل لك قبلاً أن تترك زوجتك، بل قلت لك لا يليق بك أن تتعلق بها يومًا ما وتترك والديك فناشدتك الله

ارتدع عن هذه العادة وحافظ على رضاء والديك. فأثر هذا الكلام بـ . . (عبيدة) وارتدع عن غيه، وصار في النهار يتعاطى التجارة وفي الليل يواصل زوجته.

فلما وصل الببغاء العاقل إلى هذا المقام نظر إلى قمر السُكَّر وقال لها:

احفظي يا سيدتي هذه النصائح وإن نبذتها فتكوني من الخاسرين، واجعلي لكل وقت عملاً يناسبه، لأن ذلك أشد نفعًا لمعشوقك وينقذك من غضب زوجك وأما الآن فلا تلبثي هنا بل اذهبي إلى محبوبك عاجلاً.

فقامت لساعتها مسرعة نحو الباب فرأت أنه قد طلع الصباح؛ فحال بينها وبين مرامها؛ فرجعت حزينة تنظر وفود المساء.. فلما ادلهمَّ الظلام أتت قفص الببغاء وقالت له:

– اسمح لي أيها الببغاء أن أذهب إلى حبيبي لأنك ليلة أمس قد أطلت الكلام الذي فيه حرَّضتني أن أذهب إلى الأمير لئلا أخسره وأخسر زوجي أيضًا، إلا أنني لا أسلِّم بكلامك لأنه لا يمكنني أن أفقد وصال كل منهما، إذ قد تقدَّمني كثير من العشاق ونالوا بغيتهم.

فأجابها الببغاء:

– يا سيدتي إذا اقتديت بغيرك من العشاق فلا شك في أنه يصيبك ما أصاب ذاك الحلاق الذي تقلد التاجر، فسألته قمر السُكَّر.

وما هي هذه الحكاية...؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إن رجلاً غنيًا من مدينة "أرضوم" أخذ يومًا ما يفكر في نفسه قائلاً:

إنني قد اقتنيت مالاً وفيرًا وقضيت ما مضى من عمري بالصفاء والانشراح، وقد دنا أجلي ولم أفكر بالآخرة، فيجب الآن أن أدراك ما فاتني وأوزع مالي على الفقراء والمساكين فيجزل الله ثوابي في الآخرة ويدخلني رياض جنته السماوية.

قال هذا وقام لساعته فوزع جميع ماله على المساكين، وفي تلك الليلة ظهر له في الحلم شيخ يضيء وجهه كالشمس وقال له:

– أنا قوة بختك فحيث قد تصدقت بمالك على الفقراء لوجه الله الكريم فقد رضي الله عنك، لأنه قيل من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها. وعليه فقد أعدَّ الله لك في الآخرة مقامًا عليًا ويسَّر لك في هذه الدنيا أوفر الخيرات وسخرني لك، ونهار غدٍ أظهر لك بصورة برهمي؛ فخُذ بيدك عصًا واضربني بها حالاً على رأسي فأموت، فعند ذلك خُذ جثتي وضعها في أجمل مكان، ومتى لزمك شيء من المال فاقطع منها قدر ما تشاء فيستحيل ما تقطعه ذهبًا خالصًا، غير أنه يجب عليك أن تحفظ هذا السر في طَي الخفايا. قال هذا وتوارَى عنه.

وفي اليوم التالي ذهب هذا التاجر إلى دكان حلاق ليحلق شعر لحيته فظهر له إذ ذاك الشيخ الذي نظره في الحلم بصورة برهمي، فوثب عليه التاجر وضربه بالعصا على رأسه فوقع على الأرض ميتًا، وأما الحلاق فأخذه التعجُّب من هذا الأمر، فعند ذلك أخذ التاجر سكينًا وقطع من جسد البرهمي قطعًا كثيرة وأعطاها إلى الحلاق، فلما تفرس فيها وجدها ذهبًا، فازداد حينئذٍ تعجبه، وأما التاجر فوضع الجثة في كيس، وأوصى الحلاق أن يكتم هذا الأمر، وأخذ الكيس وأتى به إلى بيته.

وأما الحلاق فلشدة غباوته ظن بأن كلما قتل برهمي تصير جثته ذهبًا، فلذلك أقام يومًا ما في بيته وليمة ودعا إليها أصحابه ومن جملتهم رجل من البراهمة، فلما وفد البرهمي إلى محل الوليمة وثب عليه الحلاق، وأخذ بيده عصًا وضربه بها على رأسه فوقع على الأرض ميتًا.

فلما رأى الحاضرون ذلك غضبوا على الحلاق فقبضوا عليه وربطوه وسلموه إلى الحاكم... فلما مثُل الحلاق بين يديه سأله عن سبب ارتكابه هذا الاثم الفظيع، فأخبره الحلاق بما فعله التاجر المتقدِّم ذكره، وأنه أراد أن يقتدي به فعند ذلك استحضر الحاكم التاجر، وسأله عما قرره الحلاق.. فلما رأى التاجر بأن سرَّه قد شاع اعتصم بالحيلة وقال للحاكم:

– يا مولاي هل من عاقل مميز يصدق هذا الكلام..!؟ لأنه هل يتصور أن جسد الإنسان يصير ذهبًا بواسطة الضرب...! وقد كنت أعهد هذا الحلاق عاقلاً غير أنه ربما يكون قد طرأ عليه جنون، فيجب أن تسرعوا لمداواته وترسلوه على البيمارستان ويستعمل المشروبات المهضمة ووسائط الحقن فلعله يشفَى من الجنون.

فلما سمع الحاكم وسائر الحاضرين كلام التاجر وقع لديهم موقع الاستحسان، وفي الحال أرسلوا الحلاق إلى البيمارستان فأودعوه مع المجانين، وصاروا يعالجونه بالضرب والحقن زمانًا طويلاً.. فلما أنهى الببغاء حكايته قال لقمر السُكر:

– قد قصصت عليك هذه الحكاية لتعلمي أن كل من يقلد غيره لا يصادف نجاحًا لاسيما إذا كان عاشقًا، لأن اقتداء العاشق بغيره هو عين الحماقة. فتأثرت قمر السُكَّر من هذا الكلام وأطرقت برهة ثمَّ قالت:

– أيها الببغاء.. قد حلمت حلمًا غريبًا فأرجو تعبيره، فقال لها الببغاء:

– قُصِّي عليَّ هذا الحلم.

فأجابته قمر السُكَّر:

- إنني رأيت في الحلم جماعة من العارفين قد أعطوني تفاحة وقنينة من ماء الورد، فتعطر دماغي من رائحتها الزكية، وفي الحال استيقظت من نومي فهل ذلك علامة خير أم لا....؟

فأجابها الببغاء:

- يا سيدتي إن هذا الحلم خير، وهذا تعبيره.. فالتفاحة هي كناية عن زوجك ساعد، ورائحتها هي غذاء نفسك، وماء الورد كناية عن الأمير الذي سوف يتعطر قلبك من رائحة وصاله، وعن قريب تحظين بوصال الفريقين وسوف يظهر صدق قولي هذا، وكما وصل ملك الصين إلى زوجته ونال وصال ابنة "ملك العقر" فأنت أيضًا تصلين إلى زوجك وتنالين وصال الأمير حبيبك.

فسألته قمر السُكَّر:

وما هي هذه الحكاية...؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إن أحد ملوك الصين خرج يومًا ما على الصيد فاصطاد حيوانًا غريبًا على غاية اللطف والجمال فقال لمن كان معه: – هل يوجد في الدنيا ابنة جميلة مثل هذا الحيوان...؟!

فأخذ كل من الحاضرين يصف له ابنةً ويطنب في مدحها، وكان من جملة الحاضرين وزير طاعن في السن على جانب عظيم من الحكمة والدراية.

فلما سمع كلام الملك نظر إليه وقال له:

– يا سيدي إن الذي طلبته كالكبريت الأحمر لأنه وإن يكن في الدنيا كثير من البنات الجميلات إلا أنه لا يوجد ابنة كاملة الأوصاف، فأنا قد سِحت في الأرض كثيرًا ولم أجد ابنة على هذا المنوال.. إلا أنه يوجد مدينة اسمها "العقر" بناتها على غاية من البهاء، ولملكها ابنة تفوق سائر البنات بالحسن واللطافة والحكمة والدراية.

قال هذا وأخذ يُطنب في مدح هذه الابنة، حتى عشقها الملك وهام بحبها، وصار عشقه يزداد يومًا بعد يومًا.. ففي ذات مرة قال لوزيره:

– يا أيها الوزير.. حيث قد كنت سببًا لمرضي هذا فيجب أن تداويه.

فأجابه الوزير:

– إنني طائع أمرك.. وأسعى لمداواتك بما أستطيع، غير أنني عليل عاجز فغاية ما يمكنني أن أفعله هو أن أهديك إلى تلك المدينة، وأوصلك إليها فلعل الله يؤتيك بالتوفيق ويبلغك مرادك.. وحيث لا يمكنني أن أذهب معك إلى مدينة العقر فإني أرافقك بحرًا إلى أريافها، فتذهب أنت إلى المدينة المشار إليها وأنا أنتظرك في الأرياف وأدعو لك بالتوفيق.

فلما سمع الملك كلام الوزير فرح فرحًا عظيمًا، وفي الحال أقام أحد وزرائه وكيلاً عنه وتنكر بثوب السياح وسافر مع وزيره المشار إليه.

ولما وصلا إلى ساحل البحر ركبا سفينة وسافرا في البحر، وبعد أيام طويلة وصلا إلى ساحل عظيم وخرج حينئذٍ إلى البر ودخلا مدينة عظيمة.. فعند ذلك قال الوزير للملك:

– يا سيدي هذه حدود مدينة العقر وهنا محل لراحتي إذ ليس في وسعي أن أتجاوز هذه الحدود لعجزي فاذهب وحدك في هذا الطريق وسر ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع تصل إلى عين ماء بجانب بستان عظيم، وهناك ترى عجائب وغرائب فعسى الله تعالى أن يمنَّ عليك بنوال المرغوب، ومتى رجعت إلى هنا تجدني بانتظارك.

فعند ذلك قام الملك مسافرًا، وفي اليوم الرابع وصل إلى عين ماء بجانب بستان عظيم فبعد أن شرب قليلاً وجلس ليستريح نظر بغتة رجلين فجلسا بجانب العين وأخذا يتخاصمان، فدنا الملك منهما وسألهما عن سبب الخصام... فأجاباه:

– إن نزاعنا على أربعة أشياء اختلفنا في قسمتها، أولها كيسٌ ومن خصائصه أنه متى احتجنا الفضة والذهب نجد فيه مرادنا ولا ينقص منه شيء، والثاني صحن من الخشب نجد فيه كل ما نشتهيه من الطعام والشراب، والثالث حذاء ومن خصائصه أن كل من لبسه يصل إلى المحل الذي يريده بطرفة عين، والرابع سيف إذا استله أحد في برية قبل طلوع الشمس تظهر أمامه مدينة عظيمة فيها من سائر أصناف المخازن والأسواق ومتى أُرجع هذا السيف إلى غمده يغيب كل ما يكون قد ظهر بالعيان، فلنفاسة هذه الأشياء المصنوعة من الطلسم لم نتفق على قسمتها، فلذلك صرنا نطلب قسَّامًا يُقسِّمها بيننا، وحيث قد التقينا بك فنحن راضيان بما تحكم به.

قالا هذا ووضعا الأربعة أشياء بين يدَي الملك.. فأجابهما الملك:

– أعطياني حجرين فأطرحهما بعيدًا، وأي منكما سبق الآخر وأتاني بهما فيستحق الأربعة أشياء الواقع عليها الخصام. فارتضى المتخاصمان بذلك وذهبا ليحضرا الحجرين فعند ذلك.

قال الملك في نفسه:

– ليس من وسيلة أنسب من هذه لنوال مأربي، وفي الحال تأبَّط السيف المار ذكره وأخذ الكيس والصحن بيده ولبس الخف بقدميه، وبعد ذلك اشتهى أن يصل إلى قصر ملك العقر، فلم يكن إلا كلمح البصر حتى رأى ذاته بجانب القصر، وأخذ ينظر يمنةً وشمالاً محاولاً الدخول إليه فوقع نظره بغتة على رجل، فأخذ يتفرس فيه فإذا هو ابن وزيره الذي أقامه وكيلاً عنه في المملكة، وأما ما كان من أمر هذا الغلام فإنه كان سامعًا كل ما قاله ذلك الوزير المسن عن ابنة سلطان العقر فابتُلِيَ بعشقها، وحيث كان ساحرًا ماهرًا توصل بواسطة سحره إلى قصر مدينة العقر، وأما ذاك الوزير الحكيم الذي أهدى الملك إلى هذه الابنة فكان يتضرع إلى الله تعالى ليدرك بسيده إلى غاية الوطر، فقبل الله تضرعه وأوقع في قلب الابنة حب الملك المشار إليه وكانت تلتمس من أبيها أن يزوجها له وتقول له:

– لا أريد سواه.. لأنني نظرته في الحلم فأعجبني جدًا.

فلما رأى ملك الصين ابن وزيره دعاه إليه وسأله عن سبب مجيئه، فأخذ يخبره كيف أنه عشق ابنة ملك العقر لما سمع الوزير المسن يصفها بالجمال وكرم الأخلاق وكيف أنه حضر إلى قصرها بواسطة سحره، وأنه علم بأنها لا تتزوج إلا بملك الصين لأنها رأته في الحلم فأعجبها، ففرح الملك فرحًا عظيمًا وشكر الله على هذه المنة.

هذا وكان وزراء ملك العقر قد سمعوا بأوصاف ملك الصين ومزاياه الحميدة، وكان المنجمون قد سبقوا وبشروا بقدومه إلى مدينة العقر.. فلما بلغ الوزراء خبر وصوله أخبروا ملكهم بذلك، فاستعد لاستقباله بالإكرام والاحتفال وأجلسه على

سريره وبعد أداء مراسم السلام أخذ كل منها يخبر الآخر بمقصوده، فعند ذلك أمر ملك العقر بأن تجهز ابنته بالجواهر والحلي الثمينة، وأن تزف إلى ملك الصين، ففعلوا وعقدوا الزواج وبعد أيام قليلة استأذن ملك الصين حماه بالرجوع إلى مملكته، فأذنه وسلمه ابنته فأخذها وحملها على ذراعيه، ولبس الحذاء الذي كان معه وقصد أن يصل إلى الصين المار ذكرها، فلم يكن إلا كلمح البصر حتى وصل إليها.

وأما ما كان من أمر ابن الوزير الساحر فإنه بدعاء الوزير الحكيم لم يعد لسحره قوة، وحيث قد عزم على الرجوع إلى بلاده دخل بواسطة سحره في صورة ذبابة وحطَّ على كتف الملك بدون أن يشعر الملك به، فتيسر له بهذه الوسيلة أن يتمتع بمشاهدة جمال الابنة، وأن يصل على العين المار ذكرها بدون عناء وتعب، فجلس الملك بجانب العين ليستريح فنظر الأخوين اللذين أخذ منهما الأمتعة فصار يعتذر لهما عمَّا بدا منه وقال لهما:

- العذر يا صاحبي لأنني لم أفعل ذلك طمعًا بالأمتعة بل حيث كان لي غاية مهمة أروم نوالها، فأجاباه:

- إننا كنا نعلم أن لك مقصدًا تروم الوصول إليه، ولذلك تركناك أن تذهب بالأمتعة لتنال مأربك، فنهنئك الآن ما نلته، وأما الأمتعة فهي هبة لك نرجو قبولها ونسأل الله أن يسهل أمورك، ثمَّ إننا نعلمك الآن وسيلة يمكن بها أن تدخل من صورة وتدخل صورة أخرى. فعلماه حينئذٍ اسمًا مقدسًا وحفظه وتعلمه أيضًا ابن الوزير الذي كان في الصورة كالذبابة.. وبعد ذلك ودَّعا الملك وانصرفا عنه، فسافر الملك ولم يدر بما كان من أمر ابن الوزير وبقي مسافرًا ثلاثة أيام كاملة.. وفي اليوم الرابع بلغ المكان الذي ترك فيه وزيره الحكيم فوجده بانتظاره، فهنأ الوزير بنوال مرغوبة وسار نحو بلاد الصين.. ولما وصل إليها دخل الملك بلاطه وأدخل زوجته دار الحريم وأمر الجميع بإكرامها.. وكان ابن الوزير ملازمًا الملك بصورة ذبابة.

فيومًا ما خرج الملك إلى الصيد فنظر وَعْلاً، فتبعه ولم يزل راكضًا وراءه حتى توارى عن جماعته.. فأدرك الوعل ونزل عن ظهر جواده وذبحه، وعند ذلك تذكر الاسم الذي تعلمه من الأخوين المار ذكرهما.. فأراد أن يمتحنه وفي الحال تلفظ به فتغيرت صورته، ودخلت روحه في جسد الوعل... فلما رأى ابن الوزير جسد الملك فارغًا دخل فيه بواسطة سحره وأتى حاشيته الذين كانوا بانتظاره ورجع معهم إلى البلاط الملوكي.. فاستقبله الحرم بالإكرام لأنها كانت تظنه الملك.. وأما ابنة سلطان العقر فلما رأت حركاته وأطواره علمت أنه ليس هو الملك، وخال بفكرها أن زوجها خرج من صورته بواسطة الاسم الذي تعلمه فدخل في هذا الرجل... فعند ذلك تمارضت ورقدت في فراشها.. فلما رآها ابن الوزير على هذه الحالة قال في نفسه:

- فلندع هذه المرأة لأنها في قبضة يدنا في كل وقت ولنذهب إلى خلافها. قال هذا وذهب إلى زوجة الملك الأولى فاستقبله بالإكرام، إلا أنها لما سمعت كلامه اشتبهت به وتمارضت لتمنعه من نوال وصولها.

وأما ما كان من أمر الملك فإنه بعد أن قضى أيامًا في صورة الوعل رأى يومًا ببغاء ميتة فقال في نفسه.. إن لبثت في صورة الوعل فلا أزال على هذه الحالة طائفًا في البراري، وأما إذا دخلت في جسد الببغاء فيمكنني أن أتخلص من هذه الحالة.

قال هذا ودخل في جسد الببغاء وطار نحو مدينته فوصل إلى بلاطه، ودخل حجرة زوجته ووقف في طاقة صغيرة فنظر زوجته طريحة الفراش وابن الوزير جالسًا بجانبها يطيب وصالها فقال في نفسه:

- كيف كان الأمر فلنصبر إلى النهاية لنرى ما يكون.

وأما ابن الوزير فلما لم ينل وصال محبوبته خرج من عندها وتركها وحدها.. فعند ذلك دعا الملك زوجته وأخبرها بما كان من أمره فقالت له:

- وما الحيلة يا سيدي.. للتخلص من هذا الخائن.

فأجابها:

- انظري حيلة لتنزعي روح هذا الملعون من جسدي لتعود روحي إليّ.

قال هذا وانصرف عنها.. واختفى في بساتين القصر.

وفي اليوم الثاني أتى إليها ابن الوزير المشار إليه وطلب منها الوصال.

فأجابته:

- إنني أحرمتك من وصالي لأنني مرتابة، ولهذا وقعت في حالة المرض، ووجه ارتيابي هو لأن الناس تتشابه كثيرًا، فخال بفكري أن زوجي قد توفى ولم يدر به أحد من أركان الدولة والأعداء فدخلت في صورته وتملكت مُلكه فلا تزول الشبهة من قلبي سوى بالتجربة.

فأجابها ابن الوزير:

- وبأية واسطة تزول الشبهة من قلبك..؟ فأجابته:

إن زوجي حينما كان آتيًا من مدينة العقر صادف شابين فتعلم منهما اسمًا كريمًا؛ متى تلفظ به ينتقل من صورته إلى الصورة التي يريدها، فإذا قدرت على ذلك فتكون أنت هو.

فأجابها ابن الوزير:

- سمعًا وطاعة.

وبعد ذلك خرج من الدار فوجد حمارًا أعرجَ فقتله، وأدخل روحه في جسده، ولم يكن بعد ذلك إلا كلمح البصر حتى لفظ الملك الاسم الكريم فخرجت روحه من جثة الببغاء ودخلت في جسده فعاد إلى سرير مملكته، ونال من زوجته ما كان يتوق إليه ابن الوزير.. وأمر بأن يسلم الحمار إلى الحمالين فجعلوا يحملونه ويعذبونه أشد العذاب حتى مات. فالآن يا قمر السُكَّر قد قصصت عليك هذه الحكاية كي تقتبسي

منها الفوائد لأن من استفاد من الأمثال ينال مرغوبه، فأنت عن قريب تنالين وصال حبيبك وزوجك.... وأما الآن فمن كون زوجك غائبًا فاذهبي إلـ ى حبيبـ ك لتت الي وصال حبيبك.

فعند ذلك قامت قمر السُّكَّر قاصدة حبيبها، فرأت أنه قد أصبح الصباح، فرجعت خائبة إذ لم تنل مرادها وأوقفته إلى الليلة التالية، وقضت ذاك النهار حزينة باكية.

ولما أتى المساء أتت الببغاء وقالت له:

– قد استفدت أمس من نصيحتك بأنه لا يجب على الإنسـ ان أن يكتفـ ي ببغيـ ة واحدة لاسيما إذا كان ذا همَّة عالية مثل ملك الصين، وعليه فإذا قنعـ ت بوصـ ال زوجي فيكون ذلك دناءة مني، وإذا اكتفيت بوصال معشوقي الأمير ر ف ذلك عـ ين الحماقة، فيجب من ثمَّ أن أسعى في نوال وصال كليهما.. غير أنني إذا ذهبت إلـ ى الأمير فأخاف أن يطَّلع زوجي على سريرتي.. وإن لم أذهب إليه وانتظرت رجوع زوجي فأكون قد خسرت وصال الأمير.

فأجابها الببغاء:

– إن ما تطلبينه ناتج عن الطمع لا عن الهمة، فإن من حصل على نعمة يجـ ب أن يتنعم بها وحيث قد قيل: النقد خير من النسيئة فيجـ ب عليـ ك أن تكتفـ ي الآن بوصال الأمير وتذهبي إليه وتنتظري رجوع زوجك لتحظى بوصاله، ومن حصـ ل على نعمة لم يكتف بها فتكون عاقبته الخسارة.. كما جرى للأربعة سُياح الذين لـ م يكتفوا بما حصلوا عليه.

فسألته قمر السُّكَّر:

وكيف كانت هذه الحكاية...؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في قديم الزمان في مدينة "بلنج" أربعة أصحاب على غاية الحب والوفاق وكانوا ملازمين بعضهم بعضًا في الشدة والرخاء.. إلا أن سعدهم كان ينحط يومًا بعد يوم حتى أصبحوا في حضن الفقر والفاقة فعزموا من ثمَّ على السياحة، وسافروا إلى ولاية طاغستان التي كان فيها وقتئذٍ فيلسوف برع في العلوم والمعارف، فتقيدوا في خدمته وبعد مدة أخبروه بحالتهم وشكوا إليه ما أصابهم من الفقر والفاقة.

فلما سمع الفيلسوف قصتهم رثا لحالهم وأعطى كُلاًّ منهم خاتمًا وقال لهم:

– ضعوا هذه الخواتم على رؤوسكم فيقع كل خاتم عن رأس صاحبه إلى الأرض، وفي أي محل وقع كل من هذه الخواتم فليحفر صاحبه في ذلك المحل فيجد فيه ما يستحقه من كرم الله، وإذا أراد أحدكم يشرك صاحبه معه فلا مانع... وإذا أردتم أن تتشاركوا كلكم فلا بأس من ذلك.

فأخذوا هذه الخواتم وشكروا الفيلسوف على أنعامه وساروا مسافرين، وبينما كانوا سائرين في الطريق وقع خاتم أحدهم عن رأسه فحفر في المحل الذي فيه فوجد معدنًا نحاسيًا فقال لرفقائه:

– هل تريدون أن تشاركوني في ما لقيته؟

فأجابوه:

– لا لأن كل منا يطلب نصيبه. فتركوه وساروا في طريقهم.. ثمَّ بعد برهة وقع خاتم الثاني.. فحفر في ذلك المعدن فوجد معدنًا من الفضة فطلب من رفقائه أن يشاركاه فامتنعا وتركاه وسارا في سبيلهما، ثمَّ وقع خاتم الثالث عن رأسه فحفر في المحل الذي وقع فيه الخاتم فوجد معدنًا من الذهب فدعا حينئذٍ رفيقه إلى مشاركته

في فأبى وقال له إن الخاتم لم يقع الآن عن رأسي فمتى وقع فلا ريب أنني أجد كنزًا من الأحجار الثمينة.

قال هذا وترك صاحبه وسار في الطريق وبعد أيام وقع خاتمه عن رأسه فحفر في ذلك المحل فوجد معدناً من الحديد، فحينئذٍ هبطت على عقله دهشة أحبطت آماله فندم لعدم مشاركة رفقائه بما وجدوا، فترك معدن الحديد ورجع يفتش على رفيقه الأخير فلم يجده، فازداد حزناً وكدرًا لخيبة أمله، وعاد إلى الفيلسوف الذي أعطاه الخاتم ليخبره بما كان من أمره فوجده قد مات، وكانت وفاته قبل وصوله بيوم واحد فوقع حالة اليأس وعزم على الرجوع إلى المعدن الذي وجده فعاد إلى ذلك المحل، وأخذ يفتش مدة طويلة فلم يجد شيئًا فرجع خائبًا وكان من الخاسرين.

فالآن يا قمر السُّكَّر اكتفي بما حصلت عليه وإذا طمعت بأكثر من ذلك فتخسرين ما في يدك فقومي في هذه الساعة واذهبي إلى حبيبك.

فأجابته قمر السُّكَّر:

– أيها الببغاء.. لقد صدقت فيما نطقت.. إلا أنني لم أزل أستصعب الوصول إلى حبيبي، وهذه الصعوبة حيرت أفكاري.

فأجابها الببغاء:

– إذا كانت المحبة بينك وبين الأمير متبادلة فلا شيء أسهل من نوال الوصال، لأن كُلاًّ منكما يرومه وسوف تنالينه كما نال ذلك الشاب البغدادي وصال معشوقته الابنة الصينية رغمًا عن الموانع التي حالت دون بغيته. فسألته قمر السُّكَّر:

– وما هي هذه الحكاية..؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في مدينة "بغداد" شاب يتعاطى التجارة.. فاقتنى غنىً وافرًا ومالاً لا يُحصى، فيومًا ما نظر جارية صينية جميلة المنظر فابتُلِيَ بحبها، وفي الحال اشتراها بمال وافر وأخذ يصرف ماله عليها بكل تبذير، حتى نفذ كل ما كان يملكه وأصبح أجوع من زواله.. فيومًا ما قالت له زوجته:

– إنك قد صرفت مالك جُذافًا، والآن أصبحت فقيرًا محتاجًا، والفقر المدقع هو الموت الأليم، فأية لذة تُنال من الوصال إذا بقينا على هذه الحالة التعيسة... فأريد الآن أن تبيعني وتتاجر بثمني.. فإن يسَّر الله لك ربما استرجعتني وإلا فأنا راضية بالهلاك إن لم أطق لوعة الهجرة مدة تمكنك من استردادي من الشاري.

فارتضَى زوجها بذلك ... لأن الضرورة ألجأته إليه.. وفي اليوم الثاني أخذها إلى المدينة وباعها إلى تاجر هاشمي كان قد أتى من البصرة إلى بغداد بألف دينار فقبض ثمنها ورجع إلى بيته وقضى ذاك النهار بالبكاء والنحيب، ولما أتى الليل لم ير في حجرته تلك الشمس المنيرة التي كان البيت يضيء بنورها.. ضاق صدره وعيل صبره وعن له أن يرجع على الشاري ليسترد مبيعه منه فقام عند انصراف الليل وأخذ يفتش عن التاجر الهاشمي، فلم يجده فغلب عليه النوم، فنام في الطريق والدنانير في جيبه هذا وكان أحد اللصوص يراقبه، فلما رآه غارقًا في ثُبات النوم دنا منه وسرق الدنانير التي في جيبه وفرَّ هاربًا.. فلما أفاق الشاب البغدادي من نومه تفقد كيس الدنانير فلم يجده.. فأخذ يبكي وينوح إذ لم يعُد في وسعه أن يسترد مبيعه فذهب إلى جبل شامخ، وقام فيه وهو في حالة اليأس والكدر.. وأما ما كان من أمر التاجر الهاشمي فإنه أخذ الجارية وسافر بها إلى مدينة أخرى، غير أنها كانت دائمة متحسرة متأسفة وتقول "لا عطر بعد عروس" فتبدل فرح الهاشمي حزناً

وراحته مهنة وكثيرًا ما طلب وصالها فتمنعت، حتى أنه لم يستطع أن يملي نظره من رؤيتها فصار يسافر بها تارةً برًا وتارةً في البحر محاولاً بذلك تسليمها.. وأما هي فلم تُرِدْ أن تتعزَّى بل كان حزنها يزداد يومًا بعد يوم... ففي آخر الأمر ضجر التاجر من عويلها وحلف لها بأن يردها إلى بائعها متى نظره وإن لم يرد له الثمن.

وأما الشاب البغدادي فقضى كل هذه الأيام يفتش عن محبوبته متنقلاً من جبل على آخر ومن وادٍ إلى وادٍ، حتى وصل إلى أرياف البحر.. فوجد سفينة فيها كثير من الركاب فانحدر إليها ودخل معهم.. وكان بالقضاء والقدر أن التاجر الهاشمي كان في هذه السفينة مع جاريته إلا أنهما لم ينظرا الشاب البغدادي، وهو لم يدر بهما فمضت على هذا الموال بضعة أيام... ففي ذات الليلة دعا الهاشمي جاريته وأمرها أن تعزف له بالطنبور، فأخذت تعزف فصلاً محزنًا يشير على أهوال العشق وفراق الأحباء، حتى أبكت جميع الحاضرين ثمَّ تركت الطنبور وأخذت تنوح، فعلم البغدادي أن محبوبته في السفينة فكتم سِرَّه وصبر ليرى ما يكون من أمرها.. ففي اليوم الثاني خرج الركاب إلى البر لشراء زاد وماء فاغتنم البغدادي هذه الفرصة وأخذ الطنبور فشدَّه وأحكم أوتاره على موَّال كانت الجارية قد تعلمته منه، فلما كان المساء دعا الهاشمي جاريته وأمرها أن تعزف بالطنبور.. فلما ضربته بأصابعها عرفت أن الذي حكم أوتاره هو حبيبها البغدادي ففي الحال رمته من يديها وهتفت صارخة:

– الله أعلم أن حبيبي في هذه السفينة.

فأجابها الهاشمي:

– إن وجدناه في السفينة فأنا أدركك إليه لأنال الثواب من الأخرة.

قال هذا وأخذها يفتشان عليه في السفينة فوجداه فدعاه التاجر إليه وقال له:

– أيها الفتى ها هي جاريتك أردها إليك شرعًا واختيارًا.. إنني لم أر أشد من حبكما ثمَّ اعلم أنني والله لم أمسها قط بيدي، ولم أتمكن من رؤية وجهها، والآن وقد

وهبتك إياها وثمنها أيضًا فذق من لذة وصالها ما كنت أتوق إليه.. وتذكرني ما دمت في قيد الحياة.

فتحير جميع الحاضرين من محبة هذين العاشقين واندهشوا من كرم الهاشمي ومروءته، وبعد ذلك سأل الهاشمي الشاب البغدادي عما جرى له.

فأجابه:

– اعلم يا سيدي أنني كنت من أعظم تجار بغداد، فأنفقت كل ما أملك على هذه الجارية، ولما فرغت يدي بعتها منك إلا أنني لم أطق لوعة فراقها، فذهبت عند انتصاف الليل أفتش عليك لأستردها منك فنمت على الطريق فسُرق الثمن مني بدون أن أشعر بالسارق.

فلما سمع الهاشمي قصته لم يتمالك من البكاء ثمَّ نظر إليه وقال له:

– فلتطب نفسًا لأن لا ولد لي وعندي من المال ما يكفيني ويكفيكما أعوامًا عديدة.

قال هذا وأخذ الجاريجة بيده وسلمها له، ففرح العاشقان فرحًا عظيمًا، وشكراه على كرامته ومروءته وقضيا بضعة أيام في السفينة على أحسن حال وأتم منوال.

فيومًا ما خرج الركاب إلى البر ومن جملتهم الشاب البغدادي، إلا أنه تأخر لقضاء حاجته وكان الركاب قد اجتمعوا في السفينة فسارت بهم ولم تنتظرهم.. فلما رجع إلى شاطيء البحر ولم يجد السفينة أخذ يبكي ويمزق ثيابه حتى أضحى في حالة اليأس.

فلما وصل الهاشمي إلى البصرة قال للجارية:

– قد عاهدتك أن أردك إلى محبوبك، وأن أهبه كل ما أملك، ولكن فقد قضت التقادير بفقد هذا المحب العزيز فاطلبي الآن ما تريدينه.. فيُعطى لك.

فأجابته:

– أسألك يا مولاي أن تبنى لي معبدًا وفي وسطه قبر باسم الشـ ـاب البغـ ـدادي، لأقضي ما بقي من حياتي في هذا المعبد منعكفة على العبادة، ومتى حـ ـان أجلـ ـي أرجوك أن تدفنني في هذا القبر.

فاستجاب التاجر لرجائها.. ووعدها بإتمام مرغوبها.

وأما الشاب البغدادي فبقي على شاطيء البحر ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع مرت من هناك سفينة فرست في ذاك المحل وخرج الركاب إلى البر ليستقوا، فسافر معهم في السفينة وبعد أيام وصل إلى البصرة، فأخذ يسأل عن بيت الهاشمي فاهتدى إليه بعد العناء والتعب، فلما رآه التاجر استقبله بكل ترحاب وأخبره بأن معشوقته عنده، وقصَّ عليه ما كان من أمرها ثمَّ أحضره إليها.. فلما رأته انطرحت على عنقه وأخذ كل منهما يبكي من شدة الفرح ويشكو من ألم البعاد، وأما التاجر الهاشمي فإنه أنجز وعده وبنى لهما مسكنًا عظيمًا وأعطاهما مالاً وافرًا، وما فتيء يواصلهما بالإحسان حتى أتاهما هادم اللذات ومفرق الجماعات.

فلما أنهى الببغاء كلامه نظر إلى قمر السُكَّر وقال لها:

– إذا كانت المحبة متبادلة بينك وبين الأمير مثل محبة هذا الشاب وجاريته فلابد من أن تدركا غايتكما، فقومي في هذه الساعة واذهبي إليه، ومتى حظوت بمقابلتـ ـه احفظي الحكمة والأدب، إذ بدونها لا لذة من وصال المـ ـرأة، وإذا كانـ ـت المـ ـرأة مزدانة بكرم الأخلاق فلا شيء ألذ من حبها، وقد أكدوا أن المرأة إذا كانت حميـ ـدة الأوصاف فتزيد عمر رفيقها والعكس بالعكس.

أجابته قمر السُكَّر:

– ما معنى هذا الكلام.. هل الحياة تقبل الزيادة والنقصان ومـ ـا الـ ـذي أوجـ ـب اختصاص النساء بذلك أي بتطويل الأعمار وتقصيرها..!؟

فأجابها الببغاء:

- إن العمر من حيث كيانه الطبيعي لا يقبل الزيادة والنقصان، ولكن فمعنى الزيادة هنا الصحة والراحة فإذا كان للرجل زوجة جميلة النظر مهذبة الأخلاق فيصرف حياته بأعظم لذة وأتم هناء، وإذا كانت بعكس ذلك فلا يجد في عمره قط راحة، وكفى على ذلك شاهدًا حكاية ذاك الشيخ المُسن.

فسألته قمر السُّكَّر:

وما هي حكايته....؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إن فلاحًا كان يومًا ما يفلح أرضه فنظر بغتة حلقة من حديد معلقًا بها حجر كبير فرفعه بكل عناء، فوجد مخزنًا كبيرًا فدخله فرأى فيه كمية وافرة من الحنطة، وكان حبها كبيرًا بقدر ثمر النخل فأخذه العجب من ذلك وذهب إلى والي البلدة وأخبره بالكيفية فتعجَّب الوالي غاية العجب، وبعث يخبر الملك بذلك وأرسل له نموذجًا من الحنطة.

فلما وصل الكتاب إلى الملك ورأى الحنطة أخذه العجب والانذهال فجمع وزراءه وأركان دولته وأراهم الحنطة.. فتعجَّبوا جميعهم من ذلك غاية العجب فقال لهم الملك:

– هل لا يوجد من يعرف بأي زمن زرع هذا القمح؟

هذا وكان للملك نديم على غاية من الفطنة والدراية فأجابه:

– يا مولاي ما من أحد يعرف ذلك إلا شيخ قد طعن في السن وهو موجود الآن في المدينة الفلانية التابعة هذه المملكة.

فاستصوب الملك وسائر الحاضرين كلامه، وأعطوا أحد الجنود نموذجًا من الحنطة، وأرسلوه إلى الشيخ المار ذكره ليسأله عن ذلك فبينما كان هذا الجُندي سائرًا في الطريق التقاه أحد أصدقائه فسأله:

– إلى أين ذاهب...؟ فأخبره الجُندي بحقيقة أمره.

فقال له صاحبه:

– الحمد لله الذي سرني لقاءك لأنه عرض لي بعض مشاكل أريد حلها من الشيخ الذاهب إليه لأنه على جانب عظيم من الحكمة، فأكلفك أن تسأله عنها بعد أن يجيبك عن سؤال الملك.

فقال له الجُندي:

– سمعًا وطاعة فما هي هذه المسائل...؟

فأجابه صاحبه:

– السؤال الأول هو أن الإنسان طعن في السن يبيض شعر رأسه، ولحيته فلماذا صار اختصاص ذلك بالبياض دون غيره من الألوان؟

السؤال الثاني: هو أن كُلاً من الذكر والأنثى يجد في الحب لذة متساوية، فلأي سبب يكون الرجل أشد وفاءً من المرأة؟

والسؤال الثالث: هو أن الرجل إذا شاخ واشتعل رأسه شيبًا فيزداد هيبة وجمالاً، وبعكس ذلك المرأة فما هو سبب ذلك..؟ فهذه هي المسائل التي أروم أجوبتها.

قال هذا وودَّعه وصار في طريقه.

وأما الجُندي فلم يزل سائرًا حتى وصل إلى المدينة المعينة، وأخذ يسأل عن الشيخ حتى اهتدى إليه فإذا هو نحيف الجسم قد خاطه الشيب فعرض عليه سؤال الملك وأراه الحنطة التي أتى بها.

فأجابه الشيخ:

– يا بني لا أعلم بأي زمن نبت هذا القمح غير أن لي في هذه المدينة التي تراها من هنا أخًا أكبر مني سنًا ومعرفة فاذهب إليه واسأله عن ذلك.

فودَّعه الجُندي وذهب إلى تلك المدينة، واهتدى إلى الشيخ فإذا هو شاب ذو لحية سوداء كأنه أصغر سنًا من أخيه، فتعجَّب من ذلك غاية العجب، وعرض عليه مسألة تلك وأراه القمح.

فأجابه:

– يا بني إنني والله عاجز عن حل هذه المساءلة.. غير أن لي في هذه المدينة القريبة من هنا أخًا أكبر مني سنًا فاذهب إليه واسأله عن ذلك.

فقام الجُندي وذهب إلى هذه المدينة فعثر على الشيخ الثالث فإذا هو شاب جميل الصورة أشد نضارة من أخويه!.

فاندهش من ذلك في نفسه:

– سبحان الله كيف أن ذلك الشيخ قد قال لي إن هذا هو أخوه الأكبر حالة كوني أراه أصغر سنًا من أخويه.. فهذا من أغرب الأمور.

قال هذا وسلم عليه وعرض عليه مساءلة الملك وأراه الحنطة فتفرس الشيخ فيها وقال له:

– يا بني... إن هذا القمح أنبتته الأرض قبل عصرنا هذا بمائة سنة، وقد رزقه الله لطائفة من الناس كانت على جانب عظيم من البر والصلاح فمنحهم الإله المنان مواهب عظيمة جزاءً لأفعالهم الحميدة، ومن حكاية مشتري البيت مع بائعه تعلم درجة صلاحهم. فسأله الجُندي:

– وما هي هذه الحكاية...؟

* * * *

حكاية

قال الشيخ:

في ذلك الزمان باع رجل بيته من آخر فاستلمه المشتري وأخذ يرمه ويصلحه، فوجد في عرضته حبًا كبيرًا مملوءًا ذهبًا ففي الحال أخذه إلى البائع وقال له:

– يا أخي.. إنني قد وجدت في البيت الذي اشتريته منك حبًا مملوءًا ذهبًا فها هو خُذه لأنه ملكك.

فأجابه البائع:

– يا أخي إنني قد بعتك بيتي بكل ما فيه منظورًا كان أم غير منظور، فمن ثمَّ يكون هذا الكنز داخلاً في مشريك ولست أنا الذي دفنته في هذه الأرض حتى أستحقه. وأما المشتري فلم يقنع لذلك بل اشتد بينهما الخصام حتى أفضى بهما إلى رفع دعواهما إلى الملك فقدما له عرضًا وطلبًا منه فصل الخصومة واستحضرهما الملك بين يديه فقصا عليه ما كان من أمرهما، ولم يرتض أحدهما يأخذ الحب ولم يشأ الملك أيضًا أن يأخذه.. ففي آخر الأمر سألهما الملك:

– هل لكما أولاد؟

فأجاب البائع:

– يا مولاي إن لي ولدًا.

وأجاب المشتري:

– إن لي ابنة.

فعند ذلك قال لهما الملك زوِّجا الابنة للغلام، وخُذ أنت أيها الشاري نصف الذهب جهازًا لابنتك والنصف الثاني يأخذه البائع لينفعه في عُرس ابنه.

فارتضيا المدعيان بهذا الحكم.. وفي الحال انتفى الخلاف من بينهما.. وفعلا كما أمرهما الملك.

فمن هذا يظهر يا بُني.. أن هذه القوم كان على جانب عظيم من البر والصلاح، ولهذا السبب منحهم الله أعظم المواهب.

فلما سمع الجُندي جوابه عزم على الرجوع غير أنه تذكر المسائل التي عرضها عليه صديقه الذي صادفه في الطريق، فعرضها على الشيخ وسأله أن يجيبه عنها.

فأجابه هذا الجواب:

– السؤال الأول أن الإنسان متى طعن في السن يستحيل شعره إلى البيـ اض لا إلى غير ذلك من الألوان، لأن الإنسان حينما يكون في نضارة شبوبيته يكون شعره إما أسود وإما أشقر.. فإذا شاخ وبلغ حد الكمال فيبلغ شعره أيضًا حد الكمال، وكل شيء بلغ الكمال قارب النهاية والزوال... وزوال الشعر يكون بانعكاس لونه.. ومن المقرَّر أن عكس الأسود هو الأبيض، ويوجد أيضًا سبب آخر هو أنه كما أن سواد الشعر أو شقرته هو علامة الشبيوبة فكذلك المشيب هو من علامات الشيخوخة لأنه من مكملات الهيبة والجلال إذ هو اللون المحبوب الدال على الطهر والنقاوة.

والجواب عن السؤال الثاني أن الرجل والمرأة يلتذان بالوصال لذة متساوية، ومع ذلك فقد خص الرجل دونها بالوفاء والوداد لأن المرأة متى تزوجت تصبح عرضة للعوارض النفسانية كالرحم والحبل والولادة، وزد على ذلك انشـ غالها فـ ي أمـ ور بيتها.. فهذا كله مما يقلع من فؤادها بعض الشعائر الإنسانية، ولهذا تكـ ون المـ رأة غالبًا عديمة الوفاء وأما الرجل فلم يقسم له الباري تعالى شيئًا من الأعراض المـ ار ذكرها.. ولهذا خصه بالوفاء والوداد لتسوية الاختصاص بين الرجل والمرأة.

والجواب عن السؤال الثالث هو أن الرجل إذا شاخ لا يـ زول حسـ نه بخـ لاف المرأة، لأنه من المقرَّر أن الله تعالى خلق الرجل من التراب وخلق المرأة من جنبه، وحيث إن التراب لا يزول بتقادم الزمان بل يبقى على حاله فكذلك الرجـ ال الـ ذين

فُطروا منه.. أما النساء فقد خلقن من اللحم الذي يتبدل بتقادم الزمان، فهذا هو السبب في بقاء الرجال على حالتهم وتغير أحوال النساء، وإن شئت فأزعن وإلا فعاند. فلما سمع الجُندي كلامه.. قال له:

– لله درك يا مولاي إذ قد حللت هذه المسائل بحكمتك الفائقة، ولكن بقى لي أن أسألك سؤالاً واحدًا هو أنني رأيت أخاك الأصغر ذا لحية بيضاء وقد تجاعد وجهه، حتى توهمت أنه أكبر منك ورأيت أخاك الثاني ذا لحية سوداء كأنه أصغر منه حالة كونه أكبر منه سناً وقد لاح لي أنك أصغر منهما، لأنك أشد منهما نضارة حالة كونك أكبر منهما سناً فما هو سبب ذلك...؟.

فأجابه الشيخ:

– إن أخي الأول قد ابتُلِيَ بالفقر لأنه لم يصادف من الزراعة خصبًا، وزد على ذلك فإن زوجته فظة عنيدة قبيحة المنظر تذيقه من قبح أخلاقها وسوء سريرتها مر المذاق فلهذا السبب تراه قد شاخ قبل أوانه... وأما أخي الثاني الذي ظننته أصغر من الأول فهو شاب بالنسبة إلى أخي الأول وشيخ بالنسبة لي، لأنه وإن يكن موسرًا من خصب أراضيه إلا أن زوجته قبيحة المنظر طاعنة في السن غير منقادة له.. وأما أنا وإن أكن أكبر سناً فإني أحسنهما صورة لأن الله تعالى قسم لي من الزراعة نصيبًا وافرًا ورزقني زوجة جميلة المنظر صغيرة السن مهذبة الأخلاق حميدة المزايا، فلهذا السبب لم تؤثر بي مفاعيل الشيخوخة لأن المرأة إذا كانت عاقلة مهذبة الأخلاق فهي لزوجها عين السعادة وإذا كانت بعكس ذلك فهي له عين الشقاء والتعاسة.

فلما سمع الجُندي كلام الشيخ شكره على حكمته ورجع إلى الملك وأخبره بما كان من أمره، فاستفاد الملك من هذه الفوائد وشكر الجُندي على درايته.

فلما أنهى الببغاء حكايته هذه نظر إلى قمر السُكَّر وقال لها:

– يا سيدتي قد اتضح لك من هذا المثل أن المرأة إذا كانت مهذبة الأخلاق كانت محبوبة وممدوحة فاجتهدي إذن أن تكوني كريمة الأخلاق لئلا يشمئز حبيبك، وأما الآن فانتهزي هذه الفرصة واذهبي إليه لتنالي مرغوبك.

فقامت قمر السُّكَّر مسرعة نحو الباب فرأت أنه قد طلع الصباح، وأشرقت الشمس على الهضاب والبطاح فعادت إلى حجرتها كئيبة، وإذ لم تنل مرادها أجلته إلى الليلة التالية وقضت ذاك النهار بفروغ صبر، ولما وفد المساء أتت قمر السُّكَّر قبل الوقت الذي اعتادت أن تأتي به، فعلم الببغاء أن نار الهوى قد غلبت عليها فأغمض عينيه وتظاهر بالرقاد.. فلما نظرته قمر السُّكَّر على هذه الحالة هتفت صارخة بأعلى صوتها:

– أيها الببغاء المغفل.. إنك لخلوك من ألم العشق تقضي أوقاتك بالنوم والراحة، ومع ذلك كله فإنك تدعي المساعدة لي لتنقذني من بلواي، إلا أن قولك لا يطابق أفعالك لأنك غير مبالٍ بمشقتي ومحنتي وقد عجبت غاية العجب، كيف أمكنك أن تنام النهار كله..! مع أنني لم أذق قط لذة الوسن لشدة ما أصابني من ألم البعاد. ثمَّ تنهدت وأنشدت:

أمن المروءة أن أبيت مسهدًا أرقًا وأبلُّ ملابسي بدموعي

وتبيت ريان الجفون من الكرى وأبيت منك بليلة الملسوع

فعند ذلك فتح الببغاء عينيه، ونظر إلى قمر السُّكَّر وقال لها:

لماذا تقولين إنني جاهل بأحوال العشق والغرام.. فتعالَي نتداعَى على حقيقة ذلك ونرى مَن هو أشد عشقًا من الآخر.. فأنت منذ ابتليت بالعشق والغرام قد عيل صبرك وأما أنا فمنذ بلغت سن الرشاد لم أزل صابرًا على أهوال العشق.. هذا فضلاً عما عانيته من حسرتك إذ أذابت فؤادي كمدًا، وهذا لا ريب فيه لأنك تعلمين كم يهمني أمرك، والسبب أنني كنت غارقًا في بحر التفكير لما أتيت إليَّ فظننتني نائمًا مرتاحًا مع أنني لم أذق قط لذة الرقاد بل كنت متفكرًا بعواقب الأمر وناظرًا

إلى أسرار الحكمة التي أهبطت إليَّ من العلا، ومنها ما يمكني إيضاحه ومنها ما يجب كتمه، وقد ألهمت والله أعلم أن زوجك يأتي قريبًا، فخفت من أن يحول رجوعه بينك وبين مرامك مخجولاً من معشوقك كما خجلت زوجة الزاهد من زواجها.

فسألت قمر السُّكَّر:

- وكيف كانت حكايتهما؟

* * * *

حكاية

قال الببغاء:

إنه كان في عهد بني إسرائيل زاهد منقطع لله تعالى إلا أنه كان على جانب عظيم من الفقر والفاقة، وكان من عادته أن يخرج كل يوم إلى شوارع المدينة يتسوّل من الشاردين والواردين ليحصل قوته الضروري.. فيومًا ما حينما كان يتسول نظر بغتة رجلاً آتيًا إليه فلما دنا منه قال له:

– أيها الزاهد هل تريد دينارًا واحدًا من مالي الحلال أو عشرة من مالي الحرام؟

فأجابه الزاهد:

– يا سيدي لا أرتضي بألف دينار من المال الحرام، وأقنع بدينار واحد من المال الحلال.

فسر الرجل بكلامه وأعطاه دينارًا وانصرف عنه.

فأتى الزاهد إلى المدينة فرأى رجلاً معه طائر غريب فأحبه الزاهد وتقدّم إلى صاحبه وسأله عن جنس هذا الطائر وعن ثمنه فأجابه:

إن هذا الطائر يسمى (موغ هفت رنك) وثمنه دينار واحد فعند ذلك اشتراه الزاهد بالدينار الذي كان معه وأخذه إلى بيته فرحًا مسرورًا.

وكانت زوجته تنتظر رجوعه بفروغ صبر لتسد جوعها مما يتسوله.. فلما رجع إليها فارغ اليدين وأخبرها بأنه اشتري طائرًا بدينار واحد؛ ذهب فيها الغيظ كل مذهب وأخذت توبخه وتقول له:

– هلاّ كفاك فقرنا واحتياجنا حتى اقتنيت لنا طائرًا يحتاج إلى نفقة مثلنا ولا منفعة منه.

قالت هذا وأخذت تبالغ في إهانته وشتمه، غير أنها حيث كانت جميلة جدًا فلم يستأْ زوجها منها بل تحمل إهانتها بطيبة قلب فوضع الطائر في قفص وعلَّقه في الحائط، فعند المساء تنفض الطائر في قفصه فتقدّم الزاهد إليه ليرى ما أصاب فرأى في القفص جوهرة ثمينة وقعت من جناحي الطائر فأخذها إلى المدينة وباعها بمائة دينار فاشترى كل ما يعوزه من لوازم البيت.. ومنذ ذلك الحين أطلق الطائر من قفصه فكان يطير منه ويغيب كل النهار وعند المساء يرجع على بيت الزاهد وفي منقاره زمردة ثمينة، وبقي على هذه الحالة أيامًا عديدة وكان الزاهد يبيع كل زمردة منها بدينار فجمع من ذلك مالاً وافرًا، وزد على ذلك أن زوجته كانت عاقرًا فبعد أن اشترى الطائر حبلت وولدت ولدًا ذكرًا ففرح به أبوه فرحًا عظيمًا وسمَّاه فريد وأحضر له مربية لتربيه وتحرس طفولته، وبعد ذلك عزم على الحج ليشكر الله تعالى على أنعامه فدعا زوجته وقال لها:

– حيث قد عزمت على الحجة فأوصيك بهذا الطائر الذي كان سبب غبطتنا وسعادتنا، فأحسنى الالتفات إليه وإلى ابني العزيز الذي أودعك إياه حال غيابي.

ثمَّ ودَّعها وسافر إلى المدينة المنورة.

وأما ما كان من أمر زوجته حال غيابه فإنها ضجرت من الإقامة في البيت، فخرجت يومًا ما إلا المدينة فرأت شابًا يتعاطى الصرافة، فلما نظرت ما هو عليه من الجمال شغفت به وصارت تأتي كل يوم وتقف أمام حانوته لتروي غليل فؤادها من مشاهدته، فيومًا ما اشتد عليها الغرام فعيل صبرها وفي الحال بعثت تدعو الصراف إلى بيتها، فأتى إليها ولما رأى حسنها وجمالها هام بحبها واستحكمت بينهما رباطات الحب والوداد حتى صار الصراف يأتي إليها كل يوم ويواصلها، فيومًا ما أخذت تخبره بما كان من أمر زوجها مع هذا الطائر وكيف كان سبب سعادتهما.

فلما سمع الصراف كلامها ذهب إلى أحد أصدقائه الذي كان ممتازًا بالفطنة والدراية، وأخبره بقصة الطائر فقال له صديقه:

لا تعجبنَّ من ذلك.. لأنه وإن يكن هذا الطائر ذا فائدة عظيمة في حياته، فإن فائدته بعد موته أعظم لأن من أكل رأسه يصير ملكًا أو وزيرًا.

فلما سمع الصراف كلام صاحبه تمنى أن يأكل رأس الطائر، فذهب حسب عادته إلى بيت المرأة، وطلب منها أن تذبح الطائر وتطعمه إياه مشويًا.

فأجابته المرأة:

– إن هذا الطائر كان سبب سعادتنا وثروتنا، ومع ذلك فلا أضني به عليك لأنني مستعدة أن أفديك بنفسي فهلم إلى نهار غدٍ فتجده معدًا لغذائك .. فعند ذلك فرح الصراف فرحًا لا يوصف ورجع إلى بيته..

فلما كان اليوم الثاني بكَّرت زوجة الزاهد فذبحت الطائر ووضعته في إناء لتطبخه، فلما نظره ابنها على هذه الحالة وكان يحبه حبًا شديدًا طفق يبكي وينوح، ولم تستطع أمه ولا مرضعته أن تسكنه فقالت المُرضعة لأمه أن تعطيه قطعة من لحم الطائر فلعله يسكت.

فأجابتها الأم:

– إذا أعطيته ذلك فلا يعود الباقي يكفي الصراف. فأجابتها المرضعة:

– إذن أُعطيه رأس الطائر

فأعطتها إياه.. وقالت لها خذيه وأطعميه للولد.. فأخذه.

فأجابتها المرضعة حالاً وأطعمته للولد فكف عن البكاء وسكت ثمَّ بعد ذلك أتى الصراف بيت معشوقته فاستقبلته بكل ترحاب وقالت له:

– لقد ذبحت الطائر إكرامًا لك وهيأته لك طعامًا، ثمَّ أحضرت المائدة بين يديه، وأتت بالطائر على صحن كبير فأخذ الصراف يفتش على رأس الطائر فلم يجده.. فسأل المرأة عنه.

فأجابته:

- إن رأس الطائر لا يؤكل بل إن اللازم منه للأكل هو جسده فقد.. فإنني لما شويته أخذ ابني يبكي فطلبت مني مرضعته أن أعطيها الرأس لتطعمه للولد حتى يكف عن البكاء فأعطيتها إياه ولما أكله سكت.. فلما سمع الصراف كلام المرأة كاد يغيب عن الصواب من شدة الكدر والاندهاش فقام عن المائدة بدون أن يمد يده إليها، وخرج من البيت غاضبًا وإذ لم يسكن غضبه بوجه من الوجوه أتى صاحبه المار ذكره، وأخذ يخبره مفصلاً بما كان بأمره مع المرأة.

فقال له صاحبه:

- لا تحزن يا أخي.. لأن ذلك دواءً سهلاً لأنهم قد أجمعوا أن كل من يأكل رأس الرجل الذي أكل رأس هذا الطائر يصير ملكًا.

فلما سمع الصراف هذا الكلام بعث يخبر زوجة الزاهد بأنه حيث طلب منها أن تطعمه رأس الطائر فأطعمته لابنها فيريد منها أن تذبح له ابنها وتطعمه رأسه، وليداوم على صداقتها وإن أبت فلا يعود ينظر إلى وجهها ما دامت على قيد الحياة.

فلما بلغ زوجة الزاهد هذا الكلام غلبت عليه شهوة النفس فتعهدت له بذبح ابنها، وأجابته أنها صارت تنتهز فرصة مناسبة لإتمام مرغوبه.

فلما بلغ الصراف جوابها فرح فرحًا لا يوصف وصارت هي تترقب فرصة مناسبة لتذبح ابنها وتطعم رأسه للصراف.

وأما المرضعة فلم تلبث أن عرفت ما قصدته سيدتها، ففي ذات ليلة بينما كانت زوجة الزاهد غارقة في ثبات النوم غادرتها نائمة، وأخذت الولد وهربت به من وجه أمه وصارت حتى طلع الصباح، فأفضت إلى مدينة عظيمة، وفي اليوم الثاني سافرت منها إلى مدينة أخرى وبقيت تسير ثلاثين يومًا متوالية تنتقل من مدينة إلى مدينة حتى أفضت إلى عاصمة المملكة فاستأخرت فيها بيتًا، وأقامت فيها مواظبة على تربية الولد الذي كانت سبب نجاته.

وأما ما كان من أمر زوجة الزاهد فإنها استيقظت من النوم عند الصباح فلم تجد ابنها ومرضعته فأخذت تفتش عليها فلم تجدهما فحزنت حزنًا مفرطًا وقالت:

– يا لسوء حظي كيف يمكنني أن أعتذر للصراف الذي صرت الآن أخشى هجره، وأما الصراف فلم يلبث حتى بلغه الخبر فذهب الحزن فيه كل مذهب، وتبدَّل حبه لزوجة الزاهد بغضًا، وأصابه من جراء ذلك مرض عضال اقتاده إلى القبر.

وبعد مدة رجع الزاهد من الحج فلم يجد ولده ولا المرضعة ولا الطائر فقال سبحان الله أين الطائر وأين الولد ومرضعته.

فنظرت إليه زوجته باكية وقالت له:

– ليفدوك جميعًا لأنهم ماتوا حال غيابك وأخلفوا لي حزنًا جسيمًا أضعف جسدي وقواي حتى صرت أشابه الخيال.

فعند ذلك حزن الزاهد حزنًا مفرطًا وأخذ يبكي وينوح.

وأما ما كان من أمر فريد فإنه نما في العمر، وولع بركوب الخيل والصيد، فيومًا ما ركب جواده وذهب للصيد فمر تحت الكشك الذي كان يجلس فيه، فنظرته ابنة الملك وكانت بديعة الجمال، فكلفت به وابتدت بغرامه وأما فريد فنظر بغتة إلى الكشك فرأى هذه الابنة الفريدة الحسن وابتُلِيَ بعشقها وغرامها، وشرع كل منهما يسعى في مداومة عشقه وكان فريد يركب كل يوم جواده محتجًا بالذهاب إلى الصيد ويمر تحت الكشك ليرى الابنة المشار إليها التي كانت تنتظره في الشباك لتتمتع بمشاهدته.

وبقي فريد على هذه العادة أيامًا كثيرة، فيومًا من الأيام مر كجاري عادته تحت الكشك فدعته الابنة وكان قد عيل صبرها وقالت له:

– اعلم أن أبي قد طعن في السن، وليس له وارث ولذلك يحبني حبًّا شديدًا، ومهما طلبت منه فلا يرفض طلبي، وكان يبحث لي عن شاب جميل الصورة ليزوجني منه إلا إنه أخيرًا علق زواجي بشرط خدمة يجب تقديمها له، واشترط ذلك

على نفسه أمام وزرائه ورجال دولته، وبدون أن تتم هذه الخدمة فلا يزوجني من أحد، وأعوذ بالله من أن أكلفك بها أو أن أخبرك عنها، لأنها ذات خطر مبين وقد هلك بها كثير من الشبان.

فسألها فريد:

– وما هي هذه الخدمة فأبت أن تخبره بها.. وبعد أن ألح عليها جدًا قالت له:

– إنه يوجد في الصحراء الفلانية مرعى لخيل أبي فظهرت فيه أفعى عظيمة أهلكت جانبًا وافرًا من الخيل، وقطعت تلك السكة حتى لم يعد أحد يتجاسر أن يمر فيها، فتعاهد أبي حينئذٍ بأن يزوجني لمن يقتل هذه الأفعى.

فأجابها فريد:

– يا سيدتي إن للإنسان عمرًا مُقدَّرًا منذ الأزل فمن لم يحن أجله لم يمت.. ولو عرض نفسه للأخطار والمهالك وقد قال الله تعال: "وإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدّمون" وعليه فأريد أن أذهب إلى الأفعى وأحاول قتلها، فإن قتلتها نلت مبتغاي، وإن قتلتني فتذكَّريني ما دمت على قيد الحياة لأنني أكون قد مت شهيد حبك وغرامك.

قال هذا وصمم على مصارعة الأفعى لينال بغيته.. وودَّع الابنة والدموع تهطل من عينيها... وذهب إلى مرضعته واستأذنها بذلك، ثمَّ أتى بلاط الملك واستأذنه ليذهب لقتل الأفعى. فلما نظره الملك أحبه حبًا شديدًا لجمال صورته ونظر إلى وزيره وقال له:

– لو لم أتعهد بأن أزوج ابنتي بمن يقتل الأفعى لكنت الآن أزوجها من هذا الفتى، ولا يمكنني الآن أن أرجع بوعدي، لأنه يجب على الملوك أن يفوا بوعدهم، وأما أنت فخذ هذا الفتى وانصحه ليعدل عن قصده لئلا يهلك كما هلك غيره، فيخلف لي الحزن الشديد والكمد المديد، وقل له أن يصبر لنرى ما يتم من قبل الله تعالى فلعل الأفعى تموت حتف أنفها.

فأخذ الوزير ينصح فريدًا حسب أمر الملك، فلم يذعن فريد لكلامه بل بقيَ مُصرًا على إرادته فخرج إلى الصحراء يصحبه إليها رجال الدولة وأعيان المملكة، ولما دنوا من المحل المعهود أهدوا فريد إلى المكان الموجودة فيه الأفعى، فعند ذلك استل فريد سيفه وأخذ يفتش عليها وبقضائه تعالى وجدها نائمة فاغتالها وضربها بالسيف ضربة قوية فقطعها شطرين ثمَّ قطع رأسها وأتى به إلى الملك، فلما نظره الملك ورجال الدولة بهتوا حائرين مندهشين، وأما عقلاء المدينة والعرافين فقد قالوا إن قتل هذه الأفعى لم يكن بقوة بشرية، بل إن قاتلها قد أكل رأس الطائر المسمى (مرغ هفت رنك) فسألوا فريدًا عن ذلك فأخذ يقص عليهم حكايته مثلما سمعها من مرضعته.. فلما سمعها العلماء والحكماء أحبوه حبًا شديدًا وأما الملك فقد فرح فرحًا عظيمًا من قتل الأفعى ونجاة فريد من الخطر، فزوجه ابنته وتنازل له عن الملك وأجلسه على سرير السلطنة، لأنه كان وقتئذٍ قد طعن في السن وأضحى عاجزًا عن إدارة مهام المملكة.

وبعد أن تبوأ فريد سرير الملك بعث يستحضر إليه أباه وأمه والصراف المتقدّم ذكره ليقتله، وأما الصراف فكان قد مات من مدة طويلة وأما الزاهد وزوجته فخافا خوفًا شديدًا وقالا لبعضهما ماذا يا ترى يبتغي الملك منا؟ فحضرا بين يديه وهما يرتعدان خوفًا وبعد أن سجدا له عرفهما فريد بذاته وقلد أباه منصب الوزارة، وأقام مرضعته رئيسة على حرمه ثمَّ اختلى بأبيه وأمه وأخذ يخبر أباه بما كان من أمر أمه أولاً وآخرًا، فخجلت زوجة الزاهد وخافت خوفًا شديدًا وقالت:

– حقيق أنني كنت أحب الصراف إلا أن حبنا كان طاهرًا ولم يرتكب قط فعلاً شنيعًا، ومع ذلك كله فأنا تائبة نادمة على ما فرط مني. ثمَّ بعد ذلك قام فريد وقبَّل يدي والديه، وطلب رضاهما وعاش معهما زمنًا طويلاً بالمسرة والحبور.

فلما أنهى الببغاء حكايته هذه نظر إلى قمر السُّكَّر وقال لها:

يا سيدتي إن المقصود من هذه الحكاية أن لا تتاطلي بالذهاب إلى حبيب ك لأن ه يحتمل رجوع زوجك قريبًا، فيحول بينك وبين مرامك فتصبحين مخجولة من الأمير مثل زوجة الزاهد المار ذكرها، فاغتنمي إذن هذه الفرصة واذهبي إلى حبيبك.. فلما سمعت قمر السُكَّر هذا الكلام قامت لساعتها مسرعة نحو الباب، ولما م دت ي دها لتفتحه فإذا به يدق من الخارج بقضاء الله تعالى وحُكمه، ففتحته لتنظر من قَرَعَ هُ فإذا هو زوجها ساعد وقد رجع من سفره.. فلما وقع نظرها علي ه بُهِتَ ت ح ائرة مندهشة لا تدري بماذا تتكلم.

وبعد أن أطرقت هنيهة قالت له:

- الحمد لله يا سيدي الذي ردك إليَّ سليمًا سالمًا.

فإن الببغاء قد أخبرني بأن قدومك يكون في هذه الس اعة.. ول ذلك تعصَّ بتُ وتزيَّنَتُ وأتيتُ لملاقاتك. وأما ساعد فلم يصدق كلامها غير أنه حيث ك ان عل ى جانب عظيم من الحكمة والدراية؛ فلم يعجل في الأمر بل ذهب إلى الببغاء وس أله عن أحوال زوجته حال غيابه.

فأجابه الببغاء يا مولاي إنه لا يليق للإنسان أن يمدح نفسه إلا أن الض رورات تبيح المحرمات، وبناء عليه أقول لك إنني قد أتيتك بخدمة نصوحة لا يق در أح د على القيام بها، وهي أنني صنت عرضك من الدنس، ومنعت زوجتك من أن تم د يدها إلى الحرمات، واعلم يا مولاي أن الإنسان يحب في الدنيا كل ما يشتهيه إلا أن صديقًا نصوحًا مثلي لا يتوقع في كل حين، وأما أنا فلا أطلب منك عوضً ا ع ن خدمتي لك لأنني فعلت ذلك لوجه الله الكريم وأنا راضٍ بكل ما تتكرم به عليَّ ف إن استحسنت إطلاقي من هذا القفص فأذهب إلى أهلي وأصحابي لأشاهدهم، وأحض ر إليك في غالب الأحيان لأكمل خدمتي لك، فهذا ما أريده منك فإن أجب ت س ؤالي فتوليني جميلاً لا أنساه مدى الحياة. وأما ساعد فقد ارتاب بكلام الببغاء وقال له:

– أستحلفك بالله أن تخبرني بالواقع أيها الببغاء، ولا تخف عليَّ شيئًا لأنني أريد أن أعرف كل ما جرى حال غيابي. فعند ذلك أخذ الببغاء يقص عليه ببلاغة شائقة وفصاحة رائقة كل ما كان أمر زوجته من حين غيابه وحتى رجوعه، وقسم له يمينًا أن قمر السُّكَّر لم تأت قط فعلاً منكرًا ولم ترَ وجه الأمير الذي عشقته، وأنه كان يمنعها مرغوبها بالحيلة والخداع.

فصدق ساعد كلامه وشكره على خلوص حبه ووداده، وعلى ما أبداه من الحكمة الفائقة في صيانة عرضه فأطلقه من القفص مكافأة له على خدمته، فذهب الببغاء إلى البساتين وحظي بمشاهدة أهله وأصحابه، وكان في بعض الأحيان يأتي لزيارة سيده ليشاهده ويمده بنصائحه.

وأما قمر السُّكَّر فقد تابت واستغفرت زوجها، وتمكنت بينهما رباطات الحب والوداد، وعاشا مع الببغاء بأرغد عيش وأتم هناء، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات، وهذا ما انتهى إليه أمر هذا التاجر وزوجته مع الببغاء، فالحمد لله الذي لا ينتهي، وبقيت هذه الحكاية عبرة للمعتبر ونصيحة للمنتصحين فعلَّمَتْ وأفادت جميع العاشقين.

هذا وأرجو مَنْ طالع هذا الكتاب أن يغض الطرف عن عيوبه، ويصفح عن مؤلفه ويستر على ذنوبه، وأسأل الله أن يجعله نافعًا لقارئيه ومفيدًا لمطالعيه، وأحمده إذ وفقني إلى التمام، لأنه كما جوَّد براعة المَطالِع فقد أحسن براعة الختامْ.

* * * * * *

تمت